http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٧١

فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ أي : أشرافهم لعوامهم : ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فى الجنس والوصف ، يأكل ويشرب مثلكم ، من غير فرق بينكم وبينه ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ أي : يطلب الفضل عليكم ، ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم ، والعجب منهم أنهم رضوا بالألوهية والخضوع للحجر ، ولم يرضوا بنبوة البشر. ثم قالوا : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً أي : لو شاء اللّه إرسال الرسل لأرسل رسلا من الملائكة.

وإنما قال : لأنزل ولم يقل : لأرسل لأنّ إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال ، فمفعول المشيئة مطلق الإنزال ، أي : لو شاء ربنا إنزال شيء من الوحى لأنزل ملائكة يرسلهم إلينا ، ما سَمِعْنا بِهذا أي : بمثل هذا الكلام ، الذي هو الأمر بعبادة اللّه وحده ، وترك عبادة ما سواه ، أو : ما سمعنا بأنّ البشر يكون رسولا ، أو بمثل نوح عليه السّلام فى دعوى النبوة ، فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ أي : الماضين قبل بعثة نوح عليه السّلام. وإنما قالوا ذلك إما من فرط عنادهم ، أو لأنهم كانوا فى فترة متطاولة ، وقيل : معناه : ما سمعنا به أنه نبى ، إِنْ هُوَ أي : ما هو إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ أي : جنون ، أو جن يخبلونه ، ولذلك يقول ما يقول. فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ أي : انتظروا واصبروا إلى زمان حتى ينجلى أمره ، فإن أفاق من جنونه ، وإلا قتلتموه.

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ، لمّا أيس من إيمانهم دعا اللّه بالانتقام منهم ، فالجملة استئناف نشأ عن سؤال ، كأنه قيل : فماذا قال عليه السّلام ، بعد ما سمع هذه الأباطيل؟ فقيل : قال ، لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب ، وتمادوا فى الغواية والضلال ، حتى أيس من إيمانهم بالكلية ، وقد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن :

رَبِّ انْصُرْنِي بإهلاكهم بالمرة ، فهو حكاية إجمالية لقوله : لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً «١». بِما كَذَّبُونِ بسبب تكذيبهم إياى ، أو بدل تكذيبهم ، كقولك : هذا بذلك ، أي : بدل ذاك ، والمعنى : أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم.

فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أجبنا دعاءه وأوحينا إليه عند ذلك أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا أي : ملتبسا بحفظنا وكلاءتنا ، كأنّ معك حفاظنا يكلؤونك بأعينهم ، لئلا يتعرض لك أحد ، يفسد عملك ، ومنه قولهم : عليه من اللّه عيون كالئة ، وَوَحْيِنا أي : أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها. روى : أنه أوحى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ

الطائر.

وفى القاموس جؤجؤ –كهدهد – : الصدر. فَإِذا جاءَ أَمْرُنا أي : عذابنا بأمرنا ، وَفارَ التَّنُّورُ أي : فار الماء من تنور الخبز ، فخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ فى الإنذار والاعتبار. روى أنه قيل لنوح : إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأهلك السفينة ، فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته ، فركب ، وكان

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة نوح. [.....]

التنور تنور آدم ، فصار إلى نوح ، وكان من حجارة. واختلف فى مكانه ، فقيل : فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل ، وقيل : بالشام ، وقيل : بالهند.

فإذا فار فَاسْلُكْ فِيها : فأدخل فى السفينة مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ من كل أمة اثنين مزدوجين ، ذكر وأنثى. قال الحسن : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والدود والذباب ، فلم يحمل منه شيئا ، وإنما يخرج من الطير. هـ. وَاحمل فى السفينة أَهْلَكَ نساءك وأولادك ، أو من آمن معك ، إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ أي : القول من اللّه بهلاكه ، وهو ابنه وإحدى زوجتيه ، وإنما جيء بعلى لكون السابق ضارا ، كما جيء باللام فى قوله : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... «١» ، وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ «٢» لكونه نافعا ، ونحوه : لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ «٣» ، وَلا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ أي : لا تسألنى نجاة الذين كفروا ، إنهم مقضى عليهم بالإغراق لا محالة لظلمهم بالإشراك والإصرار ، ومن هذا شأنه لا يشفع له ، وكأنه عليه السّلام ندم على الدعاء عليهم ، حين تحقق هلاكهم ، فهمّ بمراجعة الحق فيهم شفقة ورحمة ، فنهى عن ذلك.

ثم قال له : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فإذا تمكنتم عليها راكبين فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم على طريق : فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٤». ولم يقل : فقولوا ، وإن كان أهله ومن معه قد استووا معه لأنه نبيهم وإمامهم ، فكان قوله قولهم ، مع ما فيه من الإشعار بفضل النبوة.

وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي فى السفينة ، أو منها مُنْزَلًا مُبارَكاً أي : إنزالا مباركا ، أو موضع إنزال يستتبع خيرا كثيرا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ خير من ينزل فى كل خير ، أمر عليه السّلام بأن يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عليه تعالى ، توسلا به إلى إجابة دعائه ، فالبركة فى السفينة : النجاة فيها ، وبعد الخروج منها : كثرة

النسل وتتابع الخيرات ، إِنَّ فِي ذلِكَ فيما فعل بنوح وقومه لَآياتٍ : لعبرا ومواعظ ، وَإِنْ كُنَّا أي : وإن الشأن والقصة كنا لَمُبْتَلِينَ : مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد ، أو : مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويذّكر ، كقوله : وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ «٥». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ١٧١ من سورة الصافات.

(٣) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٤) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.

(٥) الآية ١٥ من سورة القمر.

الإشارة : تقدمت إشارة هذه القصة مرارا بتكررها ، وفيها تسلية لمن أوذى من الأولياء بقول قبيح أو فعل ذميم.

وقال القشيري فى قوله : وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً : الإنزال المبارك : أن تكون باللّه وللّه على شهود اللّه ، من غير غفلة عن اللّه ، ولا مخالفة لأمر اللّه. هـ.

ثم ذكر قصة هود أو صالح ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٣١ الى ٤١]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥)

هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ (٣٩) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (٤٠)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ من بعد قوم نوح قَرْناً أي : قوما آخَرِينَ هم عاد قوم هود ، حسبما روى عن ابن عباس ، ويشهد له قوله تعالى : وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ «١» ،

ومجيء قصة هود على إثر قصة نوح فى الأعراف وهود والشعراء ، ونقل ابن عطية عن الطبري : أن المراد بهم ثمود قوم صالح ، قال : والترتيب يقتضى قوم عاد ، إلّا أنهم لم يهلكوا بالصيحة ، بل بالريح. قال فى الحاشية : والظاهر أنهم صالح. كما قاله الطبري. وحمل الواحدي الصيحة على صيحة العذاب ، فيتجه لذلك أنهم عاد قوم هود ، وقد تقرر أن ثمود بعد عاد. ثم قال : وفى السيرة : عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وثمود بن عابر بن أرم بن سام بن نوح. هـ.

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة الأعراف.

فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ ، الإرسال يعدّى بإلى ، ولم يعدّ بهاهنا وفى قوله : كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ «١» ، وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ «٢» لأن الأمة والقرية جعلت موضعا للإرسال ، إيذانا بأن المرسل إليهم لم يأتيهم من غير مكانهم ، بل إنما نشأ بين أظهرهم ، كما ينبىء عنه قوله : رَسُولًا مِنْهُمْ أي : من جملتهم نسبا ، وهو : هود أو صالح ، فإنهما – عليهما السّلام – كانا منهم. قائلا لهم : أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ عذابه ، الذي يقتضيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصي.

وَقالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ، ذكر مقال قوم هود ، فى جوابه ، فى الأعراف وهود بغير «واو» لأنه على تقدير سؤال سائل ، قال : فما قال قومه؟ فقيل : قالوا : كيت وكيت ، وهنا مع الواو لأنه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ومعناه : حكاية قولهم الباطل إثر حكاية قول الرسول الحق ، وليس بجواب للنبى متصل بكلامه ، وجيء بالفاء فى قصة نوح عليه السّلام لأنه جواب لقوله ، واقع عقبه ، أي : وقال الأشراف من قومه الَّذِينَ كَفَرُوا ، وصفوا بالكفر ذمّا لهم ، وتنبيها على غلوّهم فيه ، وَكَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ أي : بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك ، أو بمعادهم إلى الحياة الثانية ، وَأَتْرَفْناهُمْ : نعّمناهم فِي الْحَياةِ الدُّنْيا بكثرة الأموال والأولاد ، أي :

قالوا لأتباعهم ، مضلين لهم : ما هذا النبي إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ فى الصفة والأحوال ، والاحتياج إلى القوام ، ولم يقولوا : مثلنا تهوينا لأمره عليه السّلام.

ثم فسر المثلية بقوله : يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ أي : منه ، فحذف لدلالة ما قبله عليه ، وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ، إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ بالانقياد لمثلكم ، ومن حمقهم أنهم أبو اتّباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم.

أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ – بالكسر والضم – من مات يمات ويموت ، وَكُنْتُمْ تُراباً وَعِظاماً نخرة ، أَنَّكُمْ

مُخْرَجُونَ ، فأنكم الثانية ، توكيد للأولى للفصل بينهما ، والتقدير : أيعدكم أنكم مخرجون بالبعث إذا متم وكنتم ترابا وعظاما؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، تكرير لتأكيد البعد ، وهو اسم فعل مبنى على الفتح ، واقع موقع بعد ، فاعلها مضمر ، أي : بعد التصديق أو الوقوع لِما تُوعَدُونَ من العذاب ، أو فاعلها : «ما توعدون» ، واللام زائدة ، أي : بعد ما تعدون من البعث ، وقيل : ما توعدون من البعث. وقيل : مبتدأ ، وهما اسم للبعد ، و(لِما تُوعَدُونَ) : خبر ، أي : بعد بعد لما توعدون ، إِنْ : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا ، والضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما بعده من بيانه ، وأصله : إن الحياة إلا حياتنا ، وأتى بالضمير حذرا من التكرير ، أي : لا حياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها ، ودنت منا ، نَمُوتُ وَنَحْيا أي : يموت بعضنا ويولد بعض ، إلى انقراض العصر ، وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ بعد

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ٩٤ من سورة الأعراف.

الموت ، إِنْ ماهُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً

فيما يدّعيه من الإرسال ، وفيما يعدنا من البعث ، وَما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ : بمصدّقين بما يقول.

قالَ هود ، أو صالح – عليهما السّلام – بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك ، متضرعا إلى اللّه – عز وجل – :

رَبِّ انْصُرْنِي عليهم ، وانتقم منهم بِما كَذَّبُونِ أي : بسبب تكذيبهم إياى وإصرارهم عليه ، قالَ تعالى إجابة لدعائه : عَمَّا قَلِيلٍ أي : عن زمان قليل ، زيدت «ما» ، بين الجار والمجرور لتأكيد معنى القلة ، أو نكرة موصوفة ، أي : عن شيء قليل لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ عما فعلوا من التكذيب ، وذلك عند معاينتهم العذاب.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، لعلهم ، حين أصابتهم الريح العقيم ، أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة من صوته. أو يراد بها : صرير الريح وصوته. وقد روى أن شدّادا حين أتم بناء إرم ، سار إليها بأهله ، فلما دنا منها بعث اللّه عليهم صيحة من السماء ، فهلكوا ، وقيل : الصيحة : العذاب المصطلم ، قال الشاعر :

صاح الزّمان بآل فدك صيحة خرّوا لشدّتها ، على الأذقان

وإذا قلنا : هم قوم صالح ، فالصيحة صيحة جبريل عليه السّلام ، صاح عليهم فدمرهم. وقوله : بِالْحَقِّ أي : بالعدل من اللّه ، يقال : فلان يقضى بالحق ، أي : بالعدل ، أو : أخذتهم بالحق ، أي : بالأمر

الثابت الذي لا دفاع له ، فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أي : كغثاء السيل ، وهو ما يحمله من الورق والحشيش ، شبههم فى دمارهم بالغثاء ، وهو ما يرميه السيل ، من حيث إنهم مرميّ بهم فى كل جانب وسهب.

فَبُعْداً : فهلاكا ، يقال بعد بعدا ، أي : هلك هلاكا ، وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا تظهر أفعالها ، أي : فسحقا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وهو إخبار ، أو دعاء ، واللام لبيان من دعى عليه بالبعد ، كقوله : هَيْتَ لَكَ «١». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من عادة الحق – سبحانه – ، إذا أكب الناس على دنياهم ، واتخذوا إلههم هواهم ، بعث من يذكرهم بالله ، فيقول لهم : اعبدوا اللّه ، ما لكم من إله غيره ، أي : أفردوه بالمحبة ، واقصدوه بالوجهة ، فما عبد اللّه من عبد هواه ، فيقول المترفون ، وهم المنهمكون فى الغفلة ، المحجوبون بالنعمة عن المنعم ، الذين اتسعت دائرة حسهم : ما هذا الذي يعظكم ، ويريد أن يخرجكم عن عوائدكم ، إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون ، ويشرب مما تشربون ، ومادروا أنّ وصف البشرية لا ينافى وجود الخصوصية ، فإذا تمادوا فى غفلتهم ، وأيس من هدايتهم ، ربما دعا عليهم ، فأصبحوا نادمين ، حين لا ينفعهم الندم ، وذلك عند نزول هواجم الحمام. وباللّه التوفيق.

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ (٤٢) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة يوسف.

قلت : القرن : أهل العصر ، سموا به لقران بعضهم البعض ، و(تَتْرا) : حال ، فمن قرأه بالألف فهو كسكرى ، وهو من الوتر ، واحدا بعد واحد ، فالتاء الأولى بدل من الواو ، وأصله : وترى ، كتراث وتقوى ، والألف للتأنيث ، باعتبار أن الرسل جماعة ، ومن نوّنه جعله كأرطى ومعزى ، فيقال : أرطى ومعزى ، وقيل : مصدر بمعنى فاعل ، أي : متتابعين.

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ أي : من بعد قوم هود ، قُرُوناً آخَرِينَ قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم ، ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ ، «من» : صلة ، أي : ما تتقدم أمة من الأمم المهلكة أَجَلَها الذي عيّن لهلاكها فى الأزل ، وَما يَسْتَأْخِرُونَ عنه ساعة. ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا ، عطف على «أنشأنا» ، على معنى أن إرسالهم متراخ عن إنشاء القرون المذكورة ، وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ثم أنشأنا من بعدهم

قرونا آخرين ، قد أرسلنا إلى كل قرن منهم رسولا خاصا به ، والفصل بين الجملتين بالجملة المتعرضة الناطقة بعدم تقدم الأمم أجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة إلى بيان هلاكهم على وجه إجمالي.

وقوله : تَتْرا أي : متواترين واحدا بعد واحد ، أو متتابعين يتبع بعضهم بعضا ، كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ ، الرسول يلابس المرسل والمرسل إليه ، والإضافة تكون بالملابسة ، فأضافهم أولا إلى نون العظمة ، وهنا إلى المرسل إليهم للإشعار بكمال شناعتهم وضلالتهم ، حيث كذبت كلّ أمة رسولها المعين لها ، وعبّر عن التبليغ بالمجيء للإيذان بأنهم كذبوه فى الملاقاة الأولى ، فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً فى الهلاك ، كما تبع بعضهم بعضا فى الكفر والتكذيب ، الذي هو سبب الهلاك ، وَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ أخبار ، يسمر بها ويتعجب منها ، أي : لم يبق منهم إلا حكايات يعتبر بها المعتبرون ، والأحاديث يكون اسم جمع للحديث ، ومنه : أحاديث النبي – عليه الصلاة السّلام – ويكون جمعا للأحدوثة ، وهى ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ، وهو المراد هنا ، فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ به وبرسله ، اقتصر هنا على عدم إيمانهم ، وأما القرون الأولى ، فحيث نقل عنهم ما مرّ من العتو وتجاوز الحد فى الكفر والعدوان ، وصفهم بالظلم. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة : كل ما حكى اللّه تعالى عن القرون الماضية والأمم السابقة ، فالمراد ترهيب هذه الأمة المحمدية ، وإزعاج لها عن أسباب الهلاك ، وإنهاض لها إلى العمل الصالح ، لتكون أحاديث حسانا بين الأمم ، فكل إنسان ينبغى له أن يجتهد فى تحصيل الكمالات العلمية والعملية ، ليكون حديثا حسنا لمن بعده ، كما قال القائل :

ما المرء إلا حديث من بعده فكن حديثا حسنا لمن وعا

وقال آخر : وما المرء إلا كالشّهاب وضوءه يحور رمادا بعد ما هو ساطع

وما المال والأهلون إلا وديعة ولا بدّ يوما «١» أن تردّ الودائع

وباللّه التوفيق ،

---

(١) فى الأصول : ولا بد من يوم.

ثم ذكر رسالة موسى وهارون – عليهما السّلام – فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٩]

ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ

(٤٦) فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

قلت : «هارون» : بدل من «أخاه».

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَأَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا التسع من اليد ، والعصا ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، ونقص الثمرات ، والطاعون. ولا مساغ لعدّ فلق البحر منها إذ المراد الآيات التي كذبوها واستكبروا عنها ، بدليل ما بعدها. وَسُلْطانٍ مُبِينٍ وحجة واضحة ملزمة للخصم الإقرار بما دعى إليه ، وهى إمّا العصا ، وإفرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لأنها أبهر آياته عليه السّلام ، وقد تضمنت معجزات شتى من انقلابها ثعبانا ، وتلقفها ما أفكته السحرة ، كما تقدم. وأما التعرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها ، وحراستها ، وصيرورتها شمعة ، وشجرة خضراء مثمرة ، ودلوا ورشاء ، وغير ذلك مما ظهر منها فى غير مشهد فرعون وقومه ، فغير ملائم لمقتضى المقام ، وإمّا ما أتى به من الحجج الباهرة ، فيشمل ما تقدم وغيره.

إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ أي : أشراف قومه ، خصهم بالذكر ليرتب عليه ما بعده من قوله : فَاسْتَكْبَرُوا عن الانقياد وتمردوا. تكبرا وترفعا ، وَكانُوا قَوْماً عالِينَ : متكبرين ، متمردين ، فَقالُوا ، فيما بينهم ، على طريق المناصحة : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا ، «مثل» و«غير» يوصف بها الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث ، والبشر يطلق على الواحد ، كقوله : بَشَراً سَوِيًّا

«١» ، وعلى الجمع ، كقوله : فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً «٢» ، وأراد به هنا الواحد ، فثناه ، أي : كيف نؤمن لبشرين مثلنا فى العجز والافتقار ، وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ أي : خادمون منقادون لنا كالعبيد ، وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بهما – عليهما السّلام – ، وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية ، بناء على زعمهم الفاسد ، من قياس الرئاسة الدينية على الرئاسات الدنيوية ، الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنيوية ، من المال والجاه ، كدأب قريش ، حيث قالوا : لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ «٣». وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٤». وعلى جهلهم بأن مناط الاصطفاء

---

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم.

(٢) من الآية ٢٦ من سورة مريم.

(٣) الآية ١١ من سورة الأحقاف.

(٤) الآية ٣١ من سورة الزخرف. [.....]

للرسالة هو السبق فى حيازة النعوت العلية ، وإحراز الكمالات السنية ، جبلّة أو اكتسابا ، فَكَذَّبُوهُما أي : فتمادوا على تكذيبهما ، وأصروا ، واستكبروا استكبارا ، فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ بالغرق فى بحر القلزم.

وَلَقَدْ آتَيْنا بعد إهلاكهم ، وإنجاء بنى إسرائيل من ملكهم واسترقاقهم ، مُوسَى الْكِتابَ : التوراة ، ولمّا نزلت لإرشاد قومه جعلوا كأنهم أوتوها ، فقيل : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إلى الحق بالعمل بما من الشرائع والأحكام ، وقيل : على حذف مضاف ، أي : آتينا قوم موسى ، كقوله : عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ «١» ، أي :

من آل فرعون وملئهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من طرد وأبعد عن ساحة رحمة اللّه تعالى والوصول إليه ، فإنما سببه التكبر والعلو ، وكل من قرب ووصل إلى اللّه فإنما سببه التواضع والحنو ، ولذلك ورد : «لا يدخل الجنّة من كان فى قلبه مثقال ذرّة من كبر» «٢». وحقيقة الكبر : بطر الحقّ وغمط النّاس ، أي : إنكار الحق واحتقار الناس ، وفى مدح التواضع والخمول مالا يخفى. فمن تواضع ، دون قدره ، رفعه اللّه فوق قدره ، فالتواضع مصيدة الشرف ، به يصطاد وينال ، ومن أوصاف أهل الجنة : «كل ضعيف مستضعف ، لو أقسم على اللّه لأبره فى قسمه» «٣» ، إلى غير ذلك من الأخبار.

وكل من أنكر على أهل الخصوصية فسببه إما الحسد ، أو الجهل بأن الخصوصية لا تنافى أوصاف البشرية ، أو قياس الرئاسة الباطنية الدينية على الرئاسة الدنيوية ، فأسقط من لا رئاسة له فى الظاهر ولا جاه ، أو لعدم ظهور الكرامة ، وهى غير مطلوبة عند المحققين. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر عيسى عليه السّلام ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : آية ٥٠]

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً دالة على كمال قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر ، ووحّدها لأن الأعجوبة فيهما واحدة. أو المراد : وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية ، فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ، أي : وجعلنا ابن مريم وحده ، من غير أن يكون له أب ، آية ، وأمه ، من حيث إنها ولدت من غير ذكر ، آية ، وتقديمه عليه السّلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية ، كما أن تقديم أمه فى قوله تعالى : وَجَعَلْناها وَابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ «٤» ، لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ.

---

(١) من الآية ٨٣ من سورة يونس.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه) عن عبد اللّه بن مسعود. رضى اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٤٥) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجة فى (الزهد ،

باب من لا يؤبه به) من حديث معاذ بن جبل ، بلفظ : «ألا أخبركم عن ملوك الجنة؟» قلت : بلى ، قال : رجل ضعيف مستضعف ، ذو طمرين ، لا يؤبه ، لو أقسم على اللّه لأبره».

(٤) الآية ٩١ من سورة الأنبياء.

وَآوَيْناهُما أي : جعلنا مأويهما ومنزلهما إِلى رَبْوَةٍ أي : أرض مرتفعة ، وهو بيت المقدس فإنها كبد الأرض ، وأقرب الأرض إلى السماء ، بمعنى أنه يزيد علوها على علو الأرض ، فينتقص بعدها عن السماء عن بعد غيرها منها بثمانية عشر ميلا ، كما جاء ، ولعل ذلك سر كونها أرض الحشر ، وكون الإسراء وقع منها. قاله المحشى ، وقيل : دمشق ، وقيل : فلسطين ، والرملة. ذاتِ قَرارٍ مستقر من الأرض ، مستوية ، منبسطة ، سهلة ، أو ذات ثمار ، يستقر لأجل ثمارها ، ساكنوها فيها ، وَمَعِينٍ أي : ماء معين ، ظاهر ، جار ، فقيل : من معن ، إذا جرى ، أو مدرك بالعين لظهوره ، من عانه ، إذا أدركه بعينه ، أو من الماعون ، وهو النفع لأنه نفاع لظهوره وجريه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كان عيسى عليه السّلام منقطعا عن هذا العالم ، متبتلا زاهدا ، لم يتخذ فى هذه الدنيا قرارا ، ولم يبن فيها مسكنا ولا دارا ، فكان آية للعباد والزهاد من الرجال. كما أن أمه كانت آية للنساء العابدات ، فى التبتل والانقطاع ، فآواهما إلى ربوة التقريب والاصطفاء ، ذات قرار وتمكين ومصافاة ووفاء ، وجعل ، جل جلاله ، أولياءه على قدم أنبيائه ، فمنهم على قدم نوح عليه السّلام فى القوة ونفوذ الهمة ، مهما دعا على أحد هلك. ومنهم على قدم إبراهيم عليه السّلام فى الشفقة والرحمة وعلو الهمة ، وتحقيق التوحيد ، وإمام أهل التفريد ، ومنهم على قدم موسى عليه السّلام فى المناجاة والمكالمة والقوة والعزم ، ومنهم على قدم عيسى عليه السّلام فى الزهد والانقطاع ، ومنهم على قدم نبينا محمد – عليه الصلاة والسّلام – وهو الجامع لما افترق فى غيره ، وهو قطب الدائرة ، نفعنا اللّه بهم جميعا.

ولمّا كان جلّ الأنبياء بالشام ، التي هى ذات قرار وأنعام ، أمرهم بالأكل من تلك النعم ، والشكر بالعمل الصالح ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥١ الى ٥٦]

يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ (٥٥)

نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (٥٦)

قلت : (و إن هذه) : من كسره استأنف ، ومن فتحه حذف اللام ، أي : فاتقون لأنّ هذه ، أو معطوف على ما قبله :

(بما تعملون عليم) ، وبأن هذه ، أو بتقدير : واعلموا أن هذه. و(زُبُراً) : حال من : «أمرهم» ، أو من «واو» (تقطعوا) ، و(نسارع) : خبر «أن» ، و«ما» : موصولة.

(٥٧٩/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٠

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ، هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لأنهم أرسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة ، وإنما المعنى : الإعلام بأنّ كل رسول فى زمانه نودى بذلك ، ووصى به للإيذان بأن إباحة الطيبات شرع قديم ، جرى عليه جميع الرسل – عليهم الصلاة والسّلام – ووصّوا به ، أي : وقلنا لكل رسول : كل من الطيبات واعمل صالحا. فعبّر عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع للإيجاز ، وفيه من الدلالة على بطلان ما عليه الرهابنة من رفض الطيبات مالا يخفى. قاله أبو السعود. وقيل :

خطاب لعيسى عليه السّلام لا تصال الآية به ، وكان يأكل من غزل أمه ، وهو من أطيب الطيبات ، وقيل : لنبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم لفضله وقيامه مقام الكل ، وكان يأكل من الغنائم ، وما رزقه اللّه من غير اختيار على اللّه ، والجمع : للتعظيم فيهما ، والطيبات : ما يستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه ، حسبما ينبىء عنه سياق النظم الكريم.

وَاعْمَلُوا عملا صالِحاً ، فإنه المقصود منكم شكرا لما أسدى إليكم ، ولا تشتغلوا بالنعم عن طاعة المنعم وشهوده ، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ من الأعمال الظاهرة والباطنة ، عَلِيمٌ ، فأجازيكم عليه ، وفيه تهديد للمذكورين ، فما بالك بغيرهم ممن ألهته النعم عن شهود المنعم وشكره؟! وَإِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ «١» أي : ملتكم وشريعتكم التي أنتم عليها أُمَّةً واحِدَةً أي : ملة واحدة ، متحدة فى أصول الشرائع ، التي لا تبدل بتبدل الأعصار ، وهو التوحيد وما يتبعه من أصول العقائد. وَأَنَا رَبُّكُمْ من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية ، فَاتَّقُونِ : فخافوا عتابى فى مخالفتكم أمرى ، أو فى شق العصا ، والمخالفة بالإخلال بمواجب ما ذكر من اختصاص الربوبية بي.

والخطاب للرسل والأمم جميعا ، على أن الأمر فى حق الرسل للتهييج ، وفى حق الأمم للتحذير. قيل : وجاء هنا :

«فاتقون» ، الذي هو أبلغ فى التخويف والتحذير من قوله فى الأنبياء : فَاعْبُدُونِ «٢» لأن هذه جاءت

عقب إهلاك طوائف كثيرين ، وفى الأنبياء ، وإن تقدمت أيضا قصة نوح وما قبلها ، فإنه جاء بعدها ما يدل على الإحسان واللطف التام ، فى قصة أيوب ويونس وزكريا ومريم ، فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته.

ثم قال تعالى : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ أي : فتفرقوا فى أمر دينهم مع اتحاده ، وجعلوه قطعا متفرقة ، وأديانا مختلفة ، بَيْنَهُمْ زُبُراً أي : قطعا – جمع زبور ، بمعنى الفرقة ، ويؤيده قراءة من قرأ : (زُبُراً) بفتح الباء ، جمع زبرة كغرفة ، أي : قطعا مختلفة ، كلّ ينتحل كتابا ، وقيل : جمع زبور ، بمعنى كتاب ، أي : كل فريق يزعم أن له كتابا يتمسك به. وعن الحسن : قطعوا كتاب اللّه قطعا وحرّفوه ، والأول أقرب ، أي : تفرقوا فى أصل الدين فرقا ،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب «وأن» بفتح الهمزة. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الهمزة على الاستئناف .. انظر الإتحاف (٢/ ٢٨٥).

(٢) أي : فى قوله تعالى : «إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون». الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

وتحزبوا أحزابا ، كُلُّ حِزْبٍ من أولئك المتحزبين بِما لَدَيْهِمْ من الدين الذي اختاروه ، أو من الهوى والرأى ، فَرِحُونَ : معجبون ، يعتقدون أنه الحق.

فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ فى جهالتهم وغفلتهم ، شبّه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذي يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها ، سابحون فى بحر الجهالة ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلم إيذانا بأنهم مطبوع على قلوبهم ، أي : اتركهم على حالهم حَتَّى حِينٍ : حتى نأمرك فيهم بما شئت من الجهاد أو غيره ، أو : إلى أن يقتلوا أو يموتوا على الكفر ، أو : إلى وقت حلول العذاب بهم. فهو تهديد وتسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ونهى عن استعجال عذابهم ، وفى التنكير والإبهام مالا يخفى من التهويل.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ أي : نعطيهم إياه ونجعله مددا لهم ، مِنْ مالٍ وَبَنِينَ «من» : بيان ، أي : أيظنون أن الذي نمدهم به من الأموال والبنين ، نُسارِعُ لَهُمْ بذلك فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ أنه استدراج ، قيل : استدراك لقوله : أَيَحْسَبُونَ أي : بل هم أشباه البهائم ، لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك ، هل هو استدراج أو مسارعة فى الخيرات؟ وحاصل المعنى : أن هذا الإمداد ليس إلا استدراجا لهم إلى المعاصي ، وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات ، ومعاملة لهم بالثواب ، جزاء على حسن

صنيعهم.

وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسألة الأصلح لأنهم يقولون : إن اللّه – تعالى – لا يفعل بأحد من الخلق إلا ما هو أصلح له فى الدين ، وقد أخبر أن ذلك لا خير لهم فيه ولا صلاح ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تناول الطيبات وما تشتهيه النفس من أنواع الملذوذات ، مباح فى الشرع قديما وحديثا ، إن كان من وجه مباح وقارنه الشكر لأن الحق تعالى ما خلق ذلك إلا لعباده ليشكروه ويحمدوه ، ويتذكروا بذلك نعيم الجنان ، الذي لا يفنى ولا يزول ، وما هذا النعيم الدنيوي إلا أنموذج من نعيم الآخرة ، قال تعالى : فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ «١». هذا باعتبار عامة المسلمين ، وأما الخاصة من العبّاد والزهاد والمريدين السائرين ، فهم يجتنبون ما تجنح إليه النفس ، ويتعلق به القلب خوفا من الاشتغال بذلك عن العبادة أو السير لأن القلب إذا توجه لأمر أعرض عن الآخر ، فإذا توجه إلى طلب الشهوات أعرض عن اللّه ، وتفتّر عن السير ، وتكبّل عن النهوض إلى الحضرة. ولذلك قال فى الحكم : «كيف يشرق قلب : صور الأكوان منطبعة فى مرآته؟ أم كيف يرحل إلى اللّه وهو مكبّل بشهواته؟ أم كيف يدخل حضرة اللّه وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟» وقال بعضهم : لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة ، أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة. هـ.

---

(١) من الآية ٣٨ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٢

وأما خاصة الخاصة وهم العارفون المتمكنون ، فهم مع مولاهم ، يأخذون من يده ما يعطيهم لأن قلوبهم قد استغرقتها الأنوار ، فلم يبق فيها متسع للأغيار ، قد تهذبت نفوسهم ، واطمأنت باللّه قلوبهم ، فلا تلتفت إلى غير مولاها. وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ .. إلخ ، الاختلاف ، إن كان فى التوحيد وما يرجع إليه من أصول العقائد ، فهو مذموم ، وهو الذي نعاه اللّه على الكفرة المتحزبة ، وأمّا إن كان فى الفروع فهو مشروع ، كاختلاف الشرائع والمذاهب ، ولذلك قال – عليه الصلاة والسّلام – : «اختلاف أمتى رحمة» ، وقال بعض الصوفية : ما زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، فإن توافقوا فلا خير فيهم. هـ. والمراد بالتنافر – فى حقهم – التناصح ، وإنكار بعضهم على بعض إذا رأى من أحد عيبا ، فإن سكتوا عن بعضهم ، وتوافقوا على مساوئ بعضهم بعضا ، فلا خير فيهم ، وأما قلوبهم فهى متوافقة مؤتلفة.

وقوله تعالى : كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ، أما أهل الحق فهم فرحون لسلوكهم على المنهاج المستقيم ، المفضى إلى رضوان اللّه ورحمته ، وأما أهل الباطل فزين لهم الشيطان أعمالهم ليتمكنوا من التقرر عليه حتى ينفذ مراد اللّه فيهم ، ولو تحققوا أنهم على باطل لم يمكن قرارهم عليه ، فتبطل حكمته وقهريته ، وكل من أقامه الحق – تعالى – فى حرفة أو خطة ، زينها اللّه – تعالى – فى قلبه حتى يقوم بها ، وكذلك أهل الأسباب من أرباب الدليل والبرهان ، مع أهل التجريد من أهل الشهود والعيان ، لو علموا بمقام أهل العيان ما أقاموا فى الأسباب ، ولتجردوا كلهم ، فتبطل الحكمة الإلهية. وكان إبراهيم بن أدهم رضى اللّه عنه يقول : (لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) : فسبحان من قرّب قوما وأبعد قوما ، (وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً). واللّه تعالى أعلم وأحكم.

ثم ذكر أهل القرب ، إثر بيان أهل البعد ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٥٧ الى ٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (٦٠) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ (٦١)

وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها وَلَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٣

قال فى الحاشية : لمّا ذكر تعالى غفلة الكفار ووعيدهم ، عقّب ذلك بوصف المؤمنين بضد ذلك ويقينهم بالرّجعى ، وإشفاقهم من جلال الحق وقهره. هـ.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ أي : من عذابه خائفون حذرون ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ المنصوبة والمنزّلة ، (يؤمنون) بتصديق مدلولها ، وبكتب اللّه كلها ، لا يفرقون بين كتبه ، كالذين تقطعوا أمرهم بينهم – وهم أهل الكتاب وغيرهم ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ شركا جليا ولا خفيا ، بخلاف مشركى العرب والعجم.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا أي : يعطون ما أعطوا من الزكوات والصدقات. وقرئ : (يأتون ما أتوا) بالقصر ، أي : يفعلون من الطاعات ، وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ : خائفة ألّا تقبل منهم لتقصيرهم بأن لا يقع على الوجه اللائق ، فيؤخذوا به ويحرموا ثوابه لأنهم إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ فيعاتبهم ، أو من مرجعهم إليه ، وهو يعلم ما يحيق عليهم ، والموصولات الأربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر ، فى حيّز صلاتها من الأوصاف الأربعة ، لا عن طوائف ، كل واحدة منها متصفة بواحد من الأوصاف المذكورة ، كأنه قيل :

إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وبآيات ربهم يؤمنون ... إلخ.

وإنما كرر الموصول إيذانا باستقلال كل واحد من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها ، وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها ، وخبر «إنّ» : أُولئِكَ يُسارِعُونَ ، أشار إليهم بالجمع باعتبار اتصافهم بتلك النعوت ، مع أنّ الموصول واقع على الجمع.

ومعنى البعد للإشعار ببعد رتبتهم فى الفضل ، أي : أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجليلة يسرعون فِي الْخَيْراتِ أي : يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرون إليها. أو يسارعون فى نيل الخيرات العاجلة والآجلة الموعودة على الأعمال الصالحات كما فى قوله ، تعالى : فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ «١» ، وقوله : وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ «٢» ، فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادهم ، غير أنه غيّر الأسلوب ، حيث لم يقل : أولئك نسارع لهم فى الخيرات بل أسند المسارعة إليهم إيماءا إلى كمال استحقاقهم نيل الخيرات لمحاسن الأعمال. وإيثار كلمة «فى» ، عن كلمة «إلى» إيذانا بأنهم متقلّبون فى فنون الخيرات ، لا أنهم خارجون عنها متوجهون إليها ، كما فى قوله تعالى : سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ الآية «٣».

---

(١) من الآية ١٤٨ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل.

(٣) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٤

وَهُمْ لَها أي : لأجل نيل تلك الخيرات ، سابِقُونَ الناس إلى الطاعات ، أو : وهم إياها سابقون ، واللام زائدة لتقوية العامل ، كقوله : (هم لها عاملون) أي : ينالونها قبل الآخرة ، فتعجل لهم فى الدنيا ، وعن ابن عباس :

(هم لها سابقون) أي : سبقت لهم من اللّه السعادة ، فلذلك سارعوا فى الخيرات. هـ. فهو إشارة إلى تيسير كلّ لما خلق له ، وأنه يسّرهم القدر لما وصفهم به من الخير ، كما أن الكفار أمدوا بما يدعوا للغفلة والإعجاب ، مما هو استدراج ومكر من حيث لا يشعرون.

قال تعالى : وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أي : طاقتها ، فهو تحريض على تحصيل ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ببيان سهولته ، وأنه غير خارج عن حد الوسع والطاقة ، أي : عادتنا جارية بأن لا نكلف نفسا من النفوس إلا ما فى طاقتها ، فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعة مراتب

السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم.

وَلَدَيْنا كِتابٌ أي : صحائف الأعمال التي يرونها عند الحساب ، حسبما يعرب عنه قوله : يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، كقوله : هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «١» أي : عندنا كتاب أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هو عليه ، أو أعمال السابقين والمقتصدين جميعا ، وقوله : (بالحق) : يتعلق بينطق ، أي : يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ، أو يظهره للسامع ، فيظهر هناك جلائل أعمالهم ودقائقها ، ويرتب عليها أجزيتها ، إن خيرا فخير ، وإن شرّا فشر ، وقيل : المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، وهو مناسب لتفسير ابن عباس بسبق السعادة ، وقوله : وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ، بيان لفضله تعالى وعدله فى الجزاء ، إثر بيان لطفه فى التكليف وكتب الأعمال ، أي : لا يظلمون فى الجزاء بنقص الثواب أو بزيادة عذاب ، بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلّفوها ، ونطقت بها صحائف أعمالهم ، أو : لا يظلمون بتكليف ما لا وسع فيه ، أو : لا ينقصون مما سبق لهم فى اللوح المحفوظ شيئا ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ذكر فى هذه الآية أربعة أوصاف من أوصاف المقربين ، أولها : الخوف والإشفاق من الطرد والإبعاد ، والثاني : الإيمان الذي لا يبقى معه شك ولا وهم ، بما تضمنته الآيات التنزيلية من الوعد والإيعاد ، والثالث : التوحيد الذي لا يبقى معه شرك جلى ولا خفى ، والرابع : السخاء والكرم ، مع رؤية التقصير فيما يعطى.

فمن جمع هذه الخصال كان من السابقين فى الخيرات ، ويسارع لهم فى تعجيل الخيرات ، وكل ذلك بقدر ما يطيق العبد ، مع بذل المجهود فى فعل الخيرات.

قال فى الحاشية : والمسارعة إلى الخيرات إنما هو بقطع الشرور ، وأول الشرور : حب الدنيا لأنها مزرعة الشيطان ، فمن طلبها وعمرها فهو حراثه وعبده ، وشر من الشيطان من يعين الشيطان على عمارة داره ، وما ذلك إلا أنه لم يهتم بأمر معاده ومنقلبه ، لما جرى عليه فى السابقة من الحكم ، ولا كذلك من وصفه بالإشفاق من المؤمنين إجلالا لربهم ، ورجوعا لحكمه فيهم غيبا ، فلا يأمنون مكره بحال ، ولا يركنون إلى أعمال ، بل عمدتهم

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الجاثية.

ربهم ورحمته فى كل حال. والله أعلم. والحاصل : أنهم مع كونهم يخشون ربهم ويؤمنون بآياته ، ولا

يشركون به شيئا ، ويودون طاعته ، يخافون عدم قبوله لهم عند الرجوع إليه ، ولقائهم له لأنه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وأحكامه لا تعلل ، ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده. هـ.

قوله : «ومن استغرق فيه لم يقف مع وعده» أي : لأنه قد يرتب ذلك على شروط أخفاها عنه ، ليدوم خوفه واضطراره ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، وليس خوف العارف من السابقة ولا من الخاتمة لأنه شغله استغراقه فى الحق والغيبة فيه عن الشعور بالسابقة واللاحقة ، إنما خوفه من الإبعاد بعد التقريب ، أو الافتراق بعد الجمع ، وهذا أيضا قبل التمكين ، وإلا فالكريم إذا أعطى لا يرجع. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من اتصف بضد الأوصاف المتقدمة ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (٦٥) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (٦٧)

قلت : «بل» : إضراب عما قبله من أوصاف المؤمنين ، وانتقال إلى أضدادهم من الكافرين ، والضمير للكفرة ، و«حتى» : ابتدائية مختصة بالدخول على الجمل.

يقول الحق جل جلاله : بَلْ قُلُوبُهُمْ أي : الكفرة المستدرج بهم ، وهم لا يشعرون ، فِي غَمْرَةٍ فى غفلة غامرة لها ، مما عليه هؤلاء الموصوفون بما تقدم من الخشية وما بعده ، أو مما بيّن فى القرآن من أن لديه كتابا ينطق بالحق ، ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤوس الأشهاد ، فيفضحون بها ، كما ينبئ عنه ما بعده من قوله :

قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ ... وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ أي : ولهم أعمال خبيثة كثيرة ، متجاوزة لذلك الذي وصف به المؤمنون ، من الأعمال الصالحات ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم ، هُمْ لَها عامِلُونَ ، وعليها مقيمون ، مستمرون عليها ، حتى يأخذهم الله بالعذاب ، كما قال : حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ أي : منعميهم بِالْعَذابِ أي : عذاب الدنيا ، وهو القحط سبع سنين ، حين دعا عليهم النبي صلى اللّه عليه وسلم بقوله : «اللهمّ اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف» «١» ، فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام. أو : القتل يوم

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأذان ، باب يهوى بالتكبير حين يسجد) ، ومسلم فى (المساجد ، باب استحباب القنوت فى جميع الصلاة) ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه.

بدر. والحق : أنه العذاب الأخروى إذ هو الذي يفاجأون عنده بالجؤار ، فيجابون بالرد والإقناط عن النصر ، وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار ، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ «١» ، فإنّ المراد به ما جرى عليهم يوم بدر كما يأتى. وأما الجوع فإن أبا سفيان ، وإن تضرع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فلم يرد عليه بالإقناط ، بل دعا لهم فكشف عنهم. وقوله تعالى : إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ أي : يصرخون استغاثة ، والجؤار : الصراخ باستغاثة. فيقال لهم : لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ فإن الجؤار غير نافع لكم ، إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ أي : لا يلحقكم من جهتنا نصرة تمنعكم مما دهمكم.

قَدْ كانَتْ آياتِي القرآنية تُتْلى عَلَيْكُمْ فى الدنيا ، فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ أي : ترجعون القهقرى ، وتعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، فضلا عن تصديقها والعمل بها ، والنكوص : الرجوع القهقرى ، وهى أقبح المشية لأنه لا يرى ما وراءه ، مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ، الظاهر أن الضمير للقرآن لتقدم ذكر آياته ، والباء بمعنى «عن» أي : متكبرين عن سماعه والإذعان له ، أو سببية ، أي : فكنتم بسبب سماعه مستكبرين عن قبوله ، وعمن جاء به ، أو ضمّن مستكبرين معنى مكذبين ، وقيل : يعود إلى البيت الحرام ، أو الحرم ، وأضمر ولم يذكر لأنه يفهم من السياق. والمعنى : أنهم يستكبرون بسبب المسجد الحرام لأنهم أهله وأهل ولايته ، وكانوا يقولون : لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم ، وقيل : تتعلق الباء بقوله : سامِراً أي : تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه ، وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون ، وكان عامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه ، وفى النبي صلى اللّه عليه وسلم الذي جاء به ، و«سامرا» : مفرد بمعنى الجمع ، وقرئ سمّارا ، تَهْجُرُونَ «٢» ، إما من الهجر بالفتح ، بمعنى الهذيان ، أي : تهذون فى شأن القرآن كما يهذو الحالم أو السكران. أو من الترك ، أي : تتركونه وتفرون منه ، أو تهجرون النبي صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، أو من «الهجر» بالضم ، وهو الفحش ، ويؤيده قراءة من قرأ : «تهجرون» ، من أهجر فى منطقه : إذا أفحش. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من كان قلبه فى غمرة حظوظه وهواه ، عاكفا على جمع دنياه ، لا يطمع فى دخول حضرة مولاه ، ولو صلى وصام ألف سنة. قال القشيري : لا يصلح لهذا الشأن إلا من كان فارغا من الأعمال كلها ، لا شغل له فى شأن الدنيا والآخرة ، فأمّا من شغل بدنياه ، وعلى قلبه حديث من عقباه ، فليس له نصيب من حديث مولاه. هـ.

وفى الحديث : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصّحّة والفراغ» «٣».

---

(١) الآية ٧٦ من سورة المؤمنون.

(٢) قرأ نافع «تهجرون» بضم التاء وكسر الجيم ، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. انظر الإتحاف (٢/ ٢٨٦). [.....]

(٣) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب ما جاء فى الرقاق ، وأن لا عيش إلا عيش الآخرة) عن ابن عباس رضى اللّه عنه.

(٣/٥٨٦)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٧

ثم أمر بالتدبر والنظر ، لعله يقع التيقظ ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٦٨ الى ٧٤]

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (٧٤)

قلت : الهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على محذوف ، أي : أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار فلم يتدبروا القرآن ، و«أم» : منقطعة ، فيها معنى الإضراب والتوبيخ فى الجميع.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ يتدبروا القرآن ليعرفوا ، بما فيه من إعجاز النظم وصحة المدلول ، والإخبار عن المغيبات الماضية والمستقبلة ، أنه الحق ، فيؤمنوا به ، ويذعنوا لمن جاء به ، أَمْ جاءَهُمْ بل أجاءهم من الكتاب ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ، حتى استبعدوه واستبدعوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ أي : بل ألم يعرفوه – عليه الصلاة والسلام – بالأمانة والصدق ، وحسن الأخلاق ، وكمال العلم من غير تعلم ولا مدارسة ، وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالأنبياء قبله ، بل عرفوه بذلك فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ بغيا وحسدا.

أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ جنون ، وليس كذلك لأنهم يعلمون أنه أرجحهم عقلا ، وأثقبهم ذهنا ، وأتقنهم رأيا ، وأوفرهم رزانة ، ولقد شهد له بذلك كل من رآه من الأعداء والأحباب ، بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ أي : ليس الأمر كما زعموه فى حق الرسول – عليه الصلاة السلام – ، وما جاء به من القرآن ، بل جاءهم بالحق الأبلج والصراط المستقيم ، وبما خالف أهواءهم ، من التوحيد الخالص والدين القيم ، ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا ، فلذلك نسبوه إلى الجنون ، وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ من حيث هو حق ، لا لهذا بعينه ، فلذلك أظهر فى موضع الإضمار ، كارِهُونَ ، لما فى جبلّتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الأبلج ، وزاغوا عن الطريق الأبهج ، وفى التعبير بالأكثر دليل على أن أقلهم ما كان كارها للحق ، بل كان تاركا للإيمان به ، أنفة واستنكافا من توبيخ قومه ، أو لقلة فطنته وعدم تفكره ،

كأبى طالب وأضرابه. قال أبو السعود : وأنت خبير بأن التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق ، مع اتفاق الكل على الكفر به ، مما لا يساعده المقام أصلا. هـ. فحمل الأكثر على الكل.

(٥٨٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٨

وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ بأن كان فى الواقع آلهة شتى لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ كما تقدم فى قوله : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا «١» ، فالاتباع هنا مجاز ، أي : لو جاء الوحى على ما يشتهون لفسدت السموات ، فالحق هنا هو المذكور فى قوله : (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) ، والمعنى : لو كان ما كرهوه من الحق ، الذي من جملته ما جاء به صلى اللّه عليه وسلم ، موافقا لأهوائهم الباطلة لفسد نظام العالم ، وتخصيص العقلاء بالذكر حيث عبّر بمن لأنّ غيرهم تبع.

بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ : بشرفهم ، وهو القرآن الذي فيه فخرهم وشرفهم ، كما قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ «٢» لأن الرسول منهم ، والقرآن لغتهم ، أو بتذكيرهم ووعظهم ، أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ، ويقولون :

(لو أن عندنا ذكرا من الأولين) «٣» ، فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ أي : فهم ، بما فعلوا من النكوص ، عن فخرهم وشرفهم معرضون ، وهذا مما جبلت عليه النفوس الأمّارة الإعراض عما فيه خيرها ، والرغبة فيما فيه هلاكها ، إلا من عصم الله ، وفى إسناد الإتيان إلى نون العظمة ، بعد إسناده إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، من التنويه بشأن النبي صلى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى. انظر أبا السعود.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً ، هذا انتقال من توبيخهم بما ذكر من قولهم : (أم يقولون به جنّة) ، إلى التوبيخ بوجه آخر ، كأنه قال : أم يزعمون أنك تسألهم عن أداء الرسالة خَرْجاً أي : جعلا ، فيتهمونك ، أو يثقل عليهم فلذلك لا يؤمنون ، فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ أي : رزقه فى الدنيا ، وثوابه فى الآخرة ، خير لك من ذلك لدوامه وكثرته ، أي :

لا تسألهم ذلك فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خير لك من ذلك ، وفى التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – ، من تعليل الحكم وتشريفه صلى اللّه عليه وسلم ما لا يخفى.

والخرج والخراج واحد ، وهو : الأجر المأخوذ على العمل ، ويطلق على الغلة والضريبة ، كخراج العبد والأرض ، وقال النضر بن شميل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخراج والخرج ، فقال : الخراج مالزمك ، والخرج ما تبرّعت به ، وقيل : الخرج أخص من الخراج لأنّ الخراج يطلق على كل ما يستفيده المرء من غلة ، أو أجرة ، أو زكاة ، والخرج خاص بالأجرة ، وفى الخراج إشعار بالكثرة ،

فلذلك عبّر به فى جانبه – تعالى – والمعنى : أم تسألهم ، على هدايتك لهم ، قليلا من عطاء الخلق ، فالكثير من عطاء الخالق خير ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ : أفضل المعطين.

وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ تشهد العقول السليمة باستقامته ، ليس فيه شائبة اعوجاج ، توجب اتهامهم لك بوجه من الوجوه ، ولقد ألزمهم الله – تعالى – الحجة ، وأزاح عللهم فى هذه الآيات ، حيث حصر أقسام ما يؤدى إلى الإنكار والاتهام من قوله : أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ... إلى هنا ، وبيّن انتفاءها ، ولم يبق إلا كراهة الحق

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

(٣) كما حكى القرآن عنهم فى الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٨٩

وعدم الفطنة أو العناد والمكابرة ، وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ عن طريق الحق لَناكِبُونَ أي : لعادلون عن هذا الصراط المذكور ، وهو الصراط المستقيم ، وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة ، تشنيعا لهم بما هم عليه من الانهماك فى الدنيا ، وزعمهم ألّا حياة إلّا حياة الدنيا ، وإشعارا بعلّيّة الحكم فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أمور الدعاوى إلى طلب الحق وسلوك سبيله. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل من أنكر على أهل الخصوصية ، ولم يعرف خصوصيتهم فسببه ثلاثة أمور : إما أنه لم يصحبهم ولم يتدبر ما يقولون ، ولا ما يأمرون به وينهون عنه ، وإنما يرميهم رجما بالغيب ، وإما أنه حسدهم وخاف على جاهه أن ينتقل لغيره ، وإما أنهم أتوا بخرق عوائد النفوس التي لم تكن لأبائهم الأولين ، فقالوا : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ، وإنما جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ، وكيف تخرق للعبد العوائد ، وهو لم يخرق من نفسه العوائد؟. (و لو اتبع الحق أهواءهم) ، بأن كانت التربية على طريق العوائد ، والاستمرار معها ، لفسد النظام ، ولبقى الكون كله ظلمة لجميع الأنام إذ لا يمكن أن يصير الكون نورا ، بظهور الحق فيه ، إلا بخرق عوائد النفوس ، وإخراجها عن هواها ، فحينئذ تخرق له ظلمة الكون ، فيفضى إلى شهود المكوّن ، (بل أتيناهم بذكرهم) أي :

بشرفهم ، بمعرفة الحق على نعت العيان ، (و هم عن ذكرهم معرضون) حيث انهمكوا فى عوائدهم ،

ولم يقبلوا من يخرجهم عنها ويعرفهم بالله لله ، من غير خراج ولا طمع.
قال تعالى لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : (أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير). قال القشيري : أي : إنّك لا تطالبهم على تبليغ الرسالة بأجرة ، ولا بإعطاء عوض ، حتى تكون فى موضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة ، أم لعلك تريد أن يعقدوا لك الرئاسة ، ثم قال : والذي لك من الله – سبحانه – من جزيل الثواب ، وحسن المآب ، يغنيك عن التصدي لنيل ما يكون فى حصوله منهم مطمع. وهذه كانت سنّة الأنبياء والمرسلين – عليهم السلام – عملوا للّه فلم يطلبوا عليه أجرا من غير الله ، والعلماء ورثة الأنبياء فى التنزه من التدنّس بالأطماع ، والأكل بالدين ، فإنه ربا مضرّ بالإيمان ، إن كان العمل لله فالأجر منتظر من اللّه ، وهو موعود من قبل الله. هـ.
وراجع ما تقدم فى سورة هود فإنه أو فى من هذا «١».
وقوله تعالى : (و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) ، هو طريق الوصول إلى شهود الذات الأقدس ، من طريق التربية ، التي هى مخالفة الهوى والخروج عن العوائد. وقال القشيري : الصراط المستقيم : هو شهود الحقّ بنعت الانفراد فى جميع الأشياء ، والإيجاف «٢» ، والاستسلام لقضايا الإلزام ، بمواطأة القلب من غير استكراه الحكم. هـ.
وقال الورتجبي عن بعضهم : لو لا أن الله – تعالى – أمر بمخالفة النفوس ومباينتها ، لاتّبع الخلق أهواءهم فى شهوات

---

(١) راجع إشارة الآية ٢٩ من سورة هود.
(٢) فى القشيري : وفى الإيجاد.

النفوس ، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية ، وتركوا أوامر الله ، وأعرضوا عن طاعته ، ولزموا المخالفة ، ألا ترى الله يقول : وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ.
ثم بيّن سبحانه أن حبيبه – عليه الصلاة والسلام – يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله : (و إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم) أي : مما أوضحه أنوار جماله وشاهدته ، وهى طريق معرفته فى قلوب الصّدّيقين للأرواح القدسية. وتلك الطريقة منتهاها المحبة ، وبدايتها الأسوة والمتابعة لقوله : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ «١». هـ. قلت : المراد بالمحبة محبة الحق لعبده بدليل الآية التي ذكر. وقال ابن عطاء : إنك لتحملهم على مسالك الوصول ، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك

، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة ، وهم الذين استقاموا مع الله ولم يطلبوا معه سواه ، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقاما. هـ.

قوله تعالى : وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي : لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وهى حياة النفوس بالمعرفة العيانية ، بعد موتها بالجهل والوقوف مع الحس والعوائد ، ممن لا يصدق بهذه الحياة ، وأنكر وجود من يوصل إليها عن طريق الحق الموصلة إليه ، لناكبون ، فهم فى الحيرة والتلف تائهون ، عائذا بالله من ذلك.

ثم ذكر انهماكهم فى الغفلة لسبق القضاء عليهم ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٥ الى ٧٧]

وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَما يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ ، كقحط وجدب ، لَلَجُّوا : لتمادوا فِي طُغْيانِهِمْ : إفراطهم فى الكفر والعتو والاستكبار وعداوة الرسول – عليه الصلاة والسلام – والمؤمنين ، يَعْمَهُونَ : يترددون عامهين عن الهدى. قال ابن عباس : لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ، ورجع إلى اليمامة ، منع الميرة عن أهل مكّة ، وأخذهم اللّه تعالى بالسنين حتّى أكلوا العلهز «٢» ، جاء أبو سفيان إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال له : أنشدك الله والرّحم ، ألست تزعم أنّك بعثت رحمة للعالمين؟ قال : بلى ، قال : قتلت الآباء بالسّيف ، والأبناء بالجوع ، فنزلت «٣». قال ابن جزى : وفيه نظر فإن الآية مكية باتفاق ، وإنما دعا النبي صلى اللّه عليه وسلم على قريش بعد الهجرة ، حسبما ورد فى الحديث. هـ.

---

(١) فالآية ٣١ من سورة آل عمران.

(٢) قال فى النهاية : هى شىء يتخذونه فى سنى المجاعة ، يخلطون الدم بأوبار الإبل ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. انظر النهاية (٣/ ٢٩٣). والقاموس المحيط (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب سرية نجد) ، والنسائي فى الكبرى (التفسير ، سورة المؤمنون) ، وابن جرير فى التفسير (١٨/ ٤٥).

قلت : والتحقيق : أن القحط نزل بهم مرتين ، أحدهما قبل الهجرة ، حين دعا عليهم – صلى اللّه عليه وسلم – بقوله : «اللهم أعنّى عليهم بسبع كسبع يوسف» ، فأخذتهم سنة حصدت كل شيء ، حتى أكلوا الميتة والعظام ، وكانوا يرون كهيئة الدخان من الجوع ، فجاء أبو سفيان فقال : يا محمد ، جئت تأمر بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع اللّه يغيثنا ، فدعا لهم .. الحديث. وفيه نزل تعالى : فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ «١» ، الآية ، وقوله هنا : وَلَوْ رَحِمْناهُمْ وَكَشَفْنا ... الآية. ومرة أخرى بالمدينة حين استغاثوا به عليه السّلام وهو يخطب ، ولعله هو الذي ذكره ابن عباس فى إسلام ثمامة ، ولعل قوله : «فنزلت الآية» سهو لأنها نزلت قبل الهجرة ، إلّا أن تكون الآية مدنية فى السورة المكية ، وقول ابن جزى : «دعا عليهم بعد الهجرة» ، التحقيق : أنه دعا عليهم قبل وبعد. واللّه أعلم.

والمعنى : لو رحمناهم ، وكشفنا ما بهم من القحط والهزال برحمتنا إياهم ، ووجدوا الخصب ، لا رتدوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والاستكبار ، ولذهب عنهم هذا الخلق والتعلق بك ، وهذا كقوله تعالى فى الدخان : إِنَّكُمْ عائِدُونَ «٢» ، قيل : المراد بالضر : العذاب الأخروى ، فيكون كقوله : وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ «٣».

وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ ، وهو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر ، وهو قوله – تعالى – فى الدخان : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى «٤». فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ بذلك ، أي : لم يخضعوا ولم يتذللوا.

و«استكانوا» :

افتعل من السكون ، والألف زائدة ، أو استفعل من الكون ، أي : انتقل من كون إلى كون ، كاستحال ، إذا انتقل من حال إلى حال لأن الخاضع ينتقل من كون إلى كون. وَما يَتَضَرَّعُونَ أي : وليس من حالهم التضرع إليه تعالى ، وعبّر بالمضارع ، ليدل على الاستمرار ، أي : ليس شأنهم التضرع فى هذه الحالة وغيرها ، أو : فما استكانوا فيما مضى ، وما يتضرعون فيما ينزل بهم فى المستقبل ، والمعنى : تاللّه لقد أخذناهم بالعذاب ، وقتلناهم بالسيوف ، وما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم ، فما وجدت ، بعد ذلك ، منهم استكانة ولا تضرع.

حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ ، وهو عذاب الآخرة ، إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ : متحيرون آيسون من كل خير ، وهذا هو الصواب من حمل العذاب على عذاب الآخرة ، بدليل وصفه بالشدة والإياس. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٠ من سورة الدخان.

(٢) من الآية ١٥ من سورة الدخان.

(٣) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

(٤) من الآية ١٦ من سورة الدخان.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٢

الإشارة : أهل الغفلة والبعد لا يرجعون إلى الله فى السراء ولا فى الضراء لا نهماكهم فى الغفلة والقساوة ، وأهل اليقظة يرجعون إلى الله فى السراء والضراء ، فى السراء بالحمد والشكر ، وفى الضراء بالصبر والرضا والتسليم ، مع التضرع والابتهال عبودية ، والمقتصدون يرجعون إليه – تعالى – فى الضراء ، ويغفلون عن الشكر فى السراء ، والأول ظالم لنفسه ، والثاني سابق ، والثالث مقتصد. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته – تعالى – وفى ضمنه استدعاؤهم إلى الرجوع إليه تعالى بالشكر ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٧٨ الى ٨٣]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ : خلق لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ لتشاهدوا بها عجائب مصنوعاته ودلائل قدرته ، أو لتتوصلوا إلى شهود آياته الكونية والتنزيلية ، وَالْأَفْئِدَةَ لتتفكروا بها فيما تشاهدونه منها وتعتبروا ، وخصها بالذكر لأنه يتعلق بها من المنافع مالا يتعلق بغيرها ، وقدّم السمع لأنّ أكثر العلوم إنما تنال به ، قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ أي : شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لأن العمدة فى الشكر : صرف تلك القوى – التي هى فى أنفسها نعم باهرة – إلى ما خلقت له ، وأنتم تنتحلون بها ضلالا عظيما. وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أي : خلقكم وبثكم فيها بالتناسل ، وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أي : تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ، فيجازيكم على إحسانكم وإساءتكم.

وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، من غير أن يشاركه فى ذلك أحد ولا شيء من الأشياء ، وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : المؤثر فى اختلافهما ، أَفَلا تَعْقِلُونَ فتعرفون بالنظر والتأمل أن الكل منا ، وأن قدرتنا تعم جميع الممكنات ، التي من جملتها البعث والحساب ، وقرئ «يعقلون» بالغيب ، على الالتفات لحكاية سوء حال المخاطبين ، بَلْ قالُوا عطف على مضمر يقتضيه المقام ، أي : فلم يعقلوا بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ أي : آباؤهم ومن دان دينهم ، قالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ، هو تفسير لما أبهم قبله ، أي :

قالوا : أنبعث بعد هذه الحالة ، لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا البعث مِنْ قَبْلُ : متعلق بالفعل من حيث

إسناده إلى آبائهم لا إليهم ، أي : وعد هذا آباؤنا من قبل ، أو حال من آبائنا ، أي : كائنين من قبل ، إنْ هذا أي :

(٣/٥٩٢)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٣

ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : أكاذيبهم التي سطروها ، وهى جمع أسطورة ، كأحدوثة وأعجوبة ، أو جمع أسطار ، جمع سطر ، فيكون جمع الجمع. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ذكر فى الآية خمس نعم ، يجب على العبد شكر كل واحدة منها ، فشكر نعمة السمع : أن تسمع به ما ينفع ، وتكفه عما لا ينفع ، وإذا سمعت خيرا أفشيته ، وإذا سمعت شرا دفنته. وشكر نعمة البصر : أن تنظر به فى ملكوت السموات والأرض وما بينهما ، فتعرف عظمة الصانع ، أو تشاهده وتوحده فيها. وشكر نعمة القلوب : أن تعرف بها علام الغيوب ، وتفرده بالوجود فى كل مرغوب ومرهوب. وشكر نعمة الإيجاد : أن تكون له عبدا فى كل حال. وشكر نعمة الإعادة : أن تتأهب للقائه فى كل لحظة وساعة. (و هو الذي يحيى ويميت) يحيى قلوبا بالمعرفة بعد الجهل ، ويميت قلوبا بالغفلة والجهل بعد العلم واليقظة ، وذلك بالسلب بعد العطاء ، والعياذ بالله. وله اختلاف ليل القبض ونهار البسط على العبد ، ثم يخرجه عنهما ليكون مع الله لا مع شىء سواه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل ما أنكروه من البعث ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٨٤ الى ٩٠]

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (٩٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد لمن أنكر البعث : لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها من المخلوقات عاقلا أو غيره ، أي : من أوجدها ، ودبر أمرها ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا؟ والجواب محذوف ، أي : فأخبرونى فإن ذلك كاف فى الجواب ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ لأنهم مقرّون بأنه الخالق ، فإن أقروا بذلك فقل أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعلمون أنّ من قدر على خلق السماوات والأرض وما فيهن ، كيف لا يقدر على إعادة الخلق بعد عدومها؟ فإن الإعادة أهون من البدء. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، أعيد الرب تنويها لشأن العرش ، ورفعا لمحله لئلا يكون تبعا للسماوات والأرض ، وجودا وذكرا ، ولقد روعى فى الأمر بالسؤال الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، فإن سألتهم (سيقولون لله) أي : هى لله ، كقولك : من

رب هذه الدار؟ فتقول : هى لفلان ، وقال الشاعر :
إذا قيل : من ربّ المزالف والقرى وربّ الجياد الجرد؟ قيل : لخالد

(٥٩٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٤
وقال الأخفش : اللام زائدة ، أي : هو الله ، وبعدمه قرأ أهل البصرة ، فيه وفيما بعده ، واتفقوا على إثباته فى الأول ، ليطابق السؤال ، فإن أجابوا بذلك فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ أي : أتعلمون ذلك ، ولا تتقون عذابه فى كفركم وجحودكم قدرته على البعث؟
قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ أي : التصرف التام فى كل شىء بقهره وسلطانه ، فالملكوت ، فى أصل اللغة ، مبالغة فى الملك ، زيدت الواو والتاء للمبالغة ، كالجبروت مبالغة فى الجبر ، وفى عرف الصوفية ، الملكوت :
ما بطن من أسرار المعاني القائمة بالأوانى ، أو نقول : ما غاب فى عالم الشهادة من أسرار الذات ، فحس الأوانى ملك ، ومعانيها ملكوت ، والجبروت : ما خرج عن دائرة الأكوان من بحر الأسرار ، الفائض بأنوار الملكوت ، وهذه أسماء لمسمى واحد ، وهو بحر الوحدة.
ثم قال تعالى : وَهُوَ يُجِيرُ أي : يغيث ، يقال : أجرت فلانا على فلان : إذا أغثته منه ، يعنى : وهو يغيث من شاء ممن شاء ، وَلا يُجارُ عَلَيْهِ : ولا يغيث أحد عليه ، أي : لا يمنع أحد أحدا بالنصر عليه.
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا ما ، أو تعلمون ذلك ، فأجيبونى؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أي : لله ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ أي : فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد ، وعن توحيد الله وطاعته؟ فإنّ من لا يكون مسحورا مختل العقل لا يكون كذلك ، قال تعالى : بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ الذي لا محيد عنه من التوحيد والوعد بالبعث ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فيما قالوا من الشرك وإنكار البعث. وبالله التوفيق.
الإشارة : قل : لمن أرض النفوس ، وما فيها من الأهوية والحظوظ والعلائق؟ سيقولون : هى لله يتصرف فيها كيف يشاء ، فتارة يملّكها لعبده ، فتكون تحت قهره وسلطانه ، فيكون حرا من رق الأشياء ، وتارة يملّكه لها بعدله ، فيكون تحت قهرها وسلطانها ، تتصرف فيه كيف تشاء ، ويكون مملوكا لها ، ينخرط فى سلك من اتخذ إلهه هواه ، قل : من رب سماوات الأرواح وعرش الأسرار والأنوار ، وهو القلب الذي هو بيت الرب ، قل : سيقولون : لله ، يظهرها متى شاء ، ويوصلها إلى أصلها كيف شاء ، قل : من بيده ملكوت كل شىء ، فيتصرف فى النفوس والأرواح بالتقريب والتبعيد ، وهو يجير من الحظوظ والأهوية من يشاء ، ويسلطها على من يشاء ، ولا يجار عليه ، لا يمتنع من قهره أحد ، فأنّى تسحرون.

قال القشيري : أولا قال : (أفلا تذكرون) ، ثم قال بعده : (أفلا تتقون) قدّم التذكر على التقوى لأن بتذكيرهم يصلون إلى المعرفة «١» ، وبعد أن عرفوه ، علموا أنه يجب عليهم اتقاء مخالفته ، ثم بعد ذلك قال : (فأنى تسحرون)؟

أي : بعد وضوح الحجة ، أىّ شكّ بقي حتى تنسبوه إلى السّحر؟. هـ.

---

(١) فى القشيري : المغفرة. [.....]

ثم أبطل دعوى الولد والشريك عليه تعالى ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٩١ الى ٩٢]

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

يقول الحق جل جلاله : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، خلاف ما يقوله النصارى ، والعرب التي قالت : الملائكة بنات الله ، تعالى عن قولهم علوا كبيرا ، وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ يشاركه فى ألوهيته ، كما يقول عبدة الأوثان وغيرهم ، إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ أي : لو كان معه آلهة ، كما يزعمون ، لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به ليتميز ملكه من ملك الآخر ، ووقع بينهم التغالب والتحارب ، كما هو الجاري بين الملوك ، وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ : ولغلب بعضهم على بعض ، وارتفع عليه ، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون ، وحين لم تروا أثرا لتمايز الممالك والتغالب فاعلموا أنما هو إله واحد.

قال ابن جزىّ : وليس هذا البرهان بدليل التمانع ، كما فهم ابن عطية وغيره ، بل بدليل آخر. وقال فى قوله : (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) : قال كثير من الناس : إنه دليل التمانع الذي أورده المتكلمون ، والظاهر من اللفظ أنه استدلال آخر أصح منه. هـ قال النسفي : ولا يقال : «إذا» لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب ، وهو هنا وقع لذهب جزاء وجوابا ، ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل لأن الشرط هنا محذوف ، تقديره : لو كان معه آلهة كما يزعمون لذهب .. إلخ ، دل عليه : (و ما كان معه من إله) ، وهو جواب لمن حاجّه من المشركين. هـ.

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ من الأنداد والأولاد ، عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أي : السر والعلانية ، أو ما ظهر من حس الأكوان ، وما غاب فيها وعنها ، فمن جرّ «عالم» فبدل من الجلالة ، أو صفة له ، ومن رفعه

فخبر عن مضمر ، أي : هو عالم. فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ من الأصنام وغيرها ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإنّ تفرده تعالى بالألوهية والعلم المحيط ، موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ثلاثة إذا تعددت فسد النظام : الإله ، والسلطان ، والطبيب فلو تعدد الإله لفسد نظام العالم ، ولو تعدد الملك لفسدت الرعية بالهرج والفتن ، ولو تعدد الطبيب لفسد العلاج. والطبيب على قسمين : طبيب الأبدان ، وطبيب القلوب ، وهو شيخ التربية ، فإذا تعدد على مريد واحد فسدت تربيته لانقسام محبته واختلاف علاجه ، فالمريد ، إذا علق قلبه بغير شيخه ، لا ينهض نهوض من جمع همته على شيخه ، بل لا يجيء منه شيء. والله تعالى أعلم.

(٥٩٥/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٦

قال القشيري : كل أمر نيط بين اثنين انتفى عنه النظام وصحة التربية. هـ. وقال الورتجبي : نزه الحق – سبحانه – ذاته عن مخايل الزنادقة ، وكان منزها عن أباطيل إشارة المشبهة ، وذاته ممتنعة بكمال أحديته ، عن زعم الثنوية ، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث إذا القديم المنزه ، إذا تجلى بنعت القدم للحدثان ، صار معدوما كالعدم ، تعالى الله عن كل وهم وإشارة. هـ.

ولما توعدهم بالعذاب على كفرهم ، أمر نبيه – عليه الصلاة والسلام – بالدعاء بالنجاة منه إذا نزل بهم ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ٩٣ الى ١٠٠]

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (٩٧)

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي أي : إذا كان لا بد من أن ترينى ما يوعدون من العذاب المستأصل فى الدنيا أو عذاب الآخرة ، رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أي : قريبا لهم فيما هم فيه من العذاب ، وفيه إيذان بفظاعة ما وعدوه من العذاب ، وأنه يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد أن يحيق به ، وردّ لإنكارهم إياه واستعجالهم على طريقة الاستهزاء ، وقيل : أمر به صلى اللّه عليه وسلم هضما لنفسه ، وقيل : إن شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً ... «١» إلخ ، وروى

عن الحسن (أنه – تعالى – أخبر نبيه صلى اللّه عليه وسلم بأن فى أمته نقمة ، ولم يطلعه على وقتها ، فأمر بهذا الدعاء) ويجوز أن يسأل النبىّ المعصوم ربه ما علم أنه يفعله ، وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهارا للعبودية وتواضعا لربه. والفاء : جواب «إما» الشرطية ، أي : إن نزلت بهم النقمة فاجعلنى خارجا عنهم ، وتكرير النداء ، وتصدير كل من الشرط والجزاء به – أي : بالدعاء – لإبراز كمال الضراعة والابتهال.

قال تعالى : وَإِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ من العذاب لَقادِرُونَ ، ولكنا نؤخره لعلمنا بأن بعضهم ، أو بعض أعقابهم ، سيؤمنون ، أو : لأنا لا نعذبهم وأنت فيهم ، وقيل : قد أراهم ذلك ، وهو ما أصابهم يوم بدر وفتح مكة ،

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٧

وهو بعيد لأن المبادر أن يكون ما استحقوه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستأصلا لا يظهر على يديه صلى اللّه عليه وسلم للحكمة الداعية إليه ، وكانوا يضحكون ، استهزاء بهذا الوعد ، وإنكارا له ، فقال لنبيه – عليه الصلاة والسلام – : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ أي : ادفع الخصلة السيئة بالخصلة التي هى أحسن ، وهو الصفح عنها والإحسان فى مقابلتها ، لكن بحيث لا يؤدى إلى وهن فى الدين وإهانة له. وقيل : السيئة : الشرك ، والتي هى أحسن : كلمة التوحيد ، وقيل : السيئة : المنكر ، والتي هى أحسن : النهى عنه ، وقيل : هى منسوخة بآية السيف ، وقيل : محكمة إذ المداراة مأمور بها. قال ابن عطية : أمر بمكارم الأخلاق ، وما كان منها بهذا المعنى ، فهو محكم باق فى الأمة أبدا ، وما كان بمعنى المواعدة فمنسوخ بآية القتال. هـ.

وهذا التركيب أبلغ من «ادفع بالحسنة السيئة» لما فيه من التنصيص على التفضيل ، وتقديم الجار والمجرور على المفعول للاهتمام. نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ من الشرك والولد ، أو بما يصفك به ، مما أنت على خلافه ، من السحر وغيره ، فسنجازيهم عليه ، وفيه وعيد لهم ، وتسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وإرشاد له إلى تفويض أمره إليه تعالى والاكتفاء بعلمه.

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ أي : وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت من المحاسن ، التي من جملتها دفع السيئة بالحسنة ، وأصل الهمز : النخس ، ومنه : مهماز الرائض ، شبه حثهم للناس على المعاصي بهمز الرائض الدوابّ على الإسراع والوثب. وجمع همزات لتنوّع الوساوس وتعدد

المضاف إليه ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ، أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه ، والتعوذ من أن يحضروه أصلا فى حال من الأحوال مبالغة فى التحذير من ملابستهم ، أو أن يحضروه عند التلاوة أو الصلاة ، أو عند النزع تشريعا. وإعادة الفعل ، مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به.

ولا تزال الكفرة تصف الحق بما لا يليق به من الشرك ، حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ أي : لا يزالون مشركين حتى يموتوا ، فحتى ، هنا ، ابتدائية ، دخلت على جملة الشرط ، وهى متعلقة بيصفون ، وما بينهما اعتراض مؤكد للإغضاء ، لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى ، بل بمعنى أنه معمول لمحذوف دل عليه ذلك ، أي :

تنزيها له تعالى عما يصفون ، ويستمرون على الوصف المذكور ، حتى إذا جاء أحدا منهم الموت الذي لا مرد له ، وظهرت له أحوال الآخرة ، قالَ تحسرا على ما فرّط فيه من الإيمان والطاعة : رَبِّ ارْجِعُونِ أي :

ردنى إلى الدنيا ، والواو لتعظيم المخاطب ، كخطاب الملوك ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ أي : فى الإيمان الذي تركته ، أو فى الموضع الذي تركت فيه الإيمان والطاعة وهو الدنيا لأنه ترك الدنيا وصار إلى العقبى.

(٥٩٧/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٥٩٨

قال قتاده : ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا عشيرة ، ولكن ليتدارك ما فرط. وعنه ، صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا له : نرجعك إلى الدّنيا؟ فيقول : إلى دار الهموم والأحزان؟ بل قدوما إلى اللّه تبارك ، وتعالى ، وأمّا الكافر فيقول : ارجعون لعلى أعمل صالحا ..» «١». وقال القرطبي : ليس سؤال الرجعة مختصا بالكافر ، فقد يسألها المؤمن ، كما فى آخر سورة المنافقين «٢» ، ودلت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف : اهو من أولياء الله أم من أعداء الله ، ولو لا ذلك لما سأل الرجعة ، فيعلم ذلك قبل نزول الموت وذواقه. هـ. قال المحشى الفاسى : ولعل محمل الحديث فى المؤمن الكامل غير المقصّر ، والآية فى غيره. والله أعلم. هـ.

كَلَّا أي : لا رجوع له أصلا ، وهو ردع عن طلب الرجعة ، واستبعاد لها ، إِنَّها أي : قوله : (رَبِّ ارْجِعُونِ) ، كَلِمَةٌ ، والمراد : طائفة من الكلام ، وهو (رَبِّ ارْجِعُونِ ...) إلخ ، هُوَ قائِلُها ، ولا فائدة له فيها ، ولا حقيقة لها لعدم حصول مضمونها ، أو هو قائلها لا محالة لتسليط الحسرة والندم عليه ، فلا يقدر على السكوت عليها ، (وَ مِنْ وَرائِهِمْ) أي : أمامهم ، والضمير للجماعة لأن أحدهم بمعنى كلهم ،

بَرْزَخٌ : حائل بينهم وبين الرجعة ، إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ : يوم القيامة ، وهو إقناط كلى عن الرجوع إلى الدنيا ، لما علم أنه لا رجعة يوم القيامة إلى الدنيا ، وإنما الرجوع فيه إلى الحياة الأخروية. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما قاله صلى اللّه عليه وسلم فى تضرعه إلى الله تعالى – كما أمره الحق تعالى – يقوله كل عارف ومتيقظ ، فيقول :

ربّ إما ترينى ما يوعده أهل الغفلة والبطالة من التحسر والندم ، عند انقراض الدنيا وإقبال الآخرة ، فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ، أي : لا تسلك بي مسلكهم حتى أتحسر معهم ، فإذا أوذى فى الله – كما هو شأن أهل الخصوصية – يقال له : ادفع بالتي هى أحسن السيئة ، وقابل الإساءة بالإحسان ، وإياك والانتصار لنفسك ، وتعوذ بالله من همزات الشياطين ، إن قامت عليك نفسك وأرادت الانتصار ، كما هو شأن أهل الغفلة ، فى كونهم منهمكين فى الغفلة ، مملوكين فى أيدى أنفسهم ، مستمرين على ذلك ، حتى إذا حضر أجلهم طلبوا من الله الرجعة ، هيهات هيهات ، (كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ، وفى الأثر : «ما منكم من أحد إلا وسيندم عند الموت ، إن كان محسنا أن لو زاد ، وإن كان مسيئا أن لو تاب». أو كما قال.

ولأجل هذا المعنى شد أهل اليقظة الحزم ، وشمروا عن ذراعهم فى طاعة مولاهم ، وعمروا أوقاتهم بما يقربهم إلى محبوبهم ، وتنافسوا فى ذلك أىّ تنافس ، وفى ذلك يقول القائل :

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨/ ٥٢) ، من حديث ابن جريج ، مرسلا.

(٢) فى قوله تعالى «وأنفقوا مما رزقناكم من أن قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لو لا أخرتنى إلى أجل قريب ...) الآية ١٠.

السّباق ، السّباق ، قولا وفعلا حذّر النّفس حسرة المسبوق

وكان بعض العباد حفر قبرا فى بيته ، فإذا صلى العشاء دخل فيه ، وقرأ : (قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً ....) الآية ، فيقول لنفسه : ستطلبين الرجعة ولا تمكنين منها ، وأنت اليوم متمكنة من الرجوع ، قومى إلى خدمة مولاك ، قبل أن يحال بينك وبينها ، فيبيت قائما يصلى. وهكذا شأن أهل اليقظة يقدمون الندم والجد قبل فوات إبّانه. أعاننا الله على اغتنام طاعته ، وما يقربنا إلى حضرته. آمين.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم الموعود ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٠١ الى ١٠٥]

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيها كالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٠٥)

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ لقيام الساعة ، وهى نفخة البعث والنشور ، وقيل : فإذا نفخ فى الأجساد أرواحها ، على أن الصور جمع صورة ، ويؤيده القراءة بفتح الواو مع الضم ، وبه مع كسر الصاد. فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ تنفعهم ، لزوال التراحم والتعاطف بينهم من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة ، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. قال ابن عباس : (لا يفتخرون بالأنساب والأحساب فى الآخرة ، كما كانوا يفتخرون فى الدنيا» وَلا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا لا شتغال كل منهم بنفسه ، ولا يناقضه قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ «١» لأن هذا – أي : سكوتهم – عند ابتداء النفخة الثانية ، وذلك بعدها لأن يوم القيامة ألوان ، تارة يبهتون ولا يتساءلون ، وتارة يفيقون ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون.

وقال ابن عباس : إنما عنى النفخة الأولى ، حين يصعق الناس ، (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ «٢» ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ. نقله الثعلبي.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الصافات.

(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٠

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أي : موزونات حسناته من العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بكل مرغوب ، الناجون من كل مرهوب ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ أي : ومن لم يكن له من العقائد والأعمال ما يوزن – وهم الكفار – لقوله : فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً «١» ، وتقدم ما فيه. فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ : ضيعوها بتضييع زمان استكمالها ، وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها ، فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ ، وهو خبر ثان لأولئك ، أو بدل من الصلة ، وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : (يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة ، فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادى مناد : هذا فلان بن فلان ، من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يدور لها الحق على ابنها ، أو على زوجها ، أو على أبيها ، أو على أخيها ، ثم قرأ ابن مسعود :

فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ ، ثم يقول الرب تعالى : آت هؤلاء حقوقهم ، فيقول : ربّ ،

فنيت الدنيا فمن أين آتيهم؟ فيقول للملائكة : خذوا من حسناته فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته .....) إلخ الحديث «٢» ، انظر النسفي.

قال تعالى : تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ تحرقها ، واللفح كالنفخ ، إلّا أنه أشد تأثيرا منه ، وتخصيص الوجوه بذلك لأنها أشرف الأعضاء. وَهُمْ فِيها كالِحُونَ : عابسون من شدة الإحراق ، والكلوح : تقلص الشفتين من الإنسان ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم فى كالحون : «تشويه النّار فتقلّص شفته العليا ، حتّى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى السّفلى حتّى تبلغ سرّته» «٣». فيقال لهم – تعنيفا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به : أَلَمْ تَكُنْ آياتِي أي : القرآن تُتْلى عَلَيْكُمْ فى الدنيا فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ حينئذ ، فذوقوا وبال ما كنتم به تكذبون. نسأل الله التوفيق والهداية.

الإشارة : قال الترمذي الحكيم : الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة فى عبودية ربه ، فإن تلك نسبة لا تنقطع أبدا ، وتلك النسبة المفتخر بها ، لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد. هـ. وقال الورتجبي :

عند المعاينة والمشاهدة بوجوده ونشر جوده ، نسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية ، واصطفائيته القدسية ، لا يفتخرون بشيء دونه ، من العرش إلى الثرى ، ولا يتساءلون شغلا بما هم فيه. هـ.

ومعنى كلام الشيخين : أن العبد ، إذا صحت نسبته إلى مولاه ، وانقطع بكليته إليه ، ورفض كل ما سواه ، اتصلت نسبته ، ودامت محبته وأنسه ، ومن تعلق بغيره ، وتودد إلى ما سواه ، انقطع ذلك وانفصل ، ومن النسب التي تتصل وتدوم ، النسبة إلى أولياء الله ، والتحبب إليهم وخدمتهم ، وهى فى الحقيقة من نسبة الله تعالى لأنها سبب معرفته

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة الكهف.

(٢) أخرج رواية ابن عباس ، وكذلك ، ورواية ابن مسعود ، الطبري فى تفسيره.

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٨٨) لترمذى فى (التفسير – تفسير سورة المؤمنون) ، وقال : حسن غريب صحيح ، والحاكم (٢/ ٣٩٥) وصححه ، ووافقه الذهبي) ، عن أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه.

والتحقق بعبوديته ، فهى عينها ، فمن انتسب إليهم فقد انتسب إلى الله ، ومن أحبهم فإنما أحب الله ، فمحبتهم ، والاجتماع معهم يؤدى إلى محبة الله ورضوانه ، وهم الذين يكونون عن يمين الرحمن ،

يغشى نورهم الناس يوم القيامة ، يغبطهم النبيون والشهداء لمنزلتهم عند الله. قال عليه الصلاة والسلام : لما سئل عنهم : «هم رجال من قبائل شتى ، يجتمعون على ذكر الله ومحبته» أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم كما فى الحديث «١». والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب أهل النار ، فقال :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١٠٦ الى ١١٤]

قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (١٠٦) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (١٠٧) قالَ اخْسَؤُا فِيها وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (١١١) قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (١١٣) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)

يقول الحق جل جلاله : قالُوا أي : أهل النار : رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا أي : ملكتنا شِقْوَتُنا : شقاوتنا التي اقترفناها بسوء اختيارنا ، كما ينبئ عنه إضافتها إلى أنفسهم ، أي : شقينا بأعمالنا السيئة التي عملناها ، ولا يصح حمله على الشقاوة الأزلية لأنهم غير مكلفين بصرفها عنهم إذ ليس فى اختيارهم. وَكُنَّا قَوْماً ضالِّينَ عن الحق ، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب ، وهذا ، كما ترى ، اعتراف منهم بأن ما أصابهم إنما أصابهم بسوء صنعهم ، وأمّا ما قيل : من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية ، فلا يصح لأن الله تعالى ما كتب عليهم الشقاء حتى علم أنهم يفعلونه باختيارهم ، بحسب الظاهر فى عالم الحكمة ، فيكون اعترافهم إنما هو بما كان فى اختيارهم ، لا بما كتب عليهم.

ثم قالوا : رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ أي : أخرجنا من النار ، وردنا إلى الدنيا ، فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي ، فإنا متجاوزون الحد فى الظلم ، ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورن على

---

(١) عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى اللّه عليه وسلم : «ليبعثن الله أقواما يوم القيامة ، فى وجوههم النور ، على منابر اللؤلؤ ، يغبطهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء» قال : فجثا أعرابى على ركبتيه فقال : يا رسول الله ، حلّهم لنا نعرفهم؟ قال : «هم المتحابون فى الله من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله تعالى ، يذكرونه» قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٠/ ٧٧) رواه الطبراني وإسناده حسن.

ما صدر عنهم لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ، ولما وعدوا بالطاعة والإيمان. قال القرطبي : طلبوا الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت.

ثم يجيبهم الحق تعالى ، بعد ألف سنة ، بقوله : قالَ اخْسَؤُا فِيها أي : اسكتوا فى النار سكوت ذل وهوان ، وانزجروا انزجار الكلاب ، يقال : خسأت الكلب ، إذا زجرته ، فخسأ ، أي : انزجر. وَلا تُكَلِّمُونِ باستدعاء الإخراج من النار والرجوع إلى الدنيا ، أو فى رفع العذاب عنكم فإنه لا يرفع ولا يخفف ، روى أنه آخر كلام يتكلمون به ، ثم لا كلام بعد ذلك إلّا الشهيق والزفير ، ويصير لهم عواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون «١».

قيل : ويرده الخطابات الآتية ، وقد يجاب : بأنها قبل هذه الكلمة.

ثم علل استحقاقهم لذلك العذاب بقوله : إِنَّهُ أي : الأمر والشأن كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي وهم المؤمنون ، أو الصحابة ، أو أهل الصفة – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – يَقُولُونَ فى الدنيا : رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا أي : هزوا ، وهو مصدر سخر ، زيدت فيه ياء النسب للمبالغة ، وفيه الضم والكسر. وقال الكوفيون : المكسور بمعنى الهزء ، والمضموم من السخرة ، بمعنى الانقياد للخدمة ، ولذلك اتفق عليه فى الزخرف «٢» ، أي : اتخذتموهم مهزوا بهم ، وتشاغلتم بهم حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي ، من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم ، ولم تخافونى فى أوليائى ، وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ، وذلك غاية الاستهزاء.

قال تعالى : إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ جزاء على صبرهم على أذاكم ، أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ بكل مطلوب دونكم ، فأنهم : مفعول «جزيتهم» لأنه يتعدى إلى مفعولين ، وقرأ حمزة بالكسر على الاستئناف تعليلا للجزاء ، وبيانا أنه فى غاية الحسن ، قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ، القائل هو الله تعالى ، أو الملك ، وقرأ المكي وحمزة : «قل» التي بلفظ الأمر للملك ، يسألهم : كم لبثوا ، فِي الْأَرْضِ التي دعوا الله أن يردهم إليها ، عَدَدَ سِنِينَ ، وهو تمييز ، أي : كم لبثتم فى الأرض من عدد السنين ، قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، استقصار لمدة لبثهم فيها بالنسبة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة ، فَسْئَلِ الْعادِّينَ أي : المتمكنين من العد فإنا بما دهمنا من العذاب بمعزل من العد ، أو الملائكة العادين لأعمار العباد وأعمالهم.

قالَ الله تعالى ، أو الملك ، تصديقا لهم فى مقالهم : إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا : ما لبثتم إلا زمانا قليلا ، أو لبثا قليلا بالنسبة لما بعده ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شيئا ، أو : لو كنتم من أهل العلم لعلمتم قلة لبثكم فيها ، فالجواب محذوف. والله تعالى أعلم.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٥/ ٤٣١) عن الحسن.

(٢) فى قوله تعالى : وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا ..) الآية ٣٢ من سورة الزخرف.

(٦٠٢/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٣

الإشارة : إذا تميزالمتحابون فى الله ، المجتمعون على ذكر الله ومحبته وطلب معرفته ، وعرفوا بأنوارهم وأسرارهم ، وانحازوا إلى ظل العرش ، يوم لا ظل إلا ظله ، ورآهم البطالون المنكرون عليهم ، وهم فى حسرة الحساب ، يقولون بلسان الحال أو المقال : (رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا) حيث لم نصحب هؤلاء الأولياء ، وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا من هذه الحسرة ، وردنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى البطالة والإنكار عليهم فإنا ظالمون ، فيقال لهم : اخسئوا فيها فقد فات الإبان ، إنه كان فريق من عبادى ، وهم المنتسبون من أهل التجريد ، المتزيون بزى الصوفية أهل التفريد ، يقولون : ربنا آمنا بطريق الحصوصية ودخلنا فيها ، فاغفر لنا ، أي : غط مساوئنا ، وارحمنا رحمة تضمنا إلى حضرتك ، وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخريا ، وانشغلتم بالوقوع فيهم ، حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون ، إنى جزيتهم اليوم ، بما صبروا ، أنهم هم الفائزون بشهود ذاتى ، والقرب من أحبابى ، المتنزهون فى كمال جمالى ، فى درجات المقربين من النبيين والصديقين.

قال القشيري : الحق ينتقم من أعدائه بما يطيّب به قلوب أوليائه ، وتلك خصمة الحق ، فيقول لهم : كان فريق من أوليائى يفصحون بمدحى واطرائى ، فاتخذتموهم سخريا ، فأنا اليوم أجازيهم ، وأنتقم ممن كان يناويهم. هـ.

قوله تعالى : قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ .... إلخ ، اعلم أن أيام الدنيا كلها تقصر عند انقضاء عمر العبد ، فتعود كيوم واحد ، أو بعض يوم ، فإن أفضى إلى الراحة بعد الموت نسى أيام التعب ، وغاب عنها ، فتصير كأضعاث أحلام ، وإن أفضى إلى التعب ، نسى أيام الراحة ، كأنها طيف منام. قال فى الحاشية : الأشياء ، وإن كانت كثيرة ، فقد تنقص وتقل بالإضافة إلى ما يرجّى عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ، إن كانوا فى الراحة فقد تقل ، بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها فى القيامة ، وإن كانت شديدة فقد تتلاشى فى جنب رؤية ذلك اليوم لما فيه من أليم تلك العقوبات المتوالية. هـ.

ثم تمم توبيخهم يوم القيامة بقوله :

[سورة المؤمنون (٢٣) : الآيات ١١٥ الى ١١٨]

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ

الْكافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)
قلت : (أَ فَحَسِبْتُمْ) : المعطوف محذوف ، أي : ألم تعلموا شيئا فحسبتم ، و(عَبَثاً) : حال ، أو مفعول من أجله.

(٦٠٣/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٤
يقول الحق جل جلاله : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً أي : عابثين ، أو للعبث من غير حكمة فى خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث ، وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ للحساب والجزاء ، بل خلقناكم للتكليف ، ثم للرجوع إلينا ، فنثيب المحسن ، ونعاقب المسيء. فَتَعالَى اللَّهُ أن يخلق شيئا عبثا ، وهو استعظام له تعالى ولشئونه التي يصرّف عليها عباده من البدء والإعادة ، والإثابة والعقاب ، بموجب الحكمة ، أي : ارتفع بذاته ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة.
الْمَلِكُ الْحَقُّ الذي يحق له الملك على الإطلاق ، إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، عذابا وإثابة ، وكل ما سواه مملوك له ، مقهور تحت ملكوته ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، فإنّ كل ما عداه عبيده ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ، فكيف بما تحته من الموجودات ، كائنا ما كان ، ووصفه بالكرم : إمّا لأنه منه ينزل الوحى الذي منه القرآن الكريم ، والخير والبركة ، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين.
وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ، يعبده فردا أو اشتراكا ، من صفته لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ على صحة عبادته. وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ، فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، فهو مجاز له على قدر ما يستحقه ، إِنَّهُ أي : الأمر والشأن لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ لا فوز لهم ولا نجاة.
بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين ، وختمت بنفي فلاح الكافرين تحريضا على الإيمان ، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته ، من التمسك بما جاء به التنزيل ، وبما جاء به النبي الجليل ، ليقع الفوز بالفلاح الجميل.
ثم علّمنا سؤال المغفرة والرحمة لأن شؤم المعاصي يؤدى إلى سوء الختام ، فقال : وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ، وفيه إيذان بأنهما من أهم الأمور الدينية ، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله – تعالى – المغفرة الشاملة ، والرحمة الكاملة ، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين .. آمين.
روى عن عبد الله بن مسعود رضي اللّه عنه أنه مرّ بمصاب مبتلى ، فقرأ فى أذنه : (أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما ...)

إلخ السورة ، فبرئ من حينه. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره ، فقال : «والذي نفسى بيده لو أن رجلا مؤمنا قرأها على جبل لزال» «١».

الإشارة : ما أظهر الله الكائنات إلا ليعرف بها ، ويظهر فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته ، وفى الأثر القدسي : «كنت كنزا لم أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فتعرفت لهم ، فبى عرفونى».

وفى إيجاد المخلوقات حكم بليغة وأسرار عجيبة ، لا يحصيها إلا من خلقها ودبّرها. فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه ،

---

(١) أخرجه البغوي فى تفسيره (٥/ ٤٣٢) ، وأبو نعيم فى الحلية (١/ ٧) ، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص ٢٩٨) قال الذهبي فى ميزان الاعتدال (٢/ ١٧٥) قال العقيلي : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال : .... وساق الحديث ، فقال أبى : هذا موضوع ، هذا حديث الكذابين.

وهم أهل الإيمان والطاعة ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه ، وهم أهل العصيان ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمته ، وهم أهل الكفر والطغيان. وقال الحكيم الترمذي رضي اللّه عنه : إن الله خلق الخلق عبيدا ليعبدوه ، فيثيبهم على العبادة ، ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد ، أحرار كرام من رق الدنيا ، ملوك فى دار السلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أبّاق ، سقاط ، لئام ، أعداء فى السجون بين أطباق النيران. هـ.

وقال بعضهم : إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا صلى اللّه عليه وسلم تشريفا له ، فهو من نوره. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السّلام : يا عيسى بن مريم آمن بمحمد ، ومر أمتك أن يؤمنوا به ، فلو لا محمد ما خلقت آدم ، ولو لا محمد ما خلقت الجنة والنار ... الحديث.

قال القشيري : حسابه على اللّه فى آجله ، وعذابه من اللّه له فى عاجله ، وهو ما أودع قلبه حتى رضى أن يعبد معه غيره ، لقوله : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى «١» ، كلام حاصل عن غير دليل عقل ، ولا شهادة خبر ونقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقول ليس يساعده برهان. هـ. وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق – وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين «٢».

---

(١) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(٢) فى خاتمة المجلد الثاني من النسخة الأم ما يلى : كمل السفر الثاني من (البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد) ، ووافق الفراغ من تبيضه عشية يوم الثلاثاء ، سابع عشر صفر ، عام ثمانية ومائتين وألف ، على يد جامعه «أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى» لطف الله به فى الدارين ، بمنّه وكرمه – وبسيدنا ومولانا محمد ، نبيه وحبه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله. وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين. يتلوه الثالث من أول سورة النور – إن شاء الله – .

انتهى استخراجه من نسخة من مبيضته بحمد الله – تعالى – على توفيقه لنا وتسديده ، عشية يوم الاثنين ، آخر يوم من الشهر المذكور ، من العام المذكور ، على يد كاتبه لشيخه ومؤلفه المذكور «عبد الغفور بن التهامي البناني» ، راجيا رضا مؤلفه ، والري من بحره ، بمحض الفضل والكرم ، والصلاة على النبي الأعظم ، والرسول الأفخم ، سيدنا محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام. [.....]

(٦٠٥/٣)

البحر المديد ج ٣ ، ص : ٦٠٦

(٦٠٦/٣)

البحر المديد ، ج ٣ ، ص : ٦٠٧

فهرس المجلد الثالث

تفسير سورة الرعد ٥ تفسير سورة إبراهيم ٤١ تفسير سورة الحجر ٧٧ تفسير سورة النّحل ١٠٧
تفسير سورة الإسراء ١٧٩ تفسير سورة الكهف ٢٤٥ تفسير سورة مريم ٣١٧ تفسير سورة طه ٣٧١
تفسير سورة الأنبياء ٤٤١ تفسير سورة الحج ٥٠٩ تفسير سورة المؤمنون ٥٦١

(٦٠٧/٣)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥

[المجلد الرابع]

سورة النّور «١»

مدنية. ووجه المناسبة لما قبلها : أن إقامة الحدود من أثر الرحمة التي ختم بها ما قبلها لأن بإقامة الحدود يقع الزجر عن المعاصي ، فتنزل الرحمة والعافية. قال أبو هريرة رضي اللّه عنه : (إقامة حدّ

بأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة) «٢».

وقيل : لمّا ذكر تعالى فى مشركى قريش : وَلَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ أي : أعمال سيئة هُمْ لَها عامِلُونَ «٣» ، ثم استطرد بعد ذلك فى أحوالهم ، كان من أعمالهم السيئة : الزنا ، وكان لهم جوار بغايا عليهن ، ويأكلون من كسبهن من الزنا ، فأنزل اللّه هذه السورة تغليظا فى أمر الزنا. هـ. وعن عائشة – رضي اللّه عنها – قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لا تنزلوا النساء الغرف ، ولا تعلموهنّ الكتابة ، وعلّموهنّ سورة النور والغزل» «٤» أي : أحكام السورة لينزجرن عن الزنا.

وسميت سورة النور لقوله : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «٥» ، وحقيقة النور : ما تنكشف به حقيقة الأشياء على ما هى عليه ، فالنور الظاهر الحسى تنكشف به الأشياء الحسية ، والنور الباطن تنكشف به الأشياء الباطنية ، كمعرفة الذات الأقدس ، وما يقرب إليها من آداب العبودية. ومرجعه إلى ثلاثة : نور معرفة أحكام المعاملة ، ونور اليقين ، ونور المكاشفة. فالأول : نور الإسلام ، وهو كنور النجوم ، والثاني : نور الإيمان ، وهو كنور القمر ، والثالث :

نور الإحسان ، وهو كنور الشمس. ويسمى الأولان : نور التوجه ، والثالث : نور المواجهة. وتتفاوت هذه الأنوار على قدر التوجهو التفرغ من شواغل الحس ، فإذا أشرقت شمس العرفان لم يبق لنور النجوم ولا للقمر أثر لمحو وجود الأكوان فى محل العيان ، فصار الغيب شهادة ، والتصديق معاينة ، فانطوى الإيمان فى وجود العيان.

ولمّا كانت التقوى أساس الطريق لهذا المقام ، الذي هو نور الإيمان ، تكلم الحق تعالى فى أول السورة على أهم ما يتقى ، وهو الزنا وما يؤدى إليه من النظر والاطلاع على عورات النساء ، فقال :

---

(١) أول المجلد الثالث من النسخة الأم.

(٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٤٣٨١) وأخرجه بنحوه ، ابن ماجه فى (الحدود باب : اقامة الحدود ، ٢/ ٨٤٨ ، ح ٢٥٣٨) ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، وأخرجه ابن ماجه فى الموضع نفسه (ح ٣٥٣٧) والنسائي (٨/ ٧٦) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٦٣ من سورة «المؤمنون».

(٤) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٦٨) ، والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٩٦) وصححه ، وتعقبه الذهبي ، فقال : (بل موضوع ، وآفته :

عبد الوهاب ، قال أبو حاتم : كذاب) ، وقال الهيثمي فى المجمع (٤/ ٩٣) : رواه الطبراني فى الأوسط (ح ٥٧١٣) ، وفيه محمد بن إبراهيم الشامي. قال الدارقطني : كذّاب.

(٥) الآية ٣٥ من السورة.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَفَرَضْناها وَأَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

قلت : «سورة» : خبر ، أي : هذه سورة ، وأشير لها ، مع عدم تقدم ذكره لأنها فى حكم الحاضر المشاهد. وقرئ بالنصب على الاشتغال ، وجملة : (أنزلناها) ، وما عطف عليه : صفة لسورة ، مؤكد لما أفاده التنكير من الفخامة.

و(الزانية) : مبتدأ ، والخبر : (فاجلدوا) ، ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط إذ اللام موصولة ، أي : والتي زنت والذي زنى فاجلدوا ، هذا مذهب المبرد وغيره ، والاختيار عند سيبويه : الرفع على الابتداء ، والخبر : محذوف ، أي : فيما فرض عليكم ، أو : مما يتلى عليكم : حكم الزانية والزاني ، وقدّم الزانية لأنها الأصل فى الفعل ، والداعية فيها أوفر ، ولو لا تمكينها منه لم يقع. وقيل : لمّا كان وجود الزنى فى النساء أكثر ، بخلاف السرقة ، ففى الرجال أكثر ، قدّم الحق تعالى الأكثر فيهما.

يقول الحق جل جلاله : هذه سُورَةٌ ، وهى الجامعة لآيات ، بفاتحة لها وخاتمة ، مشتقة من سور البلد. من نعت تلك السورة : أَنْزَلْناها عليك ، وَفَرَضْناها أي : فرضنا الأحكام التي فيها. وأصل الفرض : القطع ، أي : جعلناها مقطوعا بها قطع إيجاب. وقرأ المكي وأبو عمرو : بالتشديد للمبالغة فى الإيجاب وتوكيده ، أو : لأن فيها فرائض شتى ، أو : لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم. وَأَنْزَلْنا فِيها أي : فى تضاعيفها آياتٍ بَيِّناتٍ أي : دلائل واضحات لوضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها فإنها كسائر السور. وتكرير (أنزلنا) ، مع أن جميع الآيات عين السورة لاستقلالها بعنوان رائق داع إلى تخصيص إنزالها بالذكر إبانة لخطرها ، ورفعا لقدرها ، كقوله تعالى : وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ «١» ، بعد قوله : نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي : لكى تتعظوا فتعملوا بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على بال منهم ، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة هود.

ثم شرع فى تفصيل أحكامها ، فقال : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ إذا كانا حرّين ، بالغين ، غير محصنين ، وألا تكون المرأة مكرهة. وظاهر الآية : عموم المحصن وغيره ، ثم نسخ بالسنة المشهورة. وقد رجم – عليه الصلاة والسلام – ماعزا وغيره. وعن على رضي اللّه عنه : جلدتهما بكتاب اللّه ، ورجمتهما بسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم. وقيل : نسخ بآية منسوخة التلاوة ، وهى : (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتّة نكالا من اللّه واللّه عزيز حكيم) ، ويأباه ما روى عن على رضي اللّه عنه. هـ. قاله أبو السعود.

وشرط الإحصان : العقل ، والحرية ، والإسلام ، والبلوغ ، والتزوج بنكاح صحيح ، ودخول معتبر. وفى التعبير بالجلد ، دون الضرب إشارة إلى أنه لا يبالغ إلى أن يصل أثر الضرب إلى اللحم ، ولكن يخفف حتى يكون حد ألمه الجلد الظاهر. والخطاب للأئمة لأن إقامة الحدود من الدّين ، وهو على الكل ، إلا أنه لا يمكن الاجتماع ، فيقوم الإمام مقامهم ، وزاد مالك والشافعي مع الجلد : تغريب عام ، أخذا بالحديث الصحيح «١». وقال أبو حنيفة : إنه منسوخ بالآية.

وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ أي : رحمة ورقة. وفيها لغات : السكون ، والفتح مع القصر والمد ، كالنشأة والنشاءة ، وقيل : الرأفة فى دفع المكروه ، والرحمة فى إيصال المحبوب. فِي دِينِ اللَّهِ أي : فى طاعته وإقامة حدوده ، والمعنى : أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين اللّه ، ولا يأخذهم اللين حتى يتركوا حدود اللّه.

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، هو من باب التهييج ، وإلهاب الغضب للّه ، ولدينه ، فإن الإيمان يقتضى الجد فى طاعته ، والاجتهاد فى إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه العقاب فى مقابلة المسامحة.

وجواب الشرط : مضمر ، أي : إن كنتم تؤمنون باللّه فاجلدوا ولا تعطلوا الحد.

قيل لأبى مجلز فى هذه الآية : واللّه إنا لنرحمهم إن يجلد الرجل أو تقطع يده ، فقال : إنما ذلك فى السلطان ، ليس له أن يدعهم رحمة لهم. وجلد ابن عمر جارية ، فقال للجلاد : ظهرها ورجليها وأسفلها ، وخفّف ، فقيل له : أين قوله : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ ..؟ فقال : أأقتلها؟ ، إنّ اللّه أمرنى أن أضربها وأأدبها ، ولم يأمرنى أن أقتلها. هـ «٢».

ويجرد للجلد إلا ما يستر العورة.

وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما أي : وليحضر موضع حدّهما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ زيادة فى التنكيل ، فإن التفضيح قد ينكل أكثر من التعذيب. قال بعض العلماء : ينبغى أن يقام بين يدى الحكام ، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم لأنه قيام بقاعدة شرعية ، وقربة تعبدية ، يجب المحافظة على فعلها ، وقدرها ، ومحلها ، وحالها ، بحيث

---

(١) أخرج البخاري فى (الشهادات ، باب شهادة القاذف والسارق والزاني ح ٢٦٤٩) عن زيد بن خالد : «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مائة وتغريب عام».
(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ٦٧).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨
لا يتعذر شيء من شروطها وحرمتها ، فإن دم المسلم وحرمته عظيمة ، فيجب مراعاته بكل ما أمكن ، فلا يقصر عن الحد ، ولا يزاد عليه. ويطلب الاعتدال فى السوط ، فلا يكون لينا جدا ، ولا يابسا جدا ، وكذلك فى الضرب ، فلا يرفع يده حت يرى إبطه ، ولا يخفف فيه جدا ، بل يتوسط بحيث يؤلمه ولا يضره.
وتسمية الحدّ عذابا دليل على أنه عقوبة وكفارة. و«الطائفة» : فرقة ، يمكن أن تكون حافة حول الشيء ، من الطوف ، وهو الإدارة ، وأقلها : ثلاثة ، وقيل : أربعة إلى أربعين. وعن الحسن : عشرة ، والمراد : جمع يحصل به التشهير. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : التقوى أساس الطريق ، وبها يقع السير إلى عين التحقيق. فمن لا تقوى له لا طريق له ، ومن لا طريق له لا سير له ، ومن لا سير له لا وصول له. وأعظم ما يتقى العبد شهوة الفروج ، فهى أعظم الفتن وأقبح المحن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «ما تركت بعدي أضرّ على الرّجال من النّساء» «١» ، أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم. وعن حذيفة رضي اللّه عنه قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «يا معشر الناس اتقوا الزنا ، فإن فيه ستّ خصال : ثلاثا فى الدنيا ، وثلاثا فى الآخرة : فأما اللاتي فى الدنيا فيذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ، وأما اللاتي فى الآخرة فيوجب السخطة وسوء الحساب والخلود فى النار» «٢». والمراد بنقص العمر : قلة بركته ، وبالخلود : طول المكث.
وفى حديث آخر : «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة والزواني» «٣» ، وعن أنس رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إن أعمال أمتى تعرض علىّ فى كل جمعة مرتين ، فاشتد غضب اللّه على الزناة» «٤». وقال وهب بن منبه : (مكتوب فى التوراة : الزاني لا يموت حتى يفتقر ، والقواد لا يموت حتى يعمى).
وفى بعض الأخبار القدسية : «يقول اللّه عز وجل : أنا اللّه لا إله إلا أنا ، خلقت مكة بيدي ، أغنى الحاج ولو بعد حين ، وأفقر الزاني ولو بعد حين ، هذا وباله فى الدنيا والآخرة ، وأما فى عالم البرزخ فتجعل أرواحهم فى تنور من نار ، فإذا اشتعلت علوا مع النار ، وإذا خمدت سقطوا إلى أسفلها ، هكذا حتى تقوم الساعة ، كما فى حديث

(١) أخرجه البخاري فى (النكاح ، باب ما يتقى من شؤم المرأة ح) ، ومسلم فى (الذكر ، باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، ٤/ ٢٠٩٧ ح ٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد رضي اللّه عنه.

(٢) عزاه فى كنز العمال (٥/ ٣١٩ ح ١٣٠٢٢) للخرائطى فى مساوئ الأخلاق. وأبى نعيم فى الحلية (٤/ ١١١) ، والبيهقي فى شعب الإيمان (ح ٥٤٧٥) ، عن حذيفة. والحديث ضعفه البيهقي.

(٣) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤٨) عن بريدة رضي اللّه عنه ، وضعّفه الهيثمي فى المجمع (٦/ ٢٥٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٧٩) عن أنس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٩

البخاري «١». وقال ابن رشد : ليس بعد الشرك أقبح من الزنا لما فيه من هتك الأعراض واختلاط الأنساب ، ومن تاب فإن اللّه يتوب على من تاب. وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ : قال فى الإحياء : فى الحديث : «خيار أمتى أحدّاؤها «٢» يعنى : فى الدين قال تعالى : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ ، فالغيرة على الحرم ، والغضب للّه وعلى النفس ، بكفها عن شهوتها وهواها ، محمود ، وفقد ذلك : مذموم. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم نهى عن نكاح الزواني ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣]

الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلاَّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلاَّ زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

يقول الحق جل جلاله : من شأن الزَّاني الخبيث : أنه لا يرغب إلا فى زانية خبيثة من شكله ، أو فى مشركة ، والخبيثة المسافحة لا يرغب فيها إلا من هو من شكلها ، من الفسقة أو المشركين. وهذا حكم جار على الغالب المعتاد ، جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني ، بعد زجرهم عن الزنا بهن إذ الزنا عديل الشرك فى القبح ، كما أن الإيمان قرين العفاف والتحصن ، وهو نظير قوله : الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ «٣».

روى أن المهاجرين لمّا قدموا المدينة ، وكان فيهم من ليس له مال ولا أهل ، وبالمدينة نساء بغايا مسافحات ، يكرين أنفسهن ، وهنّ أخصب أهل المدينة ، رغب بعض الفقراء فى نكاحهن لحسنهن ، ولينفقوا عليهم من كسبهنّ ، فاستأذنوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فنزلت «٤» ، فنفرهم اللّه تعالى عنه ، وبيّن أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين ، فلا تحوموا حوله لئلا تنتظموا فى سلكهم وتتّسموا

بسمتهم.

قيل : كان نكاح الزانية محرما فى أول الإسلام ، ثم نسخ بقوله : وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ «٥». وقيل : المراد بالنكاح : الوطء ، أي : الزاني لا يزنى إلا بزانية مثله ، وهو بعيد ، أو باطل.

---

(١) أخرجه البخاري ، مطولا فى (الجنائز ، باب ٩٣ ح ١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٥٧٩٣) والبيهقي فى الشعب (ح ٨٣٠١) من حديث سيدنا عليّ ، بسند ضعيف ، وزادا : (و الذين إذا غضبوا رجعوا) .. [.....]

(٣) الآية ٢٦ من سورة النور.

(٤) عزاه السيوطيفى الدر (٥/ ٣٨) لابن أبى حاتم ، عن مقاتل.

(٥) من الآية ٣٢ من سورة النور.

وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عمن زنا بامرأة ثم تزوجها. فقال : «أوّله سفاح ، وآخره نكاح ، والحرام لا يحرم الحلال» «١».

ومعنى الجملة الأولى : وصف الزاني بكونه غير راغب فى العفائف ، ولكن فى الفواجر. ومعنى الثانية : وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء ، ولكن الزناة ، وهما معنيان مختلفان. وقدّم الزاني هنا ، بخلاف ما تقدم فى الجلد لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا ، والمرأة هى المادة التي منها نشأت تلك الجناية ، كما تقدم ، وأما هنا فمسوقة لذكر النكاح ، والرجل أصل فيه.

ثم ذكر الحكم ، فقال : وَحُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : نكاح الزواني بقصد التكسب ، أو : للجمال لما فى ذلك من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة ، والتعرض لسوء المقالة والغيبة والطعن فى النسب ، وغير ذلك من المفاسد التي لا تكاد تليق بأحد من الأدانى والأراذل ، فكيف بالمؤمنين والأفاضل؟ ، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم ، مبالغة فى الزجر ، وقيل : النفي بمعنى النهى ، وقرئ به. والتحريم : إما على حقيقته ، ثم نسخ بقوله :

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ ... «٢» إلخ ، أو : مخصوص بسبب النزول. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الصحبة لها تأثير فى الأصل والفرع ، فيحصل الشرف أو السقوط بصحبة أهل الشرف أو الأراذل ، وفى ذلك يقول القائل :

عليك بأرباب الصّدور ، فمن غدا مضافا لأرباب الصّدور تصدّرا
وإيّاك أن ترضى بصحبة ساقط فتنحط قدرا من علاك وتحقرا
فالمرء على دين خليله ، ومن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها ، والحكم للغالب ، فإن كان النور قويا غلب الظلمة ، وإن كانت الظلمة قوية غلبت النور ، وصيرته ظلمة ، ولذلك نهى اللّه تعالى عن نكاح الزواني ، فإنه وإن كان

---

(١) هذا حديثان ، الأول قوله «أوله : سفاح وآخره نكاح ، أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٧/ ٢٠٢) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٤/ ٢٤٨) والبيهقي فى الكبرى (٧/ ١٦٨). موقوفا على ابن عباس رضي اللّه عنه.
والثاني : قوله : «الحرام لا يحرم الحلال ، أخرجه ابن ماجه فى (النكاح ، باب لا يحرم الحرام حلال ، ١/ ٦٤٩ ح ٢٠١٥) والدارقطني (٧/ ١٦٩) عن ابن عمر رضي اللّه عنه.
(٢) الآية ٣٢ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١
نور الزوج غالبا – إذا كان ذا نور – فإن العرق نزّاع ، فيسرى ذلك فى الفروع ، فلا تكاد تجد أولاد أهل الزنا إلا زناة ، ولا أولاد أهل العفة إلا أعفّاء ، وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً «١».
وفى الحديث : «إياكم وخضراء الدّمن ، قيل : وما خضراء الدمن يا رسول اللّه؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء» «٢». قال ابن السكيت : شبهها بالبقلة الخضراء فى دمنة أرض خبيثة لأن الأصل الخبيث يحن إلى أصله ، فتجىء أولادها لأصلها فى الغالب. فيجب على اللبيب – إن ساعفته الأقدار – أن يختار لزراعته الأرض الطيبة ، وهى الأصل الطيب ، لتكون الفروع طيبة. وفى الحديث : «تخيّروا لنطفكم ولا تضعوها إلّا فى الأكفاء» «٣» هـ وباللّه التوفيق.
ثم ذكر حدّ القذف ، فقال :
[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤ الى ٥]
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)
قلت : «ثمانين» : مفعول مطلق ، و«جلدة» : تمييز. «إلا الذين تابوا» : إما : استثناء من ضمير

«لهم» ، فمحله :

الجر ، أو : من قوله : «الفاسقون» ، فمحله : النصب لأنه بعد موجب تام.

يقول الحق جل جلاله ، فى بيان شأن العفائف ، بعد بيان شأن الزواني : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أي : يقذفون بالزنا الْمُحْصَناتِ الحرائر العفائف المسلمات المكلفات ، بأن يقول : يا زانية ، أو : يا محبة ، ولا فرق بين التصريح والتعريض ، ولا بين النساء والرجال ، قاذفا أو مقذوفا. والتعبير بالرمي ، المنبئ عن صلابة الآلة ، وإيلام المرمى ، وبعده عن الرامي إيذان بشدة تأثيره فيهن ، وكونه رجما بالغيب. والتعبير بالإحصان يدل على أن رميهن إنما كان بالزنا ، لا غير.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعي ، فى مسنده (٩٥٧) ، والديلمي (الفردوس ح ١٥٣٧) عن أبى سعيد الخدري. قال العجلونى ، فى كشف الخفاء (١/ ٢٧٢) : قال ابن عدى : تفرد به الواقدي ، وذكره أبو عبيد فى الغريب. ورواه الدار قطنى فى الأفراد ، وقال : لا يصح من وجه.

(٣) أخرجه بلفظ : «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء» : ابن ماجة فى (النكاح ، باب الأكفاء ، ١/ ٦٣٣ ، ح ١٩٦٨) ، والبيهقي فى السنن (٧/ ١٣٣) ، والدارقطني فى السنن (٢/ ٢٩٨) ، من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها. وأخرجه بلفظ المفسر : ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦١٤) ، والبغدادي فى تاريخ بغداد (١/ ٢٦٤) ، وانظر كشف الخفا (١/ ٣٠٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢

ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ يشهدون عليهن بما رموهن به ، وفى كلمة «ثم» إشارة إلى جواز تأخير الإتيان بالشهود ، كما أن فى كلمة «لم» : تحقق الإتيان بهم. وشروط إحصان القذف : الحرية ، والعقل ، والبلوغ ، والإسلام ، والعفة عن الزنا ، فإن توفرت الشروط فَاجْلِدُوهُمْ أي : القاذفين ثَمانِينَ جَلْدَةً لظهور كذبهم وافترائهم لقوله تعالى : فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ «١» ، وتخصيص رميهن بهذا الحكم ، مع أن رمى المحصنين أيضا كذلك لخصوص الواقعة ، وشيوع الرمي فيهن. والحدود كلها تشطر بالرق ، فعلى العبد فى الزنا خمسون ، وفى القذف أربعون.

وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ بعد ذلك شَهادَةً أَبَداً زجرا لهم لأن رد شهادتهم مؤلم لقلبهم ، كما أن الجلد مؤلم لبدنهم. وقد آذى المقذوف بلسانه ، فعوقب بإهدار شهادته ، جزاء وفاقا. والمعنى : ولا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات ، حال كونها حاصلة لهم عند الرمي ، أبدا ، مدة حياتهم ، فالرد من تتمة الحدّ ،

كأنه قيل : فاجلدوهم وردوا شهادتهم ، أي : فاجمعوا لهم بين الجلد والرد. وَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ ، كلام مستأنف غير داخل فى جزاء الشرط لأنه حكاية حال الرامي عند اللّه تعالى بعد انقضاء الجزاء ، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد ، أي : أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق ، والخروج عن الطاعة ، والتجاوز عن الحد ، فإنهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم ، دون غيرهم.

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ القذف ، وَأَصْلَحُوا أحوالهم ، فهو استثناء من الفاسقين ، بدليل قوله : فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أي : يغفر ذنوبهم ويرحمهم ، ولا ينظمهم فى سلك الفاسقين. فعلى هذا لا تقبل شهادته مطلقا فيما حدّ فيه وفى غيره لأن رد شهادته وصلت بالأبد ، وأما توبته فإنما تنفعه فيما بينه وبين اللّه ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وهو قول ابن عباس وشريح والنخعي. وقيل : الاستثناء راجع لقوله : وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً ، فإذا تاب وأصلح قبلت شهادته مطلقا لأنه زال عنه اسم الفسق ، والأبد عبارة عن مدة كونه فاسقا ، فينتهى بالتوبة ، وبه قال الشافعي وأصحابه ، وهو قول الشعبي ومسروق وابن جبير وعطاء وسليمان بن يسار. وفصّل مالك ، فقال :

لا تجوز فيما حدّ فيه ، ولو تاب ، وتجوز فيما سواه ، وكأنه جمع بين القولين. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الغض عن مساوئ الناس من أفضل القرب ، وهو من شيم ذوى الألباب ، وبه السلامة من الهلاك والعطب ، والتعرض لمساوئهم من أعظم الذنوب ، وأقبح العيوب ، وللّه در القائل :

---

(١) من الآية ١٣ من سورة النور.

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم وحظك موفور وعرضك صيّن

لسانك ، لا تذكر به عورة امرئ فعندك عورات وللنّاس ألسن

وإن أبصرت عيناك عيبا فقل لها : أيا عين لا تنظرى فللناس أعين

وعاشر بمعروف وجانب من اعتدي وفارق ولكن بالتي هى أحسن «١»

فالمتوجه إلى اللّه لا يشتغل بغير مولاه ، ولا يرى فى المملكة سواه ، يذكر اللّه على الأشياء ، فتنقلب نورا لحسن ظنه باللّه ، ويلتمس المعاذر لعباد اللّه لكمال حسن ظنه بهم. وباللّه التوفيق.

ثم تكلم على من رمى زوجته ، وبه يقع اللعان ، ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٦ الى ١٠]

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (٨) وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

قلت : (إلا أنفسهم) : بدل من (شهداء) ، أو صفة له ، على أن (إلا) بمعنى غير. و(فشهادة) : مبتدأ ، والخب محذوف ، أي : واجبة ، أو : تدرأ عنه العذاب ، أو : خبر عن محذوف ، أي : فالواجب شهادة أحدهم ، و(أنّ) ، فى الموضعين : مخففة ، ومن شدّد فعلى الأصل. و(الخامسة) : مبتدأ ، و(أنّ غضب) : خبر ، وقرأ حفص بالنصب ، أي :

ويشهد الشهادة الخامسة.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ أي : يقذفون زوجاتهم بالزنا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ أي : لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ، جعلوا من جملة الشهداء إيذانا بعدم قبول قولهم بالمرة ، فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أي : فالواجب شهادة أحدهم أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ يقول : أشهد بالله إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فيما رماها به من الزنا. وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ أي : إنه لعنة اللّه عليه ، أي :

يقول فيها : لعنة اللّه عليه إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ فيما رماها به. فإذا حلف درئ عنه العذاب ، أي : دفع عنه الحد ، وإن نكل : حدّ لقذفها.

---

(١) الأبيات بنحوها فى ديوان الشافعي ص/ ٨٤ تعليق محمد عفيف الزعبى.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٤

وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أي : يدفع عنها الحدّ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ أي : الزوج لَمِنَ الْكاذِبِينَ فيما رماها به من الزنا ، وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ الزوج مِنَ الصَّادِقِينَ فيما رماها به من الزنا. وذكر الغضب فى حق النساء تغليظا لأن النساء يستعملن اللعن كثيرا ، كما ورد به الحديث : «يكثرن اللعن» «١» ، فربما يجترئن على الإقدام ، لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن ، وسقوط وقعه عن قلوبهن ، فذكر الغضب فى جانبهن ليكون ردعا لهن.

فإذا حلفا معا فرق بينهما بمجرد التلاعن ، عند مالك والشافعي ، على سبيل التأبيد ، وقال أبو حنيفة : حتى يحكم القاضي بطلقة بائنة فتحل له بنكاح جديد إذا أكذب نفسه وتاب.

روى أن آية القذف المتقدمة لمّا نزلت قرأها النبي صلى اللّه عليه وسلم على المنبر ، فقام عاصم بن عدى الأنصاري ، فقال :

جعلنى اللّه فداءك ، إن وجد رجل مع امرأته رجلا ، فأخبر بما رأى ، جلد ثمانين ، وسماه المسلمون فاسقا ، ولا تقبل شهادته أيضا ، فكيف لنا بالشهداء ، ونحن إذا التمسنا الشهداء فرغ الرجل من حاجته ، وإن ضربه بالسيف قتل؟ اللهم افتح ، وخرج فاستقبله هلال بن أمية - وقيل : عويمر «٢» - فقال : ما وراءك؟ فقال : الشر ، وجدت على امرأتى خولة - وهى بنت عاصم - شريك بن سحماء - فقال عاصم : واللّه هذا سؤال ما أسرع ما ابتليت به ، فرجعا ، فأخبرا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكلم خولة : فأنكرت ، فنزلت هذه الآية ، فتلاعنا فى المسجد ، وفرّق بينهما ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «ارقبوا الولد ، إن جاءت به على نعت كذا وكذا ، فما أراه إلا كذب عليها ، وإن جاءت به على نعت كذا ، فما أراه إلا صدق» فجاءت به على النعت المكروه.

قال تعالى : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أي : تفضله عليكم وَرَحْمَتُهُ ونعمته وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ، وجواب «لو لا» : محذوف لتهويله ، والإشعار بضيق العبارة عن حصره ، كأنه قيل : لو لا تفضله تعالى

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري فى (الحيض ، باب ترك الحائض الصوم ح ٤٠٣) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان نقص الإيمان ، ١/ ٨٦ - ٨٧ ، ح ٧٩) من حديث ابن عمر ، ولفظه : «يا معشر النساء تصدقن ، فإنى أريتكن أكثر أهل النار. فقلن : وبم يا رسول اللّه؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ...» الحديث

(٢) كلاهما جاءت قصته فى الصحيح ، وأخرج قصة عويمر البخاري ، فى (التفسير ، سورة النور ، وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ .. ح ٤٧٤٥) ومسلم فى (أول كتاب اللعان ، ٢/ ١١٢٩ ح ١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي.

وأخرج قصة هلال بن أمية : البخاري أيضا ، فى : (التفسير - سورة النور ، باب : وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ ح ٤٧٤٧). عن ابن عباس. وأخرجها مسلم فى الموضع السابق ذكره (ح ١٤٩٦) عن أنس بن مالك.

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث : بأن أول من وقع له ذلك هلال ، وصادف مجيء عويمر أيضا ، فنزلت فى شأنهما معا ، فى وقت واحد. وقد جنح النووي وابن حجر الى هذا. انظر فتح الباري (٨/ ٣٠٤ - ٣٠٥) وراجع أيضا : تفسير الطبري (١٨/ ٨٢ - ٨٤) والبغوي (٦/ ١٢ - ١٥).

عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ فى قبول التوبة ، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه ، التي من جملتها : ما شرع لكم من حكم اللعان ، لكان ما كان ، مما لا يحيط به نطاق العبارة ، من حد الزوج مع الفضيحة ، أو قتل المرأة ، أو غير ذلك من العقوبة. قال القشيري : لبقيتم فى هذه المعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المشكلة. هـ.

الإشارة : النفس إذا تحقق فناؤها ، وكمل تهذيبها ، رجعت سرا من أسرار اللّه ، فلا يحل رميها بنقص لأن سر اللّه تعالى منزه عن النقائص ، فإن رماها بشيء فليبادر بالرجوع عنه. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من رمى أزواج النبي – عليه الصلاة والسلام – فى قضية الإفك ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ١١]

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (١١)

قلت : (عصبة) : خبر «إن» ، و(لا تحسبوه) : استئناف.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقيل : هو البهتان لا تشعر به حتى يفاجئك. والمراد : ما أفك على الصديقة عائشة – رضي اللّه عنها – ، وفى لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهنّ خرجت قرعتها استصحبها ، قالت عائشة – رضى اللّه عنها – : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها – قيل : هى غزوة بنى المصطلق ، وتسمى أيضا : غزوة المريسيع ، وفيها أيضا نزل التيم – فخرج سهمى ، فخرجت معه صلى اللّه عليه وسلم بعد نزول آية الحجاب ، فحملت فى هودج ، فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ، ثم نودى بالرحيل ، فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع أظفار «١» قد انقطع ، فرجعت فالتمسته ، فحبسنى التماسه. وأقبل الرّهط الذين كانوا يرحلونى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيري ، وهم يحسبون أنّى فيه لخفتى ، فلم يستنكروا خفة الهودج ، وذهبوا بالبعير ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس فيه داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى ، وظننت أن سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى ، فنمت ، وكان صفوان بن المعطّل قد عرّس «٢» من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلى ، فلما رآنى

---

(١) الجزع – بالفتح – : الخرز اليماني .. انظر النهاية (جزع ١/ ٢٦٩).

(٢) التعريس : نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة .. انظر النهاية (عرس ٣/ ٢٠٦).

[.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦

عرفنى ، وكان يرانى قبل الحجاب ، فاسترجع ، فاستيقظت باسترجاعه ، فخمّرت وجهى بجلبابي ، واللّه ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة ، غير استرجاعه ، فأناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فقمت إليها فركبتها ، وانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة ، وهم نزول ، وافتقدنى الناس حين نزلوا ، وماج الناس فى ذكرى ، فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم ، فخاض الناس فى حديثى ، فهلك من هلك. والحديث بطوله مذكور فى الصحيحين «١» والسّير.

وقوله تعالى : عُصْبَةٌ مِنْكُمْ أي : جماعة من جلدتكم ، والعصبة : من العشرة إلى الأربعين ، وكذا العصابة ، يقال : اعصوصبوا : اجتمعوا. وهم عبد اللّه بن أبيّ رأس المنافقين ، وزيد بن رفاعة ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ، ومن ساعدهم. واختلف فى حسان بن ثابت ، فمن قال : كان منهم ، أنشد البيت المروي فى شأنهم ممن جلدوا الحد :

لقد ذاق حسّان الذي هو أهله وحمنة إذا قالا هجيرا ، ومسطح

ومن برّأ حسان من الإفك قال : إنما الرواية فى البيت : (لقد ذاق عبد اللّه ما كان أهله) ، والمشهور أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يحد عبد اللّه بن أبيّ ، حين حدّ الرامين لعائشة ، تأليفا له قال البرماوى فى حاشيته على البخاري فى فوائد حديث الإفك : وفيه ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة ، كما ترك عليه الصلاة والسلام حدّ ابن سلول. هـ. وقد روى ابن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية ، وقد أنكر حسان أن يكون قال فيها شيئا فى أبياته ، التي من جملتها :

حصان رزان ماتزن بريبة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل «٢»

إلى أن قال :

فإن كان ما بلّغت عنّى قلته فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

---

(١) أخرجه البخاري فى مواضع كثيرة ، منها (المغازي ، باب حديث الإفك ح ٤١٤١) ، و(التفسير – سورة النور ، باب لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ح ٤٧٥٠) ، وأخرجه مسلم فى (التوبة ، باب فى حديث الإفك ، ٤/ ٢١٢٩ – ٢١٣٦ ، ح ٧٧٠).

(٢) الحصان : العفيفة ، والرزان : الرزينة الثابتة التي لا يستخفها الطيش. وتزن : ترمى وتتهم. وغرثى : جائعة ، والمعنى : لا تغتاب النساء. والغوافل : جمع غافلة ، وهى التي غفلت عن الشر. وانظر : ديوان حسان (١٩٠ – ١٩١) والبحر المحيط (٦/ ٤٠١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧

ويجمع بين قوله هنا ذلك ، وبين قولها له عند قوله : وتصبح غرثى من لحوم الغوافل : «لكنك لست كذلك» بأنه لم يقل نصا وتصريحا ، ولكن عرّض وأومأ ، فنسب ذلك إليه. واللّه أعلم أىّ ذلك كان.

ثم قال تعالى : لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ، والخطاب للرسول – عليه الصلاة والسلام – ، وأبى بكر ، وعائشة ، وصفوان تسلية لهم من أول الأمر ، بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لاكتسابكم به الثواب العظيم ، وظهور كرامتكم على اللّه عز وجل بإنزال القرآن الذي يتلى إلى يوم الدين فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم ، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم ، والثناء على من ظن خيرا بكم ، مع ما فيه من صدق الرّجعى إلى اللّه ، والافتقار إليه ، والإياس مما سواه.

ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله : لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أي : من أولئك العصبة مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ أي : له من الجزاء بقدر ما خاض فيه ، وكان بعضهم ضحك ، وبعضهم تكلم ، وبعضهم سكت. وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ أي : معظمه وجله مِنْهُمْ أي : من العصبة ، وهو عبد اللّه بن أبيّ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة ، إن كان كافرا ، كابن أبيّ ، وفى الدنيا إن كان مؤمنا ، وهو الحد وإبطال شهادتهم وتكذيبهم. وقد روى أن مسطح كف بصره ، وكذلك حسان ، إن ثبت عنه الخوض فيه ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كلام الناس فى أهل الخصوصية مقاذف لسير سفينتهم ، ورياح لها ، فكلما قوى كلام الناس فى الولي قوى سيره إلى حضرة ربه ، حتى تمنى بعضهم أن يكون غابة والناس فيه حطّابة. وفى الحكم : «إنما أجرى الأذى عليكم كى لا تكون ساكنا إليهم ، أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شى ء».

والحق تعالى غيور على قلوب أصفيائه ، لا يحب أن تركن إلى غيره ، فمهما ركنت إلى شيء شوش ذلك عليه ، كقضية سيدنا إبراهيم الخليل عليه السّلام مع ابنه حين أمر بذبحه ، وكقضية سيدنا يعقوب عليه السّلام مع ابنه حين غيّبه عنه. وكانت عائشة – رضى اللّه عنها – قد استولى عليها حبه – عليه الصلاة والسلام – ، فكادت أن تحجب بالواسطة عن الموسوط ، فردها إليه تعالى بما أنزل بها ، تمحيصا وتخليصا وتخصيصا ، حتى أفردت الحق تعالى بالشهود ، فقالت : بحمد اللّه ، لا بحمد أحد. وكذا شأنه تعالى مع أحبائه يردهم إليه بما يوقع بهم من المحن والبلايا ، حتى لا يكونوا لغيره. وباللّه التوفيق «١».

---

(١) هذه إشارة ممتازه تكتب بماء الرياحين على صفات القلوب.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨

ثم وبّخ الخائضين فى حديث الإفك ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٢ الى ١٣]

لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٣)

قلت : قال ابن هشام : وقد يلى حرف التخصيص اسم معلق بفعل ، إما بمضمر ، نحو : «فهلّا بكرا تلاعبها وتلاعبك» «١» أي : فهلا تزوجت ، أو مؤخرا نحو : (لو لا إذ سمعتموه قلتم ..) أي : فهلا قلتم إذ سمعتموه. هـ. وإليه أشار فى الخلاصة بقوله :

وقد يليها اسم بفعل مضمر علّق أو بظاهر مؤخّر

يقول الحق جل جلاله : لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ أي : الإفك ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً بالذين هم منهم لأن المؤمنين كنفس واحدة ، كقوله : وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ «٢» أي : هلا ظنوا بإخوانهم خيرا :

عفافا وصلاحا ، وذلك نحو ما يروى عن عمر رضي اللّه عنه قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : (أنا قاطع بكذب المنافقين لأن اللّه تعالى عصمك عن وقوع الذباب على جلدك ، لئلا يقع على النجاسات فتلطّخ بها ، فإذا عصمك من ذلك فكيف لا يعصمك من صحبة من تكون ملطخة بهذه الفاحشة)!. وقال عثمان رضي اللّه عنه : (ما أوقع ظلك على الأرض لئلا يضع إنسان قدمه عليه فلمّا لم يمكّن أحدا من وضع القدم على ظلك ، فكيف يمكّن أحدا من تلويث عرض زوجتك!). وكذا قال عليّ رضي اللّه عنه : إن جبريل أخبرك أنّ على نعلك قذرا ، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك ، بسبب ما التصق به من القذر ، فكيف لا يأمرك بإخراجها ، على تقدير أن تكون متلطخة بشيء من الفواحش)؟ قاله النسفي.

وروى أن أبا أيوب الأنصاري قال لامرأته : ألا ترين ما يقال فى عائشة؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تخون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ فقال : لا ، قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول اللّه ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك. وفى رواية ابن إسحاق : قالت زوجة أبى يوب لأبى أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال :

بلى ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت : لا واللّه ، فقال : عائشة خير منك ، سبحان اللّه ، هذا بهتان عظيم ، فنزل : لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ .. الآية «٣».

(١) جاء ذلك فى حديث سيدنا جابر ، وأخرجه البخاري فى (النكاح ، باب تزويج الثيبات ح ٥٠٧٩) ، ومسلم فى (الرضاع ، باب استحباب نكاح البكر ، ٢/ ١٠٨٧ ، ح ٥٦ فى الباب) ولفظ البخاري : (هلّا جارية ..).

(٢) من الآية ١١ من سورة الحجرات.

(٣) انظر تفسير ابن جرير (١٨/ ٩٦) ، والبغوي (٦/ ٢٥) ، وأسباب النزول للواحدى ، ص (٣٣٣).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩

وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة ، وعن الضمير إلى الظاهر ، ولم يقل : ظننتم بأنفسكم خيرا ، وقلتم ليبالغ فى التوبيخ بطريق الالتفات ، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن المؤمن لا يسيء الظن بأحد من المؤمنين.

وَقالُوا عند سماع هذه الفرية : هذا إِفْكٌ مُبِينٌ كذب ظاهر لا يليق بمنصب الصدّيقة بنت الصدّيق. لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ هلّا جاء الخائضون بأربعة شهداء على ما قالوا فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ ، ولم يقل : «بهم» لزيادة التقرير ، فَأُولئِكَ الخائضون عِنْدَ اللَّهِ أي : فى حكمه وشرعه هُمُ الْكاذِبُونَ الكاملون فى الكذب ، المستحقون لإطلاق هذا الاسم عليهم دون غيرهم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : حسن الظن بعباد اللّه من أفضل الخصال عند اللّه ، ولا سيما ما فيه حرمة من حرم اللّه. قال القشيري على الآية : عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وترك الإعراض عن حرمة بيت نبيهم. ثم قال : وسبيل المؤمن ألا يستصغر فى الوفاق طاعة ، ولا فى الخلاف زلّة ، فإنّ تعظيم الأمر بتعظيم الآمر ، وإن اللّه لينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه ، ولا سيما ما تعلق به حق الرسول – عليه الصلاة والسلام – فذلك أعظم عند اللّه ، ولذلك بالغ فى التوبيخ على ما أقدموا عليه ، مما تأذى به الرسول ، وقلوب آل الصدّيق ، وقلوب المخلصين من المؤمنين. هـ ثم قال تعالى :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٤ الى ١٨]

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)

قلت : (لو لا) هنا : امتناعية بخلاف المتقدمة فإنها تحضيضية ، و(إذ سمعتموه) : معمول لقلتم ، و(إذ تلقونه) :

ظرف لمسّكم.
يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أيها السامعون وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا من فنون النعم ، التي من جملتها : الإمهال والتوبة ، وَفِي الْآخِرَةِ من ضروب الآلاء ، التي من جملتها : العفو

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٠
والمغفرة ، لَمَسَّكُمْ عاجلا فِيما أَفَضْتُمْ أي : بسبب ما خضتم فِيهِ من حديث الإفك عَذابٌ عَظِيمٌ يستحقر دونه التوبيخ والجلد ، يقال أفاض فى الحديث ، وفاض ، واندفع : إذا خاض فيه.
إِذْ تَلَقَّوْنَهُ أي : لمسكم العذاب العظيم وقت تلقيه إياكم من المخترعين له ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه ، بمعنى واحد ، غير أن التلقف : فيه معنى الخطف والأخذ بسرعة ، أي : إذ تأخذونه بِأَلْسِنَتِكُمْ بأن يقول بعضكم لبعض : هل بلغك حديث عائشة ، حتى شاع فيما بينكم وانتشر ، فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه. وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ أي : قولا لا حقيقة له ، وقيّده بالأفواه ، مع أن الكلام لا يكون إلا بالفم لأن الشيء المعلوم يكون فى القلب ، ثم يترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولا يدور فى الأفواه ، من غير ترجمة عن علم به فى القلب. وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً أي : وتظنون أن خوضكم فى عائشة سهل لا تبعة فيه ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ أي : والحال أنه عند اللّه كبير ، لا يقادر قدره فى استجلاب العذاب. جزع بعض الصالحين عند الموت ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أخاف ذنبا لم يكن منى على بال ، وهو عند اللّه عظيم.
وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ من المخترعين والشائعين له قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا ما يمكننا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا ، وما ينبغى أن يصدر عنا ، وتوسيط الظروف بين «لو لا» و«قلتم» إشارة إلى أنه كان الواجب أن يبادروا بإنكار هذا الكلام فى أول وقت سمعوه ، فلما تأخر الإنكار وبّخهم عليه ، فكان ذكر الوقت أهمّ ، فقدّم ، والمعنى : هلّا قلتم إذ سمعتم الإفك : ما يصح لنا أن نتكلم بهذا ، سُبْحانَكَ تنزيها لك ، وهو تعجب من عظم ما فاهوا به.
ومعنى التعجب فى كلمة التسبيح : أن الأصل أن يسبح اللّه عند رؤية العجيب من صنائعه تعالى ، ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه. أو : تنزيها لك أن يكون فى حرم نبيك فاجرة ، هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ لعظمة المبهوت عليه ، واستحالة صدقه ، فإنّ حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها. وقال فيما تقدم : هذا إِفْكٌ مُبِينٌ «١». ويجوز أن يكونوا أمروا بهما معا ، مبالغة فى التبري.
يَعِظُكُمُ اللَّهُ أي : ينصحكم أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أي : كراهة أن تعودوا ، أو يزجركم أن تعودوا لمثل هذا الحديث أو القذف أو الاستماع ، أَبَداً مدة حياتكم ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فإن الإيمان وازع عنه لا محالة.

وفيه تهييج وتقريع وتذكير بما يوجب ترك العود ، وهو الإيمان الصادّ عن كل قبيح.

---

(١) الآية ١٢ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢١

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ الدالة على الشرائع ومحاسن الأدب ، دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا ، أي : ينزلها كذلك ظاهرة مبينة ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ عليم بأحوال مخلوقاته ، حكيم فى جميع تدابيره وأفعاله ، فأنّى يصحّ ما قيل فى حرمة من اصطفاه لرسالته ، وبعثه إلى كافة الخلق ، ليرشدهم إلى الحق ، ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا؟

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الكلام فى الأولياء سم قاتل لأن اللّه ينتصر لأوليائه لا محالة ، فمنهم من ينتصر لهم فى الدنيا بإنزال البلايا والمحن فى بدنه أو ولده أو ماله ، ومنهم من يؤخر عقوبته إلى الآخرة ، وهو أقبح. ومنهم من تكون عقوبته دينية قلبية كقساوة القلب وجمود العين ، وتعويق عن الطاعة ، ووقوع فى ذنب ، أو فترة فى همة ، أو سلب لذاذة خدمة أو معرفة ، وهذه أقبح العقوبة ، والعياذ باللّه.

ثم أوعد من كان يشيع حديث الإفك ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ١٩ الى ٢٠]

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ يريدون أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ أي : تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح ، وهو الرمي بالزنا ، أو نفس الزنا ، والمراد بشيوعها : شيوع خبرها ، أي : يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها. وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستلزمة له لا محالة ، وهم : عبد اللّه بن أبيّ وأصحابه ومن تبعهم. لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا بالحدّ والفضيحة والتكذيب. ولقد ضرب صلى اللّه عليه وسلم الحدّ كل من رمى عائشة. وتقدم الخلاف فى ابن أبى ، فقيل : حدّه ، وقيل : تركه استئلافا له. وَلهم العذاب فى الْآخِرَةِ بالنار وغيرها ، إن لم يتوبوا. وَاللَّهُ يَعْلَمُ جميع الأمور ، التي من جملتها : المحبة المذكورة ، وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ما يعلمه تعالى ، بل إنما يعلمون ما ظهر من الأقوال والأفعال المحسوسة ، فابنوا أمركم على ما تعلمونه ، وعاقبوا فى الدنيا على ما تشاهدونه من الأحوال الظاهرة ، واللّه يتولى السرائر ، فيعاقب فى الآخرة على ما تكنه الصدور.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٢

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ، التكرير لتعظيم المنّة بترك المعاجلة للتنبيه على كمال عظم الجريمة ، وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ عطف على (فضل اللّه) ، أي : لو لا فضله ورأفته لعاجلكم بالعقوبة ، وإظهار اسم الجليل لتربية المهابة ، والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة ، وتصديره بحرف التأكيد لأن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة ، التي هى كمال الرحمة ، وبالرحيمية التي هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من شأن أهل البعد والإنكار : أنهم إذا سمعوا بحدوث نقص أو عيب فى أهل النّسبة وأهل الخصوصية فرحوا ، وأحبوا أن تشيع الفاحشة فيهم قصدا لغض مرتبتهم حسدا وعنادا ، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، ولو لا فضل اللّه ورحمته لعاجلهم بالعقوبة. واللّه تعالى أعلم وأحلم.

ولما نزلت براءة عائشة – رضى اللّه عنها – حلف أبوها لا ينفق على مسطح شيئا غضبا لعائشة ، وكان ينفق عليه لقرابته ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ أي : لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل ، والتي من جملتها : منع الإحسان إلى من أساء إليكم غضبا وحميّة ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ ، وضع الظاهر موضع المضمر ، حيث لم يقل : ومن يتبعها ، أو : ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير ، فَإِنَّهُ أي : الشيطان يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ كالبخل والشح ، وكل ما عظم قبحه ، وَالْمُنْكَرِ كالغضب ، والحمية ، وكل ما ينكره الشرع لأن شأن الشيطان أن يأمر بهما. فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٣

وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ ، ما زَكى مِنْكُمْ أي

: ما طهر من أدناس العيوب ولوث الفواحش مِنْ أَحَدٍ أَبَداً إلى ما لا نهاية له ، وإذا كان التطهير والعصمة بيد اللّه فلا تروا لأنفسكم فضلا عمن لم يعصمه اللّه فإنه مقهور تحت مجارى الأقدار ، وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ يطهر من يشاء من عباده بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه بالحفظ والرعاية ، أو بالتوبة بعد الجناية ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ سميع لأقوالكم وإن خفيت ، ومن جملتها : الحلف على ترك فعل الخير ، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

وهذا الكلام مقدمة لقوله : وَلا يَأْتَلِ ، من قولك : أليت : إذا حلفت ، أي : لا يحلف أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ أي : فى الدين ، وكفى به دليلا على فضل الصّديق رضي اللّه عنه ، وَالسَّعَةِ. أي : والسعة فى المال أَنْ يُؤْتُوا أي :

لا يحلف على ألا يعطوا أُولِي الْقُرْبى وَالْمَساكِينَ وَالْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كمسطح ، فإنه كان ابن خالته ، وكان من فقراء المهاجرين. وهذه الأوصاف هى لموصوف واحد ، جيء بها ، بطريق العطف تنبيها على أن كلّا منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء. وحذف المفعول الثاني لظهوره ، أي : على ألّا يؤتوهم شيئا ، وَلْيَعْفُوا عما فرط منهم وَلْيَصْفَحُوا بالإغضاء عنه ، فالعفو : التستر ، والصفح : الإعراض ، أي : وليتجاوزوا عن الجفاء ، وليعرضوا عن العقوبة.

أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ؟ فلتفعلوا ما تحبون أن يفعل بكم وبهم ، مع كثرة خطاياهم ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مبالغ فى المغفرة والرحمة ، مع كثرة ذنوب العباد ، فتأدبوا بآداب اللّه ، واعفوا ، وارحموا. ولما قرأها النبي صلى اللّه عليه وسلم على أبى بكر رضي اللّه عنه قال : بل أحب أن يغفر اللّه لى. ورد إلى مسطح نفقته ، وقال : واللّه لا أنزعها منه أبدا «١».

وباللّه التوفيق.

الإشارة : كل ما يصد عن مكارم الأخلاق كالحلم ، والصبر ، والعفو ، والكرم ، والإغضاء ، وغير ذلك من الكمالات ، فهو من خطوات الشيطان ، تجب مجانبته ، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر كالغضب ، والانتصار ، والحمية ، والحقد ، والشح ، والبخل ، وغير ذلك من المساوئ ، ولا طريق إلى الدواء من تلك المساوئ إلا بالرجوع إلى اللّه والاضطرار له ، والتعلق بأذيال فضله وكرمه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة النور ، باب لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً ح ٤٧٥٠) وفى مواضع أخرى. وأخرجه مسلم فى (التوبة ، باب فى حديث الإفك ٤/ ٩٢٩ - ٢١٣٦ ، ح ٢٧٧٠) ، كلاهما فى سياق حديث الإفك الطويل.

ولو لا فضل اللّه عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ، فإذا تعلق باللّه ، واضطر إليه اضطرار الظمآن إلى الماء طهّره اللّه وزكاه ، إما بلا سبب ، أو بأن يلقيه إلى شيخ كامل ، يربيه ويهذبه بإذن اللّه ، وهذا هو الكثير ، والكل منه وإليه.

قال الورتجبي قوله تعالى : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ .. إلخ : بيّن أن تطهير العباد من الذنوب لا يكون إلا بفضله السابق وعنايته الأزلية ، كيف يزكى العلل ما يكون عللا ، فالمعلول لا يطهّر ، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف ، ولطف القديم له استحقاق ذهاب العلل بوصوله. قال السياري : قال اللّه : وَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، ولم يقل : لو لا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر اللّه ما نجا منكم أحد ليعلم أن العبادات ، وإن كثرت ، فإنها من نتائج الفضل. هـ.

قال فى الحاشية : وظهر لى أن الآية مقدمة لما ندب إليه الصدّيق بقوله : وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ ، ففيه إشارة إلى أن فضله وزكاته فضل من اللّه عليه ، وعناية سابقة ، وهى سبب حفظه وتحليه بخلع كوامل الأوصاف ، فليشهد ذلك ، ولا يأتل على من لم يجد ذلك ، حتى وقع فيما وقع من القذف ، بل يعذره ، ويرى منّة اللّه عليه فى كونه نزّهه بعنايته من الوقوع فى مثل ذلك ، مع كون المحل قابلا ، ولكن اللّه خصّصه. هـ.

قال الورتجبي على قوله : وَلا يَأْتَلِ .. إلخ : فى الآية بيان وتأديب اللّه للشيوخ والأكابر ألّا يهجروا صاحب العثرات والزلات ، من المريدين ، ويتخلقوا بخلق اللّه ، حيث يغفر الذنوب العظام ولا يبالى ، وأعلمهم ألّا يكفّوا أعطافهم عنهم. ثم قال : فإنّ من له استعداد لا يحتجب بعوارض البشريّة عن أحكام الطّريقة أبدا. هـ.

ثم ذكر وبال القاذفين لعائشة – رضى اللّه عنها – أو لغيرها ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٣ الى ٢٥]

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)

قلت : «يوم تشهد» : ظرف للاستقرار ، فى «لهم» ، أو : معمول لا ذكر.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ يقذفون الْمُحْصَناتِ العفائف مما رمين به من الفاحشة ، الْغافِلاتِ عنها على الإطلاق ، بحيث لم يخطر ببالهن شىء منها ولا من مقدماتها ، أو السليمات

الصدور ، النقيات القلوب ، اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لأنهن لم يجربن الأمور ، الْمُؤْمِناتِ المتصفات بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، إيمانا حقيقيا لا يخالجه شيء مما يكدره. عن ابن عباس : هنّ أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل : جميع المؤمنات إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقيل : أريدت عائشة وحدها ، وإنما جمع لأن من قذف واحدة من أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم فكأنه قذفهنّ.

ثم ذكر الوعيد ، فقال : لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا ، وَلَهُمْ مع ذلك عَذابٌ عَظِيمٌ ، هائل لا يقادر قدره لعظم ما اقترفوه من الجناية ، إن لم يتوبوا ، فيعذبون. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : بما أفكوا وبهتوا يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ أي : يوم تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يوفيهم اللّه جزاءهم الْحَقَّ أي : الثابت الذي يحق أن يثبت لهم لا محالة ، أو الذي هم أهله ، والحق : صفة لدينهم ، أو للّه ، ونصب على المدح. وَيَعْلَمُونَ عند ذلك أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الثابت الواجب الوجود الْمُبِينُ الظاهر البين لارتفاع الشكوك ، وحصول العلم الضروري لارتفاع الغطاء بظهور ما كان وعدا غيبا.

ولم يغلظ اللّه تعالى فى القرآن فى شيء من المعاصي تغليظه فى إفك عائشة – رضى اللّه عنها – فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصّل ، وأجمل ، وأكّد ، وكرّر ، وما ذلك إلا لأمر عظيم.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (من أذنب ذنبا وتاب قبلت توبته ، إلا من خاض فى أمر عائشة – رضى اللّه عنها) «١» ، وهذا منه مبالغةٌ وتعظيم لأمر الإفك ، وقد برّأ اللّه تعالى أربعة برّأ يوسف بشاهد من أهلها ، وموسى عليه السّلام من قول اليهود فيه : أنه آدر ، بالحجر الذي ذهب بثوبه ، ومريم بنطق ولدها ، وعائشة بهذه الآي العظام فى كتابه المعجز ، المتلوّ على وجود الدهر ، بهذه المبالغات. فانظر : كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علوّ منزلة رسوله ، والتنبيه على إنافة محله «٢» صلى اللّه عليه وسلم.

وقد رام بعض النصارى الطّعن على المسلمين بقضية الإفك ، فقال : كيف تبقى زوجة نبيكم مع رجل أجنبى؟

فقال له ، من كان يناظره من العلماء : قد برأها من برأ أمّ نبيكم ، فبهت الذي كفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد مدح اللّه تعالى أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم بثلاثة أوصاف ، هى من أكمل الأوصاف : العفة ، والتغافل ، وتحقيق الإيمان أما العفة : فهى حفظ القلب من دخول الهوى ، والجوارح من معاصى المولى ، وأما التغافل : فهو

---

(١) عزاه الهيثمي فى المجمع (٦/ ٨٠) للطرانى بأسانيد.

(٢) أي : علو مقامه وارتفاعه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٦

الغيبة عما سوى اللّه ، والتغافل عن مساوئ الناس. وفى الحديث : «المؤمن ثلثاه تغافل» ، وقال أيضا صلى اللّه عليه وسلم : «المؤمن غرّ كريم ، والمنافق خبّ لئيم» «١» وأما تحقيق الإيمان فيكون بالتفكر والاعتبار ، وبصحبة الصالحين الأبرار ، ثم يصير الإيمان ضروريا بصحبة العارفين الكبار.

قال القشيري : قوله تعالى : وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ : تصير المعارف ضرورية ، فيجدون المعافاة فى النظر والتذكر ، ويستريح القلب من وصفي تردّده وتغيّره ، باستغنائه ببصره عن تبصره. ويقال : لا يشهدون هذا إلا بالحق ، فهم قائمون بالحق للحق مع الحق ، يبدى لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، فيكون القائم فيهم والآخذ لهم عنهم ، من غير أن يردهم عليهم. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم برهن على نزاهة أهل البيت النبوي بقوله :

[سورة النور (٢٤) : آية ٢٦]

الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : الْخَبِيثاتُ من النساء لِلْخَبِيثِينَ من الرجال ، وَالْخَبِيثُونَ من الرجال لِلْخَبِيثاتِ من النساء. وهذه قاعدة السنة الإلهية ، أن اللّه تعالى يسوق الأهل للأهل ، فمن كان خبيثا فاسقا يزوجه اللّه للخبيثة الفاسقة مثله ، ومن كان طيبا عفيفا رزقه اللّه طيبة مثله. وهو معنى قوله تعالى : وَالطَّيِّباتُ من النساء لِلطَّيِّبِينَ من الرجال وَالطَّيِّبُونَ من الرجال ، لِلطَّيِّباتِ من النساء فهذا هو الغالب.

وحيث كان – عليه الصلاة والسلام – أطيب الأطيبين ، وخيرة الأولين والآخرين ، تبين كون الصديقة – رضى اللّه عنها – من أطيب الطيبات ، واتضح بطلان ما قيل فيها من الخرافات ، حسبما نطق به قوله تعالى : أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ ، على أن الإشارة إلى أهل البيت ، المنتظمين فى سلك الصّدّيقيّة انتظاما أوليا ، وقيل : إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والصدّيقة وصفوان ، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد ، للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل ، أي : أولئك الموصوفون بعلو الشأن : مبرؤون مما يقوله أهله الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة.

وقيل : (الخبيثات) من القول تقال (للخبيثين) من الرجال والنساء ، أي : لائقة بهم ، لا ينبغى أن تقال إلا لهم.

(و الخبيثون) من الفريقين أحقّاء بأن يقال فى حقهم خبائث القول. (و الطيبات) من الكلم (للطيبين) من الفريقين ،

(١) أخرجه الترمذي فى (البر ، باب ما جاء فى البخيل ، ح ١٩٦٥) ، وأبو داود فى (الأدب ، باب فى حسن العشرة ح ٤٧٩٠) ، والبيهقي فى السنن (١٠/ ٩٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، بلفظ : «الفاجر» ، بدل «المنافق».

مختصة بهم ، وهم أحقاء بأن يقال فى شأنهم طيبات الكلم. أُولئِكَ الطيبون مُبَرَّؤُنَ مما يقول الخبيثون فى حقهم. فمآله تنزيه الصديقة أيضا. وقيل : الخبيثات من القول لا تصدر إلا من الخبيثين ، والطيبات من الكلمات لا تصدر إلا من الطيبين ، وهم مبرؤون مما يقوله أهل الخبث ، لا يقع ذلك منهم البتّة ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لما لا يخلو عنه البشر من الذنب ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ هو نعيم الجنان.

دخل ابن عباس رضي اللّه عنه على عائشة – رضى اللّه عنها – فى مرضها ، وهى خائفة من القدوم على اللّه عز وجل ، فقال : لا تخافي ، فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم ، وتلى الآية ، فغشى عليها : فرحا بما تلا.

وقالت رضى اللّه عنها – : (قد أعطيت تسعا ما أعطيتهنّ امرأة : نزل جبريل بصورتى فى راحته ، حين أمر – عليه الصلاة والسلام – أن يتزوجنى ، وتزوجنى بكرا ، وما تزوج بكرا غيرى ، وتوفى – عليه الصلاة والسلام – ورأسه فى حجرى ، وقبره فى بيتي ، وينزل عليه الوحى وأنا فى لحافه ، وأنا ابنة خليفته وصديقه ، ونزل عذرى من السماء ، وخلقت طيبة عند طيب ، ووعدت مغفرة ورزقا كريما) «١».

الإشارة : الأخلاق الخبيثة مثل الكبر ، والعجب ، والرياء ، والسمعة ، والحقد ، والحسد ، وحب الجاه والمال ، للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، فهم متصفون بها ، وهى لازمة لهم ، إلا أن يصحبوا أهل الصفاء والتطهير ، فيتطهرون بإذن اللّه ، والأخلاق الطيبات كالتواضع ، والإخلاص ، وسلامة الصدور ، والزهد ، والورع ، والسخاء ، والكرم ، وغير ذلك من الأخلاق الطيبة ، للطيبين ، والرجال الطيبون للأخلاق الطيبات. أولئك مبرءون مما يقول أهل الإنكار فيهم ، لهم مغفرة ستر لعيوبهم ، ورزق كريم لأرواحهم من قوت اليقين ، وشهود رب العالمين. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان سبب الإفك هو تهمة الخلوة ، أمر بالاستئذان ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٢٧ الى ٢٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا

فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ (٢٩)

---

(١) هذه المناقب ثابتة بأحاديث صحيحة. انظرها فى جامع الأصول لابن الأثير (٩/ ١٣٢ - ١٤٣) والدر المنثور للسيوطى (٥/ ٥٨).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٢٨

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ أي : بيوتا لستم تملكونها ولا تسكنونها ، حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا تستأذنوا ، وقرئ به ، والاستئناس : الاستعلام والاستكشاف ، استفعال ، من أنس الشيء : أبصره ، فإن المستأذن مستعلم للحال ، مستكشف له ، هل يؤذن له أم لا ، ويحصل بذكر اللّه جهرا ، كتسبيحة أو تكبيرة. أو تنحنح ، وَتُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ، بأن يقول : السلام عليكم ، أأدخل؟ ثلاث مرات ، فإذا أذن له ، وإلا رجع ، فإن تلاقيا ، قدّم التسليم ، وإلا ، فالاستئذان. ذلِكُمْ أي : التسليم خَيْرٌ لَكُمْ من أن تدخلوا بغتة ، أو من تحية الجاهلية.

كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول : حييتم صباحا ، حييتم مساء ، فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف. روى أن رجلا قال للنبى صلى اللّه عليه وسلّم : أأستأذن على أمي؟ قال : نعم ، قال : ليس لها خادم غيرى ، أأستاذن عليها كلما دخلت؟ قال صلى اللّه عليه وسلّم : «أتحبّ أن تراها عريانة ..؟» «١». لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي : أمرتكم به ، أو :

قيل لكم هذا لكى تتعظوا وتعملوا بموجبه.

فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها فى البيوت أَحَداً ممن يستحق الإذن ، من الرجال البالغين ، وأما النساء والولدان فوجودهم وعدمهم سواء «٢» ، فَلا تَدْخُلُوها ، على أن مدلول الآية هو النهى عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه ، وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فمن باب الأولى لما فيه من الاطلاع على الحريم وعورات النساء. فإن لم يؤذن لكم فلا تدخلوا ، واصبروا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ من جهة من يملك الإذن ، أو : فإن لم تجدوا فيها أحدا من أهلها ، ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها لأن التصرف فى ملك الغير لا بد أن يكون برضاه.

وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا أي : إذا كان فيها قوم ، وقالوا : ارجعوا فَارْجِعُوا ولا تلحّوا فى طلب الإذن ، ولا تقفوا بالأبواب ، ولا تخرقوا الحجاب لأن هذا مما يوجب الكراهية والعداوة ، وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى

(١) الحديث أخرجه مالك فى الموطأ (الاستئذان ، باب الاستئذان) ، وأبو داود فى مراسيله (باب الاستئذان) وابن جرير فى التفسير (١٨/ ١١١) ، عن عطاء بن يسار ، مرسلا وأخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (النكاح ٤/ ٣٩٨) ، عن زيد بن أسلم مرسلا ، أيضا.

(٢) هذا الرأى ، غير مسلم به ، فالنساء ، قطعا ، يدخلن تحت مفهوم «أحد» ، وكذلك الولدان المميزون ، فكيف نقول : وجودهم وعدمهم سواء؟ ثم إنه من الثابت فى السنة الصحيحة أنه يجوز الدخول على المغيبة [أي : التي زوجها غائب فى سفر أو غزو ، أو نحو ذلك ،] فيجوز الدخول عليها بشرط وجود رجلين أو ثلاثة فما أكثر ، والدخول يحتاج إلى استئناس واستئذان .. إلخ. فدّل هذا على أن كلام المفسر ، هو رأى خاص به ، وليس حكما شرعيا. [.....]

الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما أدى إليها من قرع الباب بعنف ، والتصييح بصاحب الدار ، وغير ذلك. وعن أبى عبيد : «ما قرعت بابا على عالم قط». فالرجوع هُوَ أَزْكى لَكُمْ أي : أطيب لكم وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة ، والوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والرذالة. وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما كلفتموه ، فيجازيكم عليه. وهو وعيد للمخاطبين.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فى أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ أي : غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة ، بل يتمتع بها من يضطر إليها ، من غير أن يتخذها مسكنا كالرّبط ، والخانات ، والحمامات ، وحوانيت التجار. فِيها مَتاعٌ لَكُمْ أي : منفعة كاستكنان من الحر والبرد ، وإيواء الرجال والسلع ، والشراء والبيع ، والاغتسال ، وغير ذلك ، فلا بأس بدخولها بغير استئذان. روى أن أبا بكر رضي اللّه عنه قال : يا رسول اللّه ، إن اللّه قد أنزل عليك آية فى الاستئذان ، وإنا لنختلف فى تجارتنا إلى هذه الخانات ، فلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت «١». وقيل : هى الخرابات ، يتبرّز فيها ، ويقضون فيها حاجتهم من البول وغيره ، والظاهر : أنها من جملة ما ينتظم فى البيوت ، لا أنها المرادة فقط. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما تَكْتُمُونَ ، وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : التصوف كله آداب ، حتى قال بعضهم : اجعل عملك ملحا وأدبك دقيقا. فيتأدبون بالسنّة فى حركاتهم وسكناتهم ، ودخولهم وخروجهم ، فهم أولى بالأدب ، فيستأذنون كما أمر اللّه عند دخول منزلهم برفع صوتهم بذكر اللّه ، أو بالتسبيح ، أو بالسلام قبل الدخول. وكذا عند دخول منزل غيرهم ، أو منزل بعضهم بعضا. وأما مع الشيخ : فالأدب هو الصبر حتى يخرج ، تأدبا بقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّهُمْ

صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ «٢» ، فلا يقرعون بابه ، ولا يطلبون خروجه إلا لضرورة فادحة.

ولمّا كان الاستئذان إنما شرع من أجل النظر ، أمر بغض البصر ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٠]

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ (٣٠)

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول ، (ص ٣٣٤) ، ونسبه للمفسرين. وعزاه الآلوسى فى تفسيره (٩/ ١٣٧) لابن أبى حاتم عن مقاتل.

(٢) الآية ٥ من سورة الحجرات.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٠

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجا أوليّا ، أي : قل لهم : يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ ، و«من» : للتبعيض ، والمراد : غض البصر عما يحرم ، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة ، إلا خوف الفتنة ، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفى الموطأ : هل تأكل المرأة مع غير ذى محرم ، أو مع غلامها؟ قال مالك : لا بأس بذلك ، على وجه ما يعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال ، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان : فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبى ، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا ، وقد أبقاه الباجى على ظاهره ، وقال عياض : ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها ، وإنما ذلك استحباب أو سنّة لها ، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال فى الإكمال : ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم. هـ.

وَقل لهم أيضا : يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت إيمانهم ، وتقييد الغض بمن التبعيضية ، دون حفظ الفروج لما فى النظر من السّعة ، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها ، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت : ومذهب مالك : حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرم ، فإن تعذر التحرر منه ، كشغل البنات فى الدار ، باديات الأرجل ، فليتمسك بقول الحنفي ، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوى.

ذلِكَ أَزْكى لَهُمْ أي : أطهر لهم من دنس الإثم أو الريبة ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما يَصْنَعُونَ ، وفيه ترغيب

وترهيب ، يعنى : أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم ، فكيف يجيلون أبصارهم ، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور؟! فعليهم ، إذا عرفوا ذلك ، أن يكونوا منه على حذر.

(٣٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣١

[سورة النور (٢٤) : آية ٣١]

وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ بالتستر والتصون عن الزنا ، فلا تنظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء ، وهى من الرجل : ما عدا الوجه والأطراف ، ومن النساء : ما بين السرة والركبة ، فلا يحل للمرأة أن تنظر الى الرجل ما سوى الوجه والأطراف ، أو بشهوة. وقيل : إن حصل الأمن من الشهوة جاز ، وعليه يحمل نظر عائشة إلى الحبشة.

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ من الزنا والمساحقة. وإنما قدّم غض البصر على حفظ الفروج لأن النظر بريد الزنا ، ورائد الفجور ، فبذر الهوى طموح العين. وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ كالحلي ، والكحل ، والخضاب ، والمراد بالزينة : مواضعها ، فلا يحل للمرأة أن تظهر مواضع الزينة ، كانت متحلّيه بها أم لا ، وهي : الرأس ، والأذن ، والعنق ، والصدر ، والعضدان ، والذراع ، والساق. والزينة هى : الإكليل ، والقرط ، والقلادة ، والوشاح ، والدملج ، والسوار ، والخلخال. إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها إلا ما جرت العادة بإظهارها ، وهو الوجه والكفان ، إلا لخوف الفتنة ، زاد أبو حنيفة : والقدمين ، ففى ستر هذه حرج فإن المرأة لا تجد بدّا من مزاولة الأشياء بيديها ، ومن الحاجة إلى كشف وجهها ، خصوصا فى الشهادة والمحاكمة والنكاح ، وتضطر إلى المشي فى الطرقات ، وظهور قدميها ، ولا سيما الفقيرات منهن. قاله النسفي.

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ أي : وليضعن خمرهنّ ، جمع خمار ، وهو ما يستر الرأس ، عَلى جُيُوبِهِنَّ ، وهو شقّ القميص من ناحية الصدر ، وكانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهنّ من خلفهنّ ، فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن ، وكانت واسعة ، يبدو منها صدورهن وما حواليها ، فأمرن بإسدال خمرهن على جيوبهن سترا لما يبدو منها. وقد ضمّن الضّرب معنى الإلقاء والوضع ، فعدّى بعلى.

وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ أي : مواضع الزينة الباطنة كالصدر ، والرأس ، ونحوهما ، كرره : ليستثنى منه ما رخص فيه ، وهو قوله : إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ لأزواجهن ، فإنهم المقصودون بالزينة. ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، أَوْ آبائِهِنَّ ، ويدخل فيهم الأجداد ، أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ فقد صاروا محارم ، أَوْ أَبْنائِهِنَّ ، ويدخل فيهم الأحفاد ، أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ لأنهم صاروا محارم أيضا ، أَوْ إِخْوانِهِنَّ الشقائق ،

(٣١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٢

أو لأب ، أو لأم ، أَوْ بَنِي إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَواتِهِنَّ وإن سفلوا ، ويدخل سائر المحارم ، كالأعمام ، والأخوال ، وغيرهم لكثرة المخالطة وقلة توقع الفتنة من قبلهم ، فإن تحققت حيل بينهم ، وعدم ذكر الأعمام والأخوال ، لأن الأحوط أن يسترن عنهم حذرا من أن يصفوهنّ لأبنائهم ، أَوْ نِسائِهِنَّ يعنى جميع المؤمنات فكأنه قال : أو صنفهن ويخرج من ذلك نساء الكفار لئلا يصفنهنّ إلى الرجال ، أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ ، يعنى : الإماء المؤمنات أو الكتابيات ، وأما العبيد ففيهم ثلاثة أقوال : منع رؤيتهم لسيدتهم ، وهو قول الشافعي ، والجواز ، وهو قول ابن عباس وعائشة ، والجواز بشرط أن يكون العبد وغدا «١» ، وهو قول مالك.

قال البيضاوي : روى أنه – عليه الصلاة والسلام – أتى فاطمة بعبد ، وهبه لها ، وعليها ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها ، فقال – عليه الصلاة والسلام : «إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك» ، فانظر من أخرجه «٢». واختلف : هل يجوز أن يراها عبد زوجها ، وعبد الأجنبى ، أم لا؟

على قولين.

أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أي : الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ، أو لخدمة ، أو لشيء يعطاه ، كالوكيل والمتصرف. وقال بعضهم : هو الذي يتبعك وهمّه بطنه ، ويشترط ألا تكون له إربة ، أي :

حاجة وشهوة إلى النساء كالخصيّ ، والمخنّث ، والشيخ الهرم ، والأحمق ، فلا تجوز رؤيتهم إلا باجتماع الشرطين :

أن يكونوا تابعين ، ولا إربة لهم فى النساء. أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ ، أراد بالطفل :

الجنس ، ولذلك وصفه بالجمع ، ويقال فيه : «طفل» ما لم يراهق الحلم. و(يظهروا) معناه : يطلعون بالوطء على عورات النساء من : ظهر على كذا : إذا قوى عليه ، فمعناه : الذين لم يطيقوا وطء النساء

، أو : لا يدرون ما عورات النساء؟

وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ، كانت المرأة تضرب برجلها الأرض ليسمع قعقعة خلخالها ، فيعلم أنها ذات خلخال ، فنهين عن ذلك إذ سماع صوت الزينة كإظهارها ، فيورث ميل الرجال إليهن.

ويوهم أن لهن ميلا إليهم. قال الزجاج : سماع صوت الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها. هـ.

---

(١) الوغد : الصبي. وخادم القوم ، والجمع : أوغاد ، ووغدان ، ووغدان .. انظر اللسان (وغد).

(٢) أخرجه أبو داود فى (اللباس ، باب فى العبد ينظر إلى شعر مولاته ، ح ٤١٠٦) ، والبيهقي (٧/ ٩٥) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٣

الإشارة : غض البصر عما تكره رؤيته : من أسباب جمع القلب على اللّه وتربية الإيمان. وفى الحديث : «من غض بصره عن محارم اللّه ، عوضه اللّه إيمانا يجد حلاوته فى قلبه» «١». وفى إرسال البصر : من تشتيت القلب ، وتفريق الهم ، ما لا يخفى ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وإنّك ، إن أرسلت طرفك رائدا لقلبك ، يوما ، أتعبتك المناظر

ترى ، ما لا كلّه أنت قادر عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

فالعباد والزهاد يغضون بصرهم عن بهجة الدنيا ، والعارفون يغضون بصرهم عن رؤية السّوى ، فلا يرون إلا تجليات المولى. قال الشبلي : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أي : أبصار الرؤوس عن المحارم ، وأبصار القلوب عما سوى اللّه. هـ.

وقوله تعالى : وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها ، قال بعضهم : لا يجوز كل ما يستدعى فتنة للغير من إظهار حال مع اللّه ، مما هو زينة السريرة ، فلا يظهر شيئا من ذلك إلا لأهله ، إلا إذا ظهر عليه شيء من غير إظهار منه ، ولا قصد غير صالح. هـ. فلا يجوز إظهار العلوم التي يفتتن بها الناس من حقائق أسرار التوحيد ، ولا من الأحوال التي تنكرها الشريعة ، فيوقع النّاس فى غيبته. وأما قضيّة لصّ الحمّام «٢» فحال غالبة لا يقتدى بها. واللّه تعالى أعلم.

ثم أمر بالتوبة لأن النظر لا يسلم منه أحد فى الغالب ، فقال :

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ ...

يقول الحق جل جلاله : وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط ، ولا

سيما فى الكف عن الشهوات ، وقيل : توبوا مما كنتم تفعلونه فى الجاهلية ، فإنه ، وإن جبّ بالإسلام ، لكن يجب الندم عليه ، والعزم على الكف عنه ، كلما يتذكّر ، ويخطر بالبال. وفى تكرير الخطاب بقوله : أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ :

تأكيد للإيجاب ، وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال ، حتما. قيل : أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس

---

(١) ورد «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث اللّه له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه» أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤) عن أبى أمامة رضي اللّه عنه.

وأخرج الحاكم (٤/ ٣١٤) عن ابن مسعود مرفوعا : «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه».

(٢) راجع قصة لص الحمّام عند التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. (١/ ٣٠١)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٤

له حاجة إلى التوبة. وظاهر الآية : أن العصيان لا ينافى الإيمان ، فبادروا بالتوبة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفوزون بسعادة الدارين. وباللّه التوفيق.

الإشارة : التوبة أساس الطريق ، ومنها السير إلى عين التحقيق ، فمن لا توبة له لا سير له ، كمن يبنى على غير أساس. والتوبة يحتاج إليها المبتدئ والمتوسط والمنتهى ، فتوبة المبتدئ من المعاصي والذنوب ، وتوبة السائر :

من الغفلة ولوث العيوب ، وتوبة المنتهى : من النظر إلى سوى علام الغيوب.

قال ابن جزي : التوبة واجبة على كل مكلف ، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة. وفرائضها ثلاثة : الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال ، لا من حيث أضر ببدن أو مال. والإقلاع عن الذنب فى أول أوقات الإمكان ، من غير تأخير ولا توان ، والعزم ألا يعود إليها أبدا. ومهما قضى اللّه عليه بالعود ، أحدث عزما مجدّدا.

وآدابها ثلاث : الاعتراف بالذنب ، مقرونا بالانكسار ، والإكثار من التضرع والاستغفار ، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من الأوزار. ومراتبها سبع : فتوبة الكفار من الكفر ، وتوبة المخلّطين من الذنوب الكبائر ، وتوبة العدول من الصغائر ، وتوبة العابدين من الفترات ، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات ، وتوبة أهل الورع من الشبهات ، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على

التوبة سبعة : خوف العقاب ، ورجاء الثواب ، والخجل من الحساب ، ومحبة الحبيب ، ومراقبة الرقيب ، وتعظيم المقام ، وشكر الإنعام. هـ.

ثم أمر بالنكاح لأنه أغض للبصر ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٢]

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢)

قلت : الأيامى : جمع أيّم ، وأصله : أيايم ، فقلبت الياء لآخر الكلمة ، ثم قبلت ألفا ، فصارت أيامى. والأيم : من لا زوج له من الرجال والنساء.

يقول الحق جل جلاله : وَأَنْكِحُوا أي : زوّجوا الْأَيامى مِنْكُمْ أي : من لا زوج له من الرجال والنساء ، بكرا كان أو ثيبا. والمعنى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر. والخطاب للأولياء والحكام ، أمرهم بتزويج الأيامى ، فاقتضى ذلك النهى عن عضلهن. وفى الآية دليل عدم استقلال المرأة بالنكاح ، واشتراط الولي فيه ، وهو مذهب مالك والشافعي ، خلافا لأبى حنيفة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٥

وَالصَّالِحِينَ أي : الخيّرين ، أو : من يصلح للتزوج ، مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ أي : من غلمانكم وجواريكم ، والأمر : للندب إذ النكاح مندوب إليه ، والمخاطبون : ساداتهم. ومذهب الشافعي : أن السيد يجبر على تزويج عبيده ، لهذه الآية ، خلافا لمالك ، ومذهب مالك : أن السيد يجبر عبده على النكاح ، خلافا للشافعى. واعتبار الصلاح فى الأرقّاء لأن من لا صلاح له بمعزل من أن يكون خليقا بأن يعتنى مولاه بشأنه ، وأيضا : فالتزويج يحفظ عليه صلاحه الحاصل ، وأما عدم اعتبار الصلاح فى الأحرار والحرائر لأن الغالب فيهم الصلاح ، على أنهم مستبدون بالتصرف فى أنفسهم وأموالهم ، فإذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الأولياء لهم.

وقيل : المراد بالصلاح : صلاحهم للتزوج ، والقيام بحقوقهم ، فإن ضعفوا لم يزوّجوا. ونفقة العبد على سيده إن زوّجه ، أو أذن له ، وإلا خيّر فيه.

ثم قال تعالى : إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ من المال يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ بالكفاية والقناعة ، أو باجتماع الرزقين. وفى الحديث : «التمسوا الرزق بالنكاح» «١» ، وقال ابن عجلان : إن رجلا أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فشكا إليه الحاجة ، فقال : «عليك بالباءة» ، أي : التزوج. وكذلك قال أبو بكر وعمر وعثمان لمن شكى إليهم العيلة ، متمسكين بقوله تعالى : إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

، فبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة والمصلحة. فالغنى ، للمتزوج ، مقيد بالمشيئة ، فلا يلزم الخلف بوجود من لم يستغن مع التزوج ، وقيل : مقيد بحسن القصد ، وهو مغيب. واللّه تعالى أعلم.

الترغيب فى النكاح : قال صلى اللّه عليه وسلم : «تناكحوا تكثروا ، فإنى أباهى بكم الأمم حتى بالسقط» «٢». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من أحب فطرتى فليستن بسنتى ، وهى النكاح ، فإن الرجل يرفع بدعاء ولده من بعده» «٣» ، وقال سمرة رضي اللّه عنه : (نهى النبي صلى اللّه عليه وسلم عن التبتل). وقال – عليه الصلاة والسلام : «من كان له ما يتزوج به ، فلم يتزوج ، فليس منا» «٤» وقال عليه الصلاة والسلام : «من أدرك له ولد ، وعنده ما يزوجه به ، فلم يزوجه ، فأحدث ، فالإثم بينهما». وقال

---

(١) أخرجه الديلمي (الفردوس ح ٢٨٢) من حديث ابن عباس ، وعزاه المناوى فى الفتح السماوي (٢/ ٨٧) للثعلبى ، بسند فيه لين.

وانظر كشف الخفاء (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبى هلال ، مرسلا ، وانظر كشف الخفاء (١/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه – دون العبارة الأخيرة – البيهقي فى الكبرى (٧/ ٧٨) وعبد الرزاق فى المصنف (٦/ ١٦٩) وسعيد بن منصور فى السنن (١/ ١٣٨) عن عبيد بن سعد.

(٤) أخرجه البيهقي فى الشعب (٥٤٨١ – ٥٤٨٢) ، عن أبى نجيح مرسلا. بلفظ : «من كان موسرا لأن ينكح ، ثم لم ينكح ، فليس منى».

أبو هريرة : لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت اللّه بزوجة ، سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «شراركم عزّابكم ، إذا تزوج أحدكم عجّ شيطانه : يا ويله عصم ابن آدم ثلثى دينه». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «مسكين ، مسكين ، رجل ليست له امرأة ، ومسكينة ، مسكينة امرأة ليست لها زوج ، قالوا : يا رسول اللّه! وإن كانت غنية من المال؟ قال : وإن».

وقال أبو أمامة : (أربعة لعنهم اللّه من فوق عرشه ، وأمّنت عليهم ملائكته : الذي يحصر نفسه عن النساء ، فلا يتزوج ولا يسترى لئلا يولد له ، والرجل يتشبه بالنساء ، والمرأة تتشبه بالرجال ، وقد خلقها

اللّه أنثى ، ومضلل المساكين). وقال سهل بن عبد اللّه : لا يصح الزهد فى النساء لأنهن قد حببن إلى سيد الزاهدين. ووافقه ابن عيينة ، فقال : ليس فى كثرة النساء دنيا لأن أزهد الصحابة كان عليّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه ، وكان له أربع نسوة وبضّع عشرة سرّيّة. هـ. من القوت.

وقال عطية بن بسر المازني : أتى عكاف بن وداعة الهلالي النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، فقال له : «يا عكاف ألك زوجة؟

قال : لا ، يا رسول اللّه ، ولا أمة؟ قال : لا. قال : وأنت صحيح موسر؟ قال : نعم ، والحمد لله. قال : فإنك ، إذا من إخوان الشياطين ، إما أن تكون من رهبان النصارى ، وإما أن تكون مؤمنا ، فاصنع ما بدا لك. فإن من سنتنا النكاح ، شراركم عزابكم ، وأرذال موتاكم عزابكم ، ما للشيطان ، فى سلاح ، أبلغ من محتمل العزبة ، ألا إن المتزوجين هم المطهرون المبرءون من الخنا» «١». انظر الثعلبي.

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٣٤)

قال تعالى : وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً أي : ليجتهد فى العفة عن الزنا وقمع الشهوة من لم يجواد الاستطاعة على النكاح من المهر والنفقة ، حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ حتى يقدرهم اللّه على المهر والنفقة ، قال عليه الصلاة والسلام : «يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغضّ للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» «٢» ، فانظر كيف رتّب الحق تعالى هذه الأمور أمر ،

---

(١) أخرجه مطولا أحمد فى المسند (٥/ ١٦٣ - ١٦٤) وعبد الرزاق فى المصنف (٦/ ١٧٢ ، ح ١٠٣٨٧) والطبراني فى الكبير (١٨/ ٨٥ ح ١٨٥).

(٢) أخرجه البخاري فى (النكاح ، باب قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : من استطاع الباءة فليتزوج ح ٥٠٦٥) ، ومسلم فى (النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ٢/ ١٠١٨ ، ح ١٤٠٠) ، عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

أولا ، بما يعصم من الفتنة ، ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض البصر ، ثم بالنكاح المحصّن للدين ، المغني عن الحرام ، ثم بعزف النفس الأمارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة ، عند العجز عن النكاح ، إلى أن يقدر عليه.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : الأرواح والقلوب والنفوس لا يظهر نتاجها حتى ينعقد النكاح بينها وبين شيخ كامل ، فإذا انعقدت الصحبة بينها وبين الشيخ ، قذف نطفة المعرفة فى الروح أو القلب أو النفس ، ثم يربيها فى مشيمة الهمّة ، ثم فى حضانة الحفظ والرعاية ، فيظهر منها نتاج اليقين والعلوم والأسرار والمعارف ، وأما إن بقيت أيامى لازوج لها ، فلا مطمع فى نتاجها ، قال تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ ، وهى الأرواح ، والصالحين من قلوبكم ، ونفوسكم ، إن يكونوا فقراء من اليقين ، والمعرفة باللّه ، يغنهم اللّه من فضله بمعرفته ، واللّه واسع عليم ، وليتعفف ، عن المناكر ، الذين لا يجدون من يأخذ بيدهم ، حتى يغنيهم اللّه من فضله بالسقوط على شيخ كامل فإنه من فضل اللّه ومنته ، لا يسقط عليه إلا من اضطرّ إليه ، وصدق الطلب فى الوصول إليه. وباللّه التوفيق.

ولما أمر بتزوج العبيد ، أمر بمكاتبتهم ، فقال :

... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ ...

قلت : الكتاب هنا : مصدر ، بمعنى الكتابة. وهى : مقاطعة العبد على مال منجّم ، فإذا أداه خرج حرا ، وإن عجز ، ولو عن نصف درهم ، بقي رقيقا.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ أي : والمماليك الذين يطلبون الكتابة مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من عبيدكم فَكاتِبُوهُمْ ، والأمر للندب ، عند مالك والجمهور ، وقال الظاهرية وغيرهم : على الوجوب ، وهو ظاهر قول عمر رضي اللّه عنه لأنس بن مالك ، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة ، فأبى عليه أنس ، فقال له عمر : لتكاتبنه ، أو لأوجعنّك بالدّرّة «١». وإنما حمله مالك على الندب لأن الكتابة كالبيع ، فكما لا يجبر على البيع لا يجبر عليها.

---

(١) أخرجه عبد الرزّاق فى المصنف (٨/ ٣٧٢ ح ١٥٥٧٨) ، والطبري (١٨/ ١٢٦).

واختلف : هل يجبر السيد عبده عليها ، أم لا؟ قولان في المذهب. ونزلت الآية بسبب حويطب بن عبد العزّى ، سأل مولاه أن يكاتبه ، فأبى عليه «١». وحكمها عام ، فأمر اللّه سادات العبيد أن يكاتبوهم إذا طلبوا الكتابة. والكتابة :

أن يقول لمملوكه : كاتبتك على كذا ، فإن أدى ذلك عتق ، ومعناه : كتبت لك على نفسى أن تعتق مني إذا وفّيت المال ، وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك. وتجوز حالّة ، وتسمى : القطاعة ، ومنجّمة وغير منجّمة.

وقوله تعالى : إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ، أي : قدرة على الكسب ، وأمانة وديانة ، والنّدبية متعلقة بهذا الشرط ، فالخير هنا : القوة على الأداء بأي وجه كان ، وقيل : هو المال الذي يؤدي منه كتابته ، من غير أن يسأل أموال الناس ، وقيل : الصلاح في الدين.

وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ ، هذا أمر بإعانة المكاتب على كتابته ، واختلف : من المخاطب بذلك؟

فقيل : هو خطاب للناس أجمعين ، وقيل : للولاة ، والأمر على هذين القولين للندب ، وقيل : للسادات المكاتبين ، وهو على هذا القول ، ندب عند مالك ، ووجوب عند الشافعي. فإن كان الأمر للناس ، فالمعنى : أن يعطوهم صدقة من أموالهم ، وإن كان للولاة : فيعطوهم من الزكوات أو من بيت المال ، وإن كان للسادات فيحطّوا عنهم من كتابتهم ، وقيل : يعطوهم من أموالهم ، من غير الكتابة ، وعلي القول بالحط من الكتابة اختلف في مقدار ما يحطّ ، فقيل :

الربع ، وروي ذلك عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وقيل : الثلث ، وقال مالك : لا حد في ذلك ، بل أقل ما يطلق عليه شيء ، إلا أن الشافعي يجبره علي ذلك ، ولا بجيره مالك. وزمان الحط عنه في آخر الكتابة عند مالك ، وقيل : في أول نجم.

قاله ابن جزى.

الإشارة : العبيد على أربعة أقسام : عبد قن مقتنى للخدمة ، وعبد مأذون له فى التجارة ، وعبد مكاتب ، وعبد آبق. فمثال الأول ، وهو العبد القن : أهل الخدمة ، وهم العباد والزهاد ، أقامهم الحق تعالى لخدمته ، وقوّاهم على دوام معاملته ، أهل الصيام والقيام ، وأهل السياحة والهيام. ومثال الثاني ، وهو المأذون له : العارفون بالله ، يتصرفون فى ملك سيدهم بالله ، خلفاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، يحكمون بحكم اللّه ، ويأخذون من اللّه ويدفعون إلى اللّه ، يأخذون النصيب من كل شيء ، ولا يؤخذ من نصيبهم شيء ، قد سخّر لهم كل شيء ، ولم يسخّروا لشيء ، سلّطوا على كل شيء ، ولم

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٨١) لابن السكن فى معرفة الصحابة ، عن عبد اللّه بن صبيح ، عن أبيه. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٣٩

يسلّط عليهم شيء ، يخالطون الناس بجسمهم ، ويباينونهم بسرهم ، فالدنيا سوق تجارتهم ، والمعرفة رأس بضاعتهم ، والعدل فى الغضب والرضا ميزانهم ، والقصد فى الفقر والغنى عنوانهم ، والعلم باللّه مفزعهم ومنجاهم ، والقرآن كتاب الإذن من مولاهم ، والفهم عن اللّه مرجعهم ومأواهم.

ومثال الثالث ، وهو المكاتب : الصالحون من المؤمنين يعملون على فك رقبتهم من النار ، فإذا أدوا ما فرض عليهم حررهم بعد موتهم ، وأسكنهم فسيح جناته. ومثال الآبق : هم العصاة والفجار ، استمروا على عصيانهم ، حتى قدموا على الملك الجبار ، فهم تحت حكم المشيئة ، إن شاء عفا عنهم ، وإن شاء عاقبهم. واللّه تعالى أعلم.

ولما أمر بتزويج الإماء نهى عن إكراههن على الزنا ، فقال :

وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ أي : إماءكم ، يقال للعبد : فتى ، وللأمة : فتاة. والجمع : فتيات ، عَلَى الْبِغاءِ أي : الزنا ، وهو خاص بزنا النساء. كان لابن أبىّ ست جوار : معاذة ، ومسيكة ، وأميمة ، وعمرة ، وأروى ، وقتيلة ، وكان يكرههن ، ويضرب عليهن الضرائب لذلك ، فشكت ثنتان منهن إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت الآية «١».

وقوله تعالى : إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً أي : تعففا ، ليس قيدا فى النهي عن الإكراه ، بل جرى على سبب النزول ، فالإكراه : إنما يتصوّر مع إرادة التّحصّن لأن المطيعة لا تسمى مكرهة ، ثم خصوص السبب لا يوجب تخصيص الحكم على صورة السبب ، فلا يختص النهى عن الإكراه بإرادة التعفف ، وكذلك الأمر بالزنا ، والإذن فيه لا يباح ولا يجوز شيء من ذلك للسيد ، وما يقبض من تلك الناحية سحت وربا. وفيه توبيخ للموالى لأن الإماء إذا رغبن فى التحصن فأنتم أولى بذلك ، ثم علل الإكراه بقوله : لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا أي : لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن ، جيء به تشنيعا لهم على ما هم عليه من أحمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير ، أي :

لا تفعلوا ذلك لطلب المتاع السريع الزوال ، الوشيك الاضمحلال.

---

(١) عزاه المناوى ، فى الفتح السماوي (٢/ ٨٧٤) للثعلبى عن مقاتل ، وأخرج مسلم فى (التفسير ، باب فى قول اللّه تعالى : وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ ٣٠٢٩) عن جابر ، قال : إن جارية لعبد اللّه بن أبى ، يقال لها : «مسيكة» ، وأخرى يقال لها : «أميمة» فكان :

يكرههما على الزنا ، فشكتا إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه : لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ).

(٣٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٠

وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ على ما ذكر من البغاء ، فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ لهن رَحِيمٌ بهن ، وفى مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول : لهن واللّه. وقيل : للسيد إذا تاب. واحتياجهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم : إما باعتبار أنهن – وإن كن مكرهات – لا يخلون فى تضاعيف الزنا من شائبة مطاوعة ما ، بحكم الجبلّة البشرية ، وإما لغاية تهويل أمر الزنا ، وحث المكرهات على التثبت فى التجافي عنه ، والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كنّ عرضة للعقوبة ، لو لا أن تداركهن المغفرة ، الرحمة ، مع قيام العذر فى حقهن ، فما بالك بحال من يكرههن فى استحقاق العقاب؟

وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ موضّحات ، أو : واضحات المعنى ، والمراد : الآيات التي بينت فى هذه السورة ، وأوضحت معانى الأحكام والحدود. وهو كلام مستأنف جيء به فى تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة لبيان جلالة شأنها ، المقتضى للإقبال الكلى على العمل بمضمونها. وصدر بالقسم الذي تعرب عنه اللام لإبراز كمال العناية بشأنها. أي : واللّه ، لقد أنزلنا إليكم ، فى هذه السورة الكريمة ، آيات مبينات لكل ما لكم حاجة إلى بيانه من الحدود وسائر الأحكام ، وإسناد البيان إليها : مجازى ، أو : آيات واضحات تصدقها الكتب القدسية والعقول السليمة ، على أن «مبيّنات» من بيّن ، بمعنى تبين ، كقولهم فى المثل : «قد بيّن الصبح لذى عينين» أي :

تبين. ومن قرأها بالبناء للمفعول ، فمعناه : قد بيّن اللّه فيها الأحكام والحدود. وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ أي : وأنزلنا مثلا من أمثال من قبلكم ، من القصص العجيبة ، والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة ، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء والحكماء ، فتنتظم قصة عائشة – رضي اللّه عنها – المحاكية لقصة يوسف عليه السّلام وقصة مريم ، وسائر الأمثال الواردة فى السورة الكريمة ، انتظاما واضحا.

وتخصيص الآيات البينات بالسوابق ، وحمل المثل على قصة عائشة المحاكية لقصة يوسف ومريم ، يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات.

وَأنزلنا مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ يتعظون بها ، وينزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يخل بمحاسن الآداب ، والمراد : ما وعظ به من الآيات والمثل ، مثل قوله : وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ «١» ، ولَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ .. «٢» إلخ ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ «٣».

وتخصيص المتقين لأنهم المنتفعون بها ، المغتنمون لآثارها ، المقتبسون لأنوارها ، ومدار العطف هو التّغاير العنواني المنزّل منزلة التغاير الذاتي. وقد خصّت الآيات بما بيّن الأحكام والحدود ، والموعظة بما وعظ به من

---

(١) الآية : ٢ من سورة النور.

(٢) الآية : ١٢ من سورة النور.

(٣) الآية : ١٧ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤١

قوله : (و لا تأخذكم ..) إلى آخر ما تقدم. وقيل : المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة : جميع ما فى القرآن المجيد من الأمثال والمواعظ. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من أمر بالمعصية ودلّ عليها ، أو رضى فعلها ، فهو شريك الفاعل فى الوزر ، أو أعظم. وكل من أمر بالطاعة ودلّ عليها فهو شريك الفاعل فى الثواب ، أو أعظم. وفى الأثر : «الدّالّ على الخير كفاعله» «١».

قال القشيري : حامل العاصي على زلّته ، والداعي له إلى عثرته ، والمعين له على مخالفته ، تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوزر أكثر من غيره ، وعكسه لو كان الأمر فى الطاعة والإعانة على العبادة. هـ.

ومن هذا القبيل :

تعليم العلم لمن تحقق أنه يطلب به رئاسة أو جاها ، أو توصّلا إلى الدنيا المذمومة ، أو علم منه قصدا فاسدا ، فإن تحقق ذلك وعلمه ، فهو معين له على المعصية ، كمن يعطى سيفا لمن يقطع به الطريق على المسلمين. واللّه تعالى أعلم.

ثم إن أنوار الشريعة ، وهى أحكام المعاملة الظاهرة ، تهدى إلى أنوار الطريقة ، وهى أحكام المعاملة الباطنة ، وأنوار الطريقة تهدى إلى أنوار الحقيقة ، وأنوار الحقيقة تصيّر الكون كلّه نورا ، كما قال تعالى :

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٥]

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : منور أهلهما [بنور الإسلام والإيمان لأهل الإيمان] «٢» ، وبنور الإحسان لأهل الإحسان ، فحقيقة النور : هو الذي تنكشف به الأشياء على ما هى عليه ، حسية أو معنوية ، والمراد هنا : المعنوية بدليل قوله : يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ، فإن انكشف به أحكام العبودية ، باعتبار المعاملة الظاهرة ، يسمّى : نور الإسلام ، وإن انكشف به أوصاف الذات العلية وكمالاتها ، من طريق البرهان ، يسمى : نور الإيمان ، وإن انكشف به حقيقة الذات وأسرارها ، من طريق العيان ، يسمى : نور الإحسان. فالأول : يشبه نور النجوم ، والثاني : نور القمر ، والثالث : نور الشمس ، ولذلك تقول الصوفية : نجوم الإسلام ، وقمر الإيمان ، وشمس العرفان.

---

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤) عن ابن مسعود ، و(ح ١٩٥١) عن أنس ، وأخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٣٨٤) من حديث سهل بن سعد. وجاء فى صحيح مسلم : «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله». أخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي ، ٣/ ١٥٠٦ ح ١٨٩٣) من حديث أبى مسعود البدري.

(٢) أرى أن تكون العبارة هكذا [بنور الإسلام لأهل الإسلام ، وبنور الإيمان لأهل الإيمان].

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢

ثم ضرب المثل لذلك النور ، حين يقذفه فى قلب المؤمن ، فقال : مَثَلُ نُورِهِ أي : صفة نوره العجيبة فى قلب المؤمن – كما هى قراءة ابن مسعود – كَمِشْكاةٍ أي : كصفة مشكاة ، وهى الكوّة فى الجدار غير النافذة لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعا ، فيكون أزهر وأنور ، فِيها مِصْباحٌ أي : سراج ضخم ثاقب ، الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ أي : فى قنديل من زجاج صاف أزهر ، الزُّجاجَةُ من شدة صفائها كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ بضم الدال وتشديد الراء ، منسوب إلى الدر لفرط ضيائه وصفائه ، وبالكسر والهمز : «أبو عمرو» على أنه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمز : أبو بكر وحمزة ، شبهه بأحد الكواكب الدراري ، كالمشترى والزهرة ونحوهما.

توقد «١» بالتخفيف والتأنيث ، أي : الزجاجة ، أو يُوقَدُ بالتخفيف والغيب ، أو : توقد بالتشديد ، أي :

المصباح مِنْ شَجَرَةٍ أي : من زيت شجرة الزيتون ، أي : رويت فتيلته من زيت شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ كثيرة المنافع ، أو : لأنها تنبت فى الأرض التي بارك فيها للعالمين ، وهى الشام ، وقيل : بارك فيها سبعون

نبيا ، منهم إبراهيم عليه السّلام.

زَيْتُونَةٍ : بدل من شَجَرَةٍ ، من نعتها لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ أي : ليست شرقية فقط ، لا تصيبها الشمس إلا فى حالة الشروق ، ولا غربية ، لا تصيبها إلا فى حال الغروب ، بل هى شرقية غربية ، تصيبها الشمس بالغداة والعشى ، فهو أنضر لها ، وأجود لزيتونها. وقيل : ليست من المشرق ولا من المغرب ، بل فى الوسط منه ، وهو الشام ، وأجود الزيتون زيتون الشام.

يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضىء بنفسه من غير مساس نار أصلا. نُورٌ عَلى نُورٍ أي : نور المصباح متضاعف على نور الزيت الصافي ، فهذا مثال النور الذي يقذفه اللّه فى قلب المؤمن فالمشكاة هو الصدر ، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان ، على ما تقدم ، والزجاجة هو القلب الصافي ، ولذلك شبهه بالكوكب الدرّىّ ، والزيت هو العلم النافع الذي يقوى اليقين. ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة. يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق ، ولو لم يمسسه علمها. نُورٌ عَلى نُورٍ أي : نور الإيمان مضاف إلى نور الإسلام ، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام ،

---

(١) قرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص ، بياء من تحت مضمومة ، مع إسكان الواو ، وتخفيف القاف ، ورفع الدال ، على التذكير ، مبنيا للمفعول من «أوقد» أي : المصباح. وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، ويعقوب ، بتاء من فوق ، وفتح الواو والدال ، وتشديد القاف ، على وزن «تفعل» فعلا ماضيا ، فيه ضمير يعود على المصباح. وقرأ أبو بكر ، وحمزة ، والكسائي ، بالتاء من فوق ، مضمومة ، وإسكان الواو ، وتخفيف القاف ، ورفع الدال ، على التأنيث ، مضارع «أوقد» مبنى على المفعول. ونائب الفاعل ضمير يعود على «زجاجة». انظر الإتحاف (٢/ ٢٩٨).

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ أي : لهذا النور الباهر مَنْ يَشاءُ من عباده إما بإلهام أو بواسطة تعليم. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية إنما هى بمشيئته تعالى ، وأن الأسباب لا تأثير لها. وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ تقريبا للفهم ، لأنه إبراز للمعقول فى هيئة المحسوس وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، معقولا كان أو محسوسا ، فيبين الأشياء بما يمكن أن تعلم به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أن الكون كله من عرشه إلى فرشه قطعة من نور الحق ، وسر من أسرار ذاته ، ملك ، وباطنه ملكوت فائض من بحر الجبروت ، فالكائنات كلها : اللّه نورها وسرّها ، وهو القائم بها. ولا

يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله ، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه ، وتحققوه ذوقا وكشفا.

ثم ضرب الحقّ تعالى مثلا لنوره الفائض من بحر جبروته ، فقال : مَثَلُ نُورِهِ الظاهر ، الذي تجلى به فى عالم الشهادة ، كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ أي : كطاقة انفتحت من بحر اللّطافة الكنزيّة ، خرج منها نور كثيف كالمصباح ، فالكون كله مصباح نور ، انفجر من النور ، ومن ذلك المصباح تفرعت الكائنات ، فهى كلها نور فائض من بحر نوره اللطيف ، ثم جعل الحق تعالى يصف ذلك المصباح فى توقده وتوهجه بقوله : الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... .. إلخ. فالآية كلها من تتمة التمثيل. وقوله تعالى : وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ قيل : الإشارة فيه إلى استغناء العبد فى تلك الحالة عن الاستمداد إلا من رب العزة ، فيستغنى عن الوسائط. وقوله تعالى : نُورٌ عَلى نُورٍ أي : نور ملكوته على نور جبروته ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ أي : لشهود نوره ، أو لمعرفة نوره ، مَنْ يَشاءُ من خواص أحبابه ، كأنبيائه وأوليائه ، فمن لم يشهد هذا النور ، ولم يعرفه ، لا خصوصية له يتميز بها عن العوام ، فهو من عامة أهل اليمين ، ولو كثر علمه وعمله إذ لا عبرة بالعلم والعمل مع الحجاب. وفى الحكم : «الكائن فى الكون ، ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته» ، والمحجوب برؤية الأكوان من جملة العوام عند أهل العيان ، ينسحب عليه معنى المثال الآتي فى ضد هذا بقوله : (أو كظلمات ..) إلخ.

وفى الحكم. «الكون كله ظلمة ، وإنما أناره ظهور الحقّ فيه ، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه ، أو عنده ، أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار» «١». فالكون عند أهل العيان كله نور ، وعند أهل الحجاب كله ظلمة ، وهو محيط بهم ، فالظلمة محيطة بهم ، وقد ألف الغزالي فى هذه الآية كتابة :

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٣٢ حكمة ١٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤

(مشكاة الأنوار) ، وكلامه فيه يدور على أن معنى اسمه تعالى «النور» : يرجع إلى ما ثبتت به الأشياء وظهرت من العدم ، ولذلك قال قائلهم :

فالنّور يظهر ما ترى من صورة وبه ظهور الكائنات بلا امتراء

وفى لطائف المنن : اللّه نور السموات والأرض نور سموات الأرواح بمشاهدته ، ونور أرض النفوس

بمطالعته وخدمته ، وجعل قلوب أوليائه مجلاة لذاته ولظهور صفاته ، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصا ، وهو الظاهر فى كل شىء عموما ، ظهر فيهم بأنواره وأسراره ، كما ظهر فيهم ، وفيما عداهم بقدرته واقتداره. هـ.

ثم ذكر محل ظهور ذلك المصباح ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٦ الى ٣٨]

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (٣٦) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (٣٨)

قلت : (فى بيوت) : يتعلق بمشكاة ، أي : كائنة فى بيوت ، أو توقد ، أو بيسبح ، أي : يسبح له رجال فى بيوت ، وفيه تكرير لزيادة التأكيد ، نحو : زيد فى الدار جالس فيها ، أو بمحذوف ، أي : سبّحوا فى بيوت. و(أذن) : نعت له.

يقول الحق جل جلاله : وذلك النور الذي فى المشكاة يكون فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ، وهى المساجد والزوايا المعدّة لذكر اللّه والصلاة وتلاوة القرآن. ورفعها : تعظيمها. أي : التي أمر اللّه بتعظيمها كتطهيرها من الخبث ، وتنقيتها من القذى ، وتعليق القناديل ونصب الشموع ، ويزاد التعظيم فى شهر رمضان. ومن تعظيمها :

غلقها فى غير أوقات الصلاة ، وقيل المراد برفعها : بناؤها ، كقوله تعالى : .. بَناها رَفَعَ سَمْكَها .. «١» ، وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ «٢» ، والأول أصح.

وَأذن أيضا أن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وهو عام فى جميع الذّكر ، مفردا أو جماعة ، ويدخل فيه تلاوة القرآن. يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ أي : يصلى له فيها بالغداة : صلاة الفجر ، والآصال : صلاة الظهر

---

(١) من الآيتين : ٢٧ – ٢٨ من سورة النازعات.

(٢) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

والعصر والعشاءين. وإنما وحّد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة ، وفى الآصال صلوات ، وهو جمع أصيل ، وفاعل «يسبّح» : رجال. ومن قرأ بفتح الباء «١» ، فأسنده إلى أحد الظروف الثلاثة ، أعنى :

(له فيها بالغدو). و«رجال» :

مرفوع بمحذوف ، دل عليه يُسَبِّحُ أي : يسبحه رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ : لا تشغلهم تِجارَةً فى السفر ، وَلا بَيْعٌ فى الحضر ، عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ باللسان والقلب ، وقيل : التجارة : الشراء ، أي : لا يشغلهم شراء ولا بيع عن ذكر اللّه ، والجملة : صفة لرجال ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة ، مفيدة لكمال تبتّلهم إلى اللّه تعالى ، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم.

وتخصيص التّجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها ، أي : لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة ، ولا فرد من أفراد البياعات ، وإن كان فى غاية الربح. وإفراده بالذكر ، مع اندراجه تحت التجارة لإنه ألهى لأن ربحه متيقن ناجز فى الغالب ، وما عداه متوقع فى ثانى الحال.

وَلا يشغلهم ذلك أيضا عن إِقامِ الصَّلاةِ أي : إقامتها لمواقيتها من غير تأخير ، وأصله : وإقامة ، فأسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال ، وعوض عنها الإضافة ، فأقيمت الإضافة مقام التاء ، وَإِيتاءِ الزَّكاةِ أي : وعن إيتاء الزكاة ، وذكرها ، وإن لم يكن مما تفعل فى البيوت ، لكونها قرينتها لا تفارق إقامة الصلاة فى عامة المواضع ، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد.

والمعنى : لا تجارة لهم حتى تلهيهم ، أو يبيعون ويشترون ويذكرون اللّه مع ذلك ، لا يشغلهم عن ذكر اللّه شيء ، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها مسرعين. يَخافُونَ يَوْماً أي : يوم القيامة تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ أي : تضطرب وتتغير من الهول والفزع ، وتبلغ إلى الحناجر ، وَتتقلب الْأَبْصارُ بالشخوص أو الزرقة. أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران ، والأبصار إلى العيان بعد النكران ، كقوله : فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ «٢».

يفعلون ذلك الاستغراق فى التسبيح والذكر ، مع الخوف لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا أي : أحسن جزاء أعمالهم ، حسبما وعدهم بمقابلة حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف ، وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ أي : يتفضل عليهم بأشياء وعدهم بها ، لم تخطر على بال كالنظر إلى وجهه ، وزيادة كشف ذاته ، فهو كقوله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ «٣». وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ أي : يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل تحت حساب الخلق ، و«من» : واقعة على من ذكرت أوصافهم الجميلة ، كأنه قيل : واللّه يرزقهم بغير حساب ، ووضعه موضع

---

(١) وبها قراءة ابن عامر وأبو بكر.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة ق.

(٣) من الآية ٢٦ من سورة يونس.

ضميرهم للتنبيه على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى ، لا أعمالهم المحكية ، ويحتمل أن يريد بالرزق ما يرزقهم فى الدنيا مما يقوم بأمرهم ، حين تبتّلوا إلى العبادة ، يرزقهم اللّه من حيث لا يحتسبون ، من غير حصر ولا عد. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : البيوت التي أذن اللّه أن ترفع هى القلوب ، التي هى معدن الأسرار ومحل مصابيح الأنوار ، ورفعها :

صونها من الأغيار ، وتطهيرها من لوث الأكدار ، وبعدها من جيفة الدنيا ، التي هى مجمع الخبائث والأشرار ، ليذكر فيها اسم اللّه ، كثيرا ، على نعت الحضور والاستهتار ، وإنما يمكن ذلك من أهل التجريد والانقطاع إلى اللّه ، الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر اللّه ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب عن حضرة اللّه ، والأبصار عن شهود اللّه ، وذلك بشؤم الغفلة فى الدنيا عن اللّه ، والقيام بحقوق اللّه ، ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا ، فى جنة الزخارف ، ويزيدهم من فضله التّنزّه فى جنة المعارف. واللّه يرزق من العلوم والمعارف من يشاء بغير حساب.

ثم ذكر ضد أهل النور ، وهم أهل الظلمة ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٣٩ الى ٤٠]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

قلت : «كسراب» : خبر الثاني ، وهو : ما يروى فى الفلوات من لمعان الشمس وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض ، فيظنّ أنه ماء يجرى. و(بقيعة) : متعلق بمحذوف ، صفة لسراب ، أي : كائن بأرض قيعة ، أي : منبسطة ، و(سحاب ظلمات) : من جرّها : فبالإضافة «١» ، ومن رفعها : فخبر ، أي : هى ظلمات.

يقول الحق جل جلاله ، فى بيان أعمال الكفرة وظلمة قلوبهم ، بعد بيان حال المؤمنين وأنوار قلوبهم : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ التي هى من أبواب البر ، كصلة الرحم ، وفك العناة ، وسقاية الحاج ، وعمارة البيت ، وإغاثة الملهوف ، وقرى الأضياف ، ونحوها ، مما لو قارنه الإيمان لا ستوجب الثواب ، مثاله : كَسَرابٍ

---

(١) قرأ البزي (سحاب ظلمات) بالإضافة ، وقرأ الجمهور : (سحاب ظلمات) بالتنوين والرفع فيهما. انظر الإتحاف (٢/ ٢٩٩). [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧

كفضاء (بقيعة) بأرض منبسطة ، يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ يظنه العطشان ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً أي : لم يجده كما ظنه ورجاه ، بل خاب مطمعه ومسعاه ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ أي : وجد جزاء اللّه ، أو حكمه ، عند عمله ، أو عند جزائه ، فَوَفَّاهُ حِسابَهُ أي : أعطاه جزاءه كله وافيا ، وإنما وحّد ، بعد تقديم الجمع ، حملا على كل واحد من الكفار.

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ يحاسب العباد فى ساعة لأنه لا يحتاج إلى عد وعقد ، ولا يشغله حساب عن حساب ، أو قريب حسابه لأنّ كل آت قريب. شبه ما يعمله الكفرة من البر ، الذي يعتقد أنه ينفعه يوم القيامة وينجيه من عذاب اللّه ، ثم يخيب فى العاقبة أمله ، ويلقى خلاف ما قدّر ، بسراب يراه الكافر بالساهرة ، وقد غلبه عطش يوم القيامة ، فيحسبه ماء ، فيأتيه ، فلا يجد ما رجاه ، ويجد زبانية اللّه ، فيأخذونه إلى جهنم ، فيسقونه الحميم والغساق. قيل : هم الذين قال اللّه فيهم : عامِلَةٌ ناصِبَةٌ «١» ، ويَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً «٢». قيل : نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية ، كان ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، والتمس الدين ، فلما جاء الإسلام كفر. هـ.

ثم ضرب مثلا لأعمالهم فى الدنيا ، فقال : أَوْ كَظُلُماتٍ ، «أو» : للتنويع ، فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ عميق كثير الماء ، منسوب إلى اللج ، وهو معظم ماء البحر ، يَغْشاهُ أي : يغشى البحر ، أو من فيه ، أي : يعلوه ويغطيه بالكلية ، مَوْجٌ هو ما ارتفع من الماء ، مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ أي : من فوق الموج موج آخر ، مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ من فوق الموج الأعلى سحاب ، ظُلُماتٌ أي : هذه ظلمات ظلمة السحاب ، وظلمة الأمواج ، وظلمة البحر ، بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ ظلمة الموج على ظلمة البحر ، وظلمة الموج على ظلمة الموج الأسفل ، وظلمة السحاب على الموج ، وهذا أعظم للخوف وأقرب للعطب ، لأنه يغطى النجوم التي يهتدى بها ويشتد معه الريح والمطر ، وذلك يؤكد التلف ، إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ أي : الواقع فيه ، أو من ابتلى بها ، لَمْ يَكَدْ يَراها مبالغة فى «لم يرها» أي : لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها. شبّه أعمالهم ، فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة ، وخلوها عن نور الحق ، بظلمات متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب.

قال ابن جزىّ : لما ذكر حال المؤمنين عقّب ذلك بمثالين لأعمال الكفار الأول : يقتضى حال أعمالهم فى الآخرة ، وأنها لا تنفعهم ، بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب. والثاني : يقتضى حال أعمالهم فى الدنيا ، وأنها فى غاية الفساد والضلال ، كالظلمة التي بعضها فوق بعض. ثم قال : وفى وصف هذه الظلمات مبالغة ، كما أن فى

(١) الآية ٣ من سورة الغاشية.
(٢) الآية ١٠٤ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨
وصف النور المذكور قبلها مبالغة. هـ. وقوله : لما ذكر حال المؤمنين ، يعنى بقوله : رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ .. إلخ ، اللّه بقوله : يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ ، وقيل : كلا المثالين فى الآخرة ، يخيبون من نفعها ، ويخوضون فى بحر ظلمتها.
وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فى قلبه ، من نور توحيده ومعرفته ، فَما لَهُ مِنْ نُورٍ أي : من لم يشأ اللّه أن يهديه لنوره : لم يهتد ، وفى الحديث : «خلق اللّه الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليها من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل» ، وينبغى للقارىء عند هذه الآية أن يقول : (اللهمّ اجعل فى قلبى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن شمالى نورا ، ومن فوقى نورا ، ومن تحتى نورا ، واجعلنى نورا ، وأعظم لى نورا) «١» ، كما فى الحديث فى غير هذا المحل.
الإشارة : كل من لم يتحقق بمقام الإخلاص كانت أعماله كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد اللّه عنده ، فوفاه حسابه ، أي : يناقشه فيما أراد بعمله ، وأهل التوحيد الخاص : الوجود كله ، عندهم ، كالسراب ، يحسبه الناظر إليه شيئا ، حتى إذا جاءه بفكرته لم يجده شيئا ، ووجد اللّه عنده وحده ، وفيه يقول الشاعر :

من أبصر الخلق كالسّراب فقد ترقّى عن الحجاب
إلى وجود تراه رتقا بلا ابتعاد ولا اقتراب
ولم تشاهد به سواه هناك يهدى إلى الصّواب
فلا خطاب به إليه ولا مشير إلى الخطاب

ومثال من عكف على دنياه ، واتخذ إلهه هواه ، كذى ظلمات فى بحر لجى ، وهو بحر الهوى ، يغشاه موج الجهل والمخالفات ، من فوقه موج الحظوظ والشهوات ، من فوقه سحاب أثر الكائنات ، أو : يغشاه موج الغفلات ، من فوقه موج العادات ، من فوقه سحاب الكائنات ، ظلمات بعضها فوق بعض من حب الدنيا ، وحب الجاه ، وحب الرئاسة ، إذا أخرج يد فكرته لم يكد يراها.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الدعوات ، باب الدعاء إذا انتبه من الليل ح ٦٣١٦) ، ومسلم فى (صلاة

المسافرين ، باب الدعاء فى صلاة الليل ، ١/ ٥٢٥ – ٥٢٦ ، ح ٧٦٣) ، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٤٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩

وقال بعضهم : الدنيا كلها بحر لّجّى ، والناس مغروقون فيه ، إلا من عصم اللّه ، وساحله الموت ، فمن لعبت به أمواج الهوى والحظوظ ، فليأوى إلى سفينة الزهد والورع ، وليتمسك برئيس عارف بأهوال البحر ، وهم العارفون باللّه ، فإنه ينجو من أهوالها ، ومن أخطأ هذا غرق فى تيارها ، ولعبت به أمواج حظوظها وشهواتها ، فكان من الهالكين ، نسأل اللّه الحفظ بمنّه وكرمه.

ثم ذكر علامات وجود ذلك النور المتقدم فى أهل السموات والأرض ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد ، وخصّه بالخطاب إيذانا بأنه صلى اللّه عليه وسلم قد أفاض عليه أعلى مراتب النور وأجلاها ، وبيّن له من أسرار الملكوت أجلّها وأخفاها ، أي : ألم تنظر بعين بصيرتك ، فتعلم علم يقين ، أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ أي : ينزهه على الدّوام مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من العقلاء وغيرهم ، تنزيها معنويا ، فإن كلا من الموجودات يدل على وجود صانع واجب الوجود ، متصف بصفات الكمال ، مقدس عن كل ما لا يليق بعلو شأنه. أو : تنزيها حسيا بلسان المقال ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم. وتخصيص التنزيه بالذكر ، مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لأن مساق الكلام تقبيح حال الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له ودعوى اتخاذه الولد.

وَيسبحه الطَّيْرُ حال كونها صَافَّاتٍ أي : يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتخصيصها بالذكر ، مع اندراجها فى جملة ما فى الأرض لعدم استمرار قرارها فيها ، ولاختصاصها بصنع بارع ، وهو اصطفاف أجنحتها فى الجو ، وتمكينها من الحركة كيف تشاء ، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط ، ففى ذلك دلالة واضحة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وغاية حكمة المبدئ المعيد.

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ أي : كل واحد من الأشياء المذكورة قد علم اللّه تعالى صلاته ، أي : دعاءه وخضوعه وتسبيحه. أو : كلّ قد علم فى نفسه ما يصدر عنه من صلاة وتسبيح ، فالضمير : ما

إليه أو لكل. ولا يبعد أن يلهم اللّه الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة ، التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ لا يعزب عن علمه شيء.

(٤/٤٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا لغيره لأنه الخالق لهما ، ولما فيهما من الذوات ، وهو المتصرف فيهما إيجادا واعداما ، (و إلى اللّه المصير) أي : إليه ، خاصّة ، رجوع الكل بالفناء والبعث لا إلى غيره ، وإظهار اسم الجلالة فى وضع الإضمار ، لتربية المهابة ، والإشعار بعلّيّة الحكم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ما استقر فى السموات السبع والأرضين السبع كله من قبضة النّور الأوّليّة ، بين حس ومعنى ، حسه خاضع لأحكام الربوبية ، ومعناه قاهر بسطوات الألوهية ، حسه حكمة ، ومعناه قدرة ، حسه ملك ، ومعناه ملكوت ، وهذا معنى قوله : اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، فافهم.

ثم ذكر جزئيات من تلك النور ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤٣ الى ٤٤]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي أي : يسوق ، برفق وسهولة ، سَحاباً : جمع سحابة ، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ أي : يضم بعضه إلى بعض ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً متراكما بعضه فوق بعض ، فَتَرَى الْوَدْقَ : المطر ، يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ من فتوقه ووسطه ، جمع خلل ، كجبال وجبل ، وقيل : مفرد ، كحجاب وحجاز.

قال القشيري : ترتفع بقدرته بخارات البحر ، فيتصعد ، بتسييره وتقديره ، إلى الهواء ، وهو السحاب ، ثم يديره إلى سمت يريد أن ينزل به المطر ، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر ، قطرة قطرة ، ويكون الماء ، حين حصوله فى بخارات البحر ، غير عذب ، فيقلبه عذبا ، ويسحّه السحاب سكبا ، فيوصل إلى كلّ موضع قدرا يكون له مرادا معلوما ، لا بالجهد من المخلوقين يمسك عن المواضع الذي عليه ينزله ، ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذي لا يمطره. هـ. قلت : وهذا أحد الأقوال فى حقيقة المطر ، والمشهور عند أهل السنة : أن اللّه تعالى ينشىء السحاب بقدرته ، ويخلق فيه الماء بحكمته ، وينزله حيث شاء.

(٤/٥٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١

ثم قال تعالى : وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ ، «من» الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : بدل من الأولى ، والثالثة : لبيان الجنس ، أي : ينزّل البرد ، وهو الثلج المكور ، من السماء ، أي : الغمام العلوي ، فكل ما علاك سماء ، من جبال فيها كائنة من البرد ، ولا غرابة فى أن اللّه يخلق فى السماء جبال برد كما خلق فى الأرض جبال حجر.

قال ابن جزى : قيل : إن الجبال هنا حقيقة ، وإن اللّه جعل فى السماء جبالا من برد ، وقيل : إنه مجاز ، كقولك :

عند فلان جبال من مال أو علم ، أي : هن فى الكثرة مثل الجبال. هـ. وأصله لابن عطية. وقال الشيخ أبو زيد الثعالبي : حمل اللفظ على حقيقته أولى ، إن لم يمنع من ذلك مانع. هـ. يعنى : ولا مانع هنا ، فيحمل على ظاهره ، وإن اللّه خلق جبال برد فى السماء. وقال الهروي عن ابن عرفة – يعنى اللغوي – : سمعت أحمد بن يحيى يقول : فيه قولان : أحدهما : وينزل من السماء بردا من جبال فى السماء من برد ، والآخر : وينزل من السماء أمثال الجبال من البرد. ويقال : إنما سمى بردا لأنه يبرد وجه الأرض أي : يقشره. هـ.

قال البيضاوي : إن الأبخرة إذا تصاعدت ولم يتخللها حرارة ، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء ، وقوى البرد هناك ، اجتمع وصار سحابا ، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطرا ، وإن اشتد ، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها ، نزل ثلجا ، وإلّا نزل بردا ، وقد يبرد الهواء بردا مفرطا فينقبض ، وينعقد سحابا ، وينزل منه المطر أو الثلج. وكل ذلك لا بد وأن يسند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتها ، وإليه أشار بقوله : فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ والضمير للبرد. هـ. أي :

فيصيب بذلك البرد من يشاء أن يصيبه به ، فيناله ما ناله من ضرره فى بدنه وماله من زرع أو غيره.

وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ أن يصرفه عنه ، فينجو من غائلته.

يَكادُ سَنا بَرْقِهِ أي : ضوء برق السحاب ، الموصوف بما مر من الإزجاء والتآلف. وإضافة البرق إليه ، قبل الإخبار بوجوده ، فيه إيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به. وقيل : الضمير للسماء ، وهو أقرب ، أي : يكاد ضوء برق السماء ، ويحتمل أن يعود على «اللّه» تعالى لتقدم ذكره ، أي : يكاد ضوء برقه تعالى يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ ، أي : يخطفها من فرط الإضاءة ، وسرعة ورودها ، ولو عند إغماضها. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ أي : يصرفهما بالتعاقب ، فيأتى هذا بعد هذا ، أو ينقص أحدهما وزيادة الآخر ، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما.

إِنَّ فِي ذلِكَ ، الإشارة إلى ما فصل آنفا ، أي : إن فى إزجاء السحاب ، وإنزال الودق ، وتقليب الليل والنهار ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢

لَعِبْرَةً لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ، القائم بالأشياء ، والمدبر لها بقدرته وحكمته ، لِأُولِي الْأَبْصارِ لذوى العقول الصافية. وهذا من تعدد الدلائل على ظهور نوره تعالى فى الكائنات ، حيث ذكر تسبيح من فى السموات والأرض وما يطير بينهما وخضوعهم له ، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار ، وتقليب الليل والنهار ، إلى غير ذلك من لوامح الأنوار. واللّه تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة : ألم تر أن اللّه يزجى سحاب الواردات الإلهية ، تحمل العلوم اللدنية ، ثم يؤلف بينه حتى يكون قويا ، يقتطع به صاحبه عن حسه ، ويغيبه عن أمسه ورسمه ، فترى أمطار العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، والفتوحات العرفانية ، تخرج من خلاله ، أي : من قلب العارف ، وهى نتائج الواردات وثمراتها. وفى الحكم : «لا تزكين واردا لم تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وينزل من سماء الأرواح من جبال عقول ، فيها علم الرسوم الظاهرة ، فيصيب به من يشاء ، ممن أريد لحمل الشرائع والقيام بها ، ويصرفه عمن يشاء ، ممن أريد أن يكون من عامة الناس ، أو من خاصتهم. إن هبت عليه رياح الحقائق ، فأمطرت على قلبه العلوم الغيبية فأغنته عن العلوم الرسمية ، يكاد سنا برقه الساطع لقلوب أوليائه ، وهو سطوع أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، فإنها تكون أولا كالبرق ، تلمع وتخفى ، ثم يتصل ورودها وشروقها ، فتكون متصلة البروق دائمة الشروق ، نهار بلا ليل ، واتصال بلا انفصال ، ووصال بلا انقطاع. وفى ذلك يقول القائل :

طلعت شمس من أحبّ بليل واستنارت ، فما تلاها غروب

إنّ شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليس لها مغيب

يقلب اللّه ليل القبض على نهر البسط ، ونهار البسط على ليل القبض ، حتى يتصل النهار بالخروج عنهما ، ليكون للّه ، لا لشيء دونه. وباللّه التوفيق.

ولمّا ذكر التجليات العلوية ذكر التجليات السفلية ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٤٥]

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ أي : خلق كل حيوان يدب على وجه الأرض مِنْ ماءٍ من نوع من الماء مختص بتلك الدابة ، وهو جزء مادته عند الأطباء ، أو : من ماء مخصوص ، وهو النطفة ،

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣

ثم خالف بين المخلوقات من تلك النطفة ، فمنها أناسى ، ومنها بهائم ، ومنها هوام وسباع ، وهو كقوله : يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ «١» وهذا دليل على أن لها خالقا مدبرا ، وإلّا لم تختلف لاتفاق الأصل ، وإنما عرّف الماء فى قوله : وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ «٢» ونكّره هنا لأن المقصود ثمّة أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء ، وأنه هو الأصل ، وإن تخللت بينه وبينها وسائط ، وأما هنا فالمراد نوع منه.

قالوا : إن أول ما خلق اللّه الماء ، فخلق منه النار والريح والطين ، فخلق من النار الجن ، ومن الريح الملائكة ، ومن الطين آدم ودواب الأرض. قال النسفي. وعلى الثاني : تكون الآية أغلبية لأن من الحيوانات من يتولد من غير نطفة ، كالدود والبعوض وغيرهما.

ثم فصّل أحوالهم بقوله : فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ كالحية والحوت ، وتسمية حركتها مشيا ، مع كونها زحفا ، استعارة ، كما يقال فى الشيء المستمر : قد مشى هذا الأمر على هذا النمط ، أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين. وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ كالإنسان والطير ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ كالبهائم والوحش. وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها ، لقلتها. وتذكير الضمير فى (منهم) لتغليب العقلاء ، وكذلك التعبير بكلمة (من). وقدّم ما هو أغرق فى القدرة ، وهو الماشي بغير آلة ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع.

يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ مما ذكر ومما لم يذكر ، بسيطا أو مركبا ، على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والطبائع والقوى والأفاعيل ، مع اتحاد العنصر إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الاسم الجليل فى الموضعين فى موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور ، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أظهر الحق تعالى الأشياء من الماء ، وأظهر الماء من نور القبضة ، وأظهر القبضة من بحر سر الذات. أو تقول : أظهر الماء من نور الملكوت ، وأبرز نور الملكوت من بحر الجبروت ، وبحر الجبروت هو بحر أسرار

---

(١) من الآية ٤ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤

الذات الأزلية ، فالكل منه وإليه ، ولا شيء معه ، فتنوعت أنوار التجليات ، وتعددت أسماؤها بتعدد فروعها ، والمتجلى واحد ، كما قال صاحب العينية :

تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئي للحبيب طلائع

فلمّا تبدّى حسنه متنوّعا تسمّى بأسماء فهن مطالع.

ولا يفهم هذا إلا من هداه اللّه لمعرفته ، كما قال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٤٦]

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ لكل ما يليق بيانه من الأحكام الديني ، ة والأسرار التكوينية. أو : موضحات ، أوضحنا بها ما يحتاجون إليه من علم الشرائع والأحكام ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ توفيقه إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : دين قيّم يوصل إلى رضوان اللّه ومعرفته.

الإشارة : لقد أنزلنا من بحر الجبروت أنوارا ساطعة لعالم الملكوت ، واللّه يهدى من يشاء إلى طريق شهود هذه الأنوار. فالطريق المستقيم هى التي توصل إلى حضرة العيان ، على نعت الكشف والوجدان ، وهى ثلاثة مدارج :

المدرج الأول : إتقان الشريعة الظاهرة ، وهى تهذيب الظواهر وتأديبها بالسنّة والمتابعة. والمدرج الثاني : إتقان الطريقة ، وهى تهذيب البواطن وتصفيتها من الرذائل ، فإذا تطهر الباطن ، وكمل تهذيبه ، أشرف على المدرج الثالث ، وهو كشف الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، فيفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، فيقع العيان عل فقد الأعيان ، وتشرق شمس العرفان فتغطى وجود الأكوان. وباللّه التوفيق. «١»

ولما ذكر إنزال الآيات ذكر افتراق الناس إلى ثلاث فرق ، فرقة آمنت ظاهرا وكفرت باطنا ، وهم المنافقون ، وفرقة آمنت ظاهرا وباطنا ، وهم المخلصون ، وفرقة كفرت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون ، وبدأ بالأولى ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٤٧ الى ٥٠]

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)

(١) انظر النادرات العينية/ ٦٩.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥

يقول الحق جل جلاله فى شأن من لم يشأ هدايته إلى صراط مستقيم : وَيَقُولُونَ أي : المنافقون آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ بألسنتهم ، وَأَطَعْنا اللّه والرسول فى الأمر والنهى ، ثُمَّ يَتَوَلَّى عن قبول حكمه فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ أي : من بعد ما صدر عنهم من ادعاء الإيمان باللّه وبالرسول والطاعة لهما.

قال الحسن : نزلت فى المنافقين ، الذين كانوا يظهرون الإيمان ويسرون الكفر. وقيل : نزلت فى «بشر» المنافق ، خاصم يهوديا ، فدعاه إلى كعب بن الأشرف ، ودعاه اليهودي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال بشر : لا ، إن محمدا يحيف علينا «١» – قبح اللّه سعيه. وقيل : فى المغيرة بن وائل ، خاصم عليّا رضي اللّه عنه فى أرض وماء ، فأبى أن يتحاكم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وأيا ما كان فصيغة الجمع تدل على أن للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة.

ثم حكم عليهم بالكفر ، فقال : وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ أي : المخلصين ، والإشارة إلى القائلين : آمنا باللّه وبالرسول ، لا إلى الفريق المتولى منهم فقط ، لئلا يلزم نفى الإيمان عنهم فقط ، دون من قبلهم ، بخلاف العكس ، فإن نفى الإيمان عن القائلين يقتضى نفيه عنهم ، على أبلغ وجه وآكده ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد منزلتهم فى الكفر والفساد.

وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأن حكمه حكم اللّه ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أي :

ليحكم الرسول بينهم لأنه المباشر للحكم حقيقة ، وإن كان ذلك حكم اللّه فى الحقيقة لأنه خليفته. وذكر اللّه تعالى لتفخيم شأنه عليه ، والإيذان بجلالة قدره عنده. فإذا دعوا إلى التحاكم بينهم إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ أي :

فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه صلى اللّه عليه وسلم لكون الحق عليهم ، وقد علموا أنه صلى اللّه عليه وسلم يحكم بالحق على من كان.

وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ على غيرهم يَأْتُوا إِلَيْهِ إلى الرسول مُذْعِنِينَ مسرعين فى الطاعة ، طلبا لحقهم ، لا رضا بحكم رسولهم. قال الزجاج : والإذعان : الإسراع مع الطاعة. والمعنى : أنهم لمعرفتهم أنك لا تحكم إلا بالحق المر والعدل المحض ، يمتنعون من المحاكمة إليك ، إذا ركبهم الحق ، لئلا تنزعه منهم بقضائك عليهم لخصومهم ، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك ، ولم يرضوا إلا

بحكومتك ، لتأخذ لهم ما وجب لهم على خصمهم.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٥٥) ، وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٣٧).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦

أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كفر ونفاق ، أَمِ ارْتابُوا فى نبوته صلى اللّه عليه وسلم ، أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ أن يجور اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ فيحكم بينهم بغير الحق. قسّم الحق تعالى الأمر فى صدود المنافقين عن حكومته – عليه الصلاة والسلام – إذا كان الحق عليهم إلى ثلاث : بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين ، أو مرتابين فى أمر نبوته ، أو خائفين الحيف فى قضائه ، ثم أبطل الكل بقوله : بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، أما الأولان فلأنه لو كان شيء منهما لأعرضوا عنه ، عند كون الحق لهم لتحقق نفاقهم وارتيابهم ، وأما الثالث فلمعرفتهم بأحواله صلى اللّه عليه وسلم فى الأمان والثبات على الحق ، فهم لا يشكون أنه لا يحيف بل لأنهم هم الظالمون ، يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ، ويتم لهم جحودهم ، فيأبون المحاكمة إليه – عليه الصلاة والسلام – لأنه صلى اللّه عليه وسلم يقضى عليهم بالحق الصريح ، المؤيد بالوحى الصحيح.

الإشارة : ترى فريقا من الناس يدّعون الإيمان والطاعة والمحبة ، ونفوسهم غالبة عليهم ، فإذا دعوا إلى من يحكم بينهم وبينها ، بأن يأمرهم بمجاهدتها أو قتلها إذا فريق منهم معرضون ، وإن يكن لهم الحق ، بأن وجدوا من يدلهم على البقاء مع عوائدها وشهواتها ، يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم شك ووهم ، أم ارتابوا فى وجود الطبيب ، أم يخافون أن يحيف اللّه عليهم؟ بأن يدلهم على من يتعبهم ولا يبرئهم ، حيث حسّنوا الظن به والتجئوا إليه ، فلا يدلهم إلا على من يوصلهم إليه ، بل أولئك هم الظالمون لنفوسهم ، حيث حرموها الوصول ، وتركوها فى أودية الشكوك والخواطر تجول. قال الورتجبي : وَإِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أي : دعوا إلى مشاهدة اللّه بنعت المحبة والمعرفة ، وعبودية بنعت الإخلاص ، ودعوا إلى رسوله بالمتابعة والموافقة فى الشريعة والطريقة. هـ.

ثم ذكر الفريق الثاني ، وهم المخلصون ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (٥٢)

قلت : (قول) : خبر «كان» مقدّم ، و(أن يقولوا) : اسمها مؤخر ، وقرأ الحسن : بالرفع على الاسمية ،

والأول :
أرجح صناعة ، والثاني : أظهر دلالة ، وأكثر إفادة. انظر أبا السعود.

(٤/٥٦)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧
يقول الحق جل جلاله : إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ الصادر عنهم إذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ الرسول صلى اللّه عليه وسلم بَيْنَهُمْ وبين خصومهم ، سواء كانوا منهم أو من غيرهم ، أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا قوله ، وَأَطَعْنا أمره ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بكل مطلب ، الناجون من كل مهرب. والإشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم ، وما فيه من البعد ، للإشعار بعلو رتبتهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل ، أي : أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجميلة هم الفائزون بكل مطلوب.
وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، هذا استئناف جيء به لتقرير ما قبله من حسن حال المؤمنين ، وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم ، أي : ومن يطع اللّه ورسوله ، كائنا من كان ، فيما أمرا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية ، وقيل : من يطع اللّه فى فرائضه ، ورسوله فى سننه. وَيَخْشَ اللَّهَ على ما مضى من ذنوبه ، وَيَتَّقْهِ فيما يستقبل من عمره ، فَأُولئِكَ الموصوفون بما ذك ر من الطاعة والخشية ، والاتقاء ، هُمُ الْفائِزُونَ بالنعيم المقيم ، لا من عداهم.
وعن بعض الملوك : أنه سأل عن آية كافية ، فتليت عليه هذه الآية. وهى جامعة لأسباب الفوز. قال القرطبي :
ذكر أسلم : أن عمر بينما هو قائم فى مسجده صلى اللّه عليه وسلم فإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه ، وهو يقول :
أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأشهد أن محمدا رسول اللّه ، فقال له عمر : ما شأنك؟ قال : أسلمت ، قال : ألهذا سبب؟ قال :
نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل ، وكثيرا من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيرا يقرأ آية من القرآن ، جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند اللّه ، فأسلمت. قال : ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ فى الفرائض ، وَرَسُولَهُ فى السنن ، وَيَخْشَ اللَّهَ فيما مضى من عمره ، وَيَتَّقْهِ فيما بقي ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ والفائز : من نجا من النار وأدخل الجنة ، فقال عمر : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أعطيت جوامع الكلم «١»». هـ «٢». واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : إنما كان قول المؤمنين الكاملين ، الطالبين الوصول إلى حضرة رب العالمين ، إذا دعوا إلى حضرة اللّه ورسوله ليحكم بينهم وبين نفوسهم التي حجبتهم حتى يغيبوا عنها ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا

، ويدخلوا تحت تربية المشايخ ، فإذا أمروهم أو نهوهم ، قالوا : سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون الفائزون بالوصول إلى اللّه تعالى.

ومن يطع اللّه فى أمره ونهيه ، ورسوله فى سنّته ، وما رغّب فيه ، ويخش اللّه أن يعاتبه ، أو يؤدبه ، ويتقه ، أي : يجعل

---

(١) بعض حديث ، أخرجه البخاري فى (التعبير ، باب رؤيا الليل ، ح ٦٩٩٨) ومسلم فى (المساجد ، ١/ ٣٧١ ، ح ٥٢٣) عن أبى هريرة رضى اللّه عنه. ولفظ البخاري : «أعطيت مفاتيح الكلم».

(٢) انظر تفسير القرطبي (٥/ ٤٨١٩).

وقاية بينه وبين ما يحجبه أو يبعده عنه ، فأولئك هم الفائزون الظافرون بمعرفة اللّه على نعت الشهود والعيان. وباللّه التوفيق.

ثم رجع إلى تتمة القسم الأول ، حاكيا بعض جنايتهم ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

قلت : (جهد) : مصدر مؤكد لفعله ، الذي هو فى حيز النصب على الحال ، من فاعل «أقسموا» ، ومعنى جهد اليمين : بلوغ غايتها بطريق الاستعارة ، من قولهم : جهد نفسه : إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها. وأصل أقسم جهد اليمين : أقسم بجهد اليمين جهدا ، فحذف الفعل وقدم المصدر ، فوضع موضعه مضافا إلى المفعول ، كقوله :

فَضَرْبَ الرِّقابِ «١» وحكم هذا المنصوب حكم الحال ، كأنه قال : أقسموا جاهدين أيمانهم.

و(طاعة) : مبتدأ حذف خبره ، أي : طاعة معروفة أولى من تسويفكم ، أو : خبر عن محذوف ، أي : الذي يطلب منكم طاعة معروفة.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا

أي : المنافقون بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ

أي : بلغوا فيها غاية وسعهم ، بأن حلفوا باللّه. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : (من حلف باللّه فقد

جهد يمينه) ، لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ

أي :

قالوا : لئن أمرنا محمد بالخروج للغزو ، أو من ديارنا وأموالنا ، لخرجنا. وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه الصلاة والسلام – بردها حيث قيل : قُلْ لا تُقْسِمُوا

أي : قل ردا عليهم ، وزجرا عن التفوه بها : لا تحلفوا وأنتم كاذبون ، طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ

،

تعليل للنهى ، أي : لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة لأن طاعتكم طاعة نفاقية ، معروفة بالنفاق ، واقعة باللسان فقط من غير مواطأة للقلب. وإنما عبّر عنها بمعروفة للإيذان بأن كونها نفاقية مشهور معروف لكل أحد. وحملها على الطاعة الحقيقة ، على حذف المبتدأ أو الخبر ، مما لا يساعده المقام. أنظر أبا السعود.

قال القشيري : طاعة فى الوقت أولى من تسويف فى الوعد ، ولا تعدوا بما هو معلوم أنكم لا تفوا به. هـ. وقال النسفي : طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الفاجرة. أو : الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب ، كطاعة الخلص من المؤمنين ، لا أيمان تقسمونها بأفواهكم ، وقلوبكم على خلافها. هـ.

---

(١) من الآية ٥ من سورة سيدنا محمد.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٩

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

من الأعمال الظاهرة والباطنة ، التي من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة ، وما تضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق ، والعزيمة على مخادعة المؤمنين ، وغيرها من فنون الفساد.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، أمر – عليه الصلاة والسلام – بتبليغ ما خاطبهم اللّه به ، وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب ، وهو أبلغ فى تبكيتهم ، فَإِنْ تَوَلَّوْا – بحذف إحدى التاءين بدليل قوله :

وَعَلَيْكُمْ أي : فإن تعرضوا عن الطاعة إثر ما أمرتكم بها فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ من التبليغ وقد بلّغ ، وَعَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ من التلقي بالقبول والإذعان. والمعنى : فإن تعرضوا عن الإيمان فما ضررتم إلا أنفسكم ، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله اللّه تعالى من أداء الرسالة ، فإذا أدى فقد خرج عن

عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم ، أي : ما أمرتم به من الطاعة والإذعان ، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرّضتم نفوسكم لسخط اللّه وعقوبته. قال القشيري : قل يا محمد : أطيعوا اللّه ، فإن أجابوا ، سعدوا فى الدارين ، وإنما أحسنوا لأنفسهم. وإن تولوا فما أضروا إلا بأنفسهم ، ويكون اللوم فى المستقبل عليهم ، وسوف يلقون سوء عواقبهم. هـ.

وَإِنْ تُطِيعُوهُ فيما أمركم به من الهدى تَهْتَدُوا إلى الحق ، الذي هو المقصد الأصلى الموصل إلى كل خير ، والمنجى من كل شر ، وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح ، أو :

البيّن الوضوح لكونه مقرونا بالآيات والمعجزات المتواترة. والجملة مقررة لما قبلها من أن غائلة التولي وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم. واللام : إما للجنس المنتظم فيه – عليه الصلاة والسلام – انتظاما أوليا ، أو للعهد ، أي :

ما على جنس الرسول كائنا من كان ، أو ما عليه – عليه الصلاة والسلام – إلا التبليغ الواضح. وباللّه التوفيق.

الإشارة : ترى بعض الناس يقسمون باللّه جهد أيمانهم : لئن ظهر شيخ التربية وأمرهم بالخروج عن أموالهم وأنفسهم ليخرجن ، فلما ظهر تولوا وأعرضوا ، فيقال لهم : فإن تولوا فإنما عليه ما حمّل من الدلالة على اللّه ، والتعريف به ، وعليكم ما حملتم من الدخول تحت تربيته ، وإن تطيعوه تهتدوا إلى معرفة اللّه بالعيان ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

(٤/٥٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠

ثم وعد أهل الإخلاص بالنصر والتمكين ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥٥ الى ٥٦]

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)

قلت : (ليستخلفنهم) : جواب لقسم مضمر ، أو تنزيل وعده تعالى منزلة القسم ، و(كما) : الكاف : محلها النصب على المصدر التشبيهى ، أي : استخلافا كائنا كاستخلافه من قبلهم. و(ما) : مصدرية. و(يعبدوننى) : حال من الموصول الأول ، مقيدة للوعد بالثبات على التوحيد ، أو استئناف ببيان

مقتضى الاستخلاف ، و(لا يشركون) : حال من واو (يعبدوننى).

يقول الحق جل جلاله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أي : كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر من أي طائفة كان ، وفى أي وقت وجد ، لا من آمن من المنافقين فقط ، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة ، بحسب ظهور الوعد الكريم. و(من) : للبيان. وقيل : للتبعيض ، ويراد المهاجرون فقط «١». وَعَمِلُوا مع الإيمان الأعمال الصَّالِحاتِ ، وتوسيط المجرور بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام ، والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم ، وأهم ما يجب عليهم.

وأما تأخيره فى قوله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً «٢» فإن الضمير للذين آمنوا معه صلى اللّه عليه وسلّم فلا ريب أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة ، مثابون عليها ، فلا بد من ورود بيانهم بعد نعوتهم الجليلة بكمالها.

ثم ذكر الموعود به ، فقال : لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أي : ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيما تصرف الملوك فى مماليكهم ، والمراد بالأرض : أرض الكفار كلها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «ليدخلن هذا الدين ما دخل الليل والنهار» «٣» ،

---

(١) هذا التخصيص والقصر ، لا برهان عليه ، صحيح أن المقصود بالآية هم أولا ، المهاجرون والأنصار ، ولكن كل من تحققت فيه الآية ، فهو متحقق له التمكين – بإذن اللّه .. وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ...

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ١٠٣) والبيهقي فى الكبرى (٩/ ١٨١) والحاكم (٤/ ٤٣٠) وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث تميم الداري ، بلفظ : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، يعز بعز اللّه فى الإسلام ، ويذل به فى الكفر».

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كبنى إسرائيل ، استخلفهم اللّه فى مصر والشام ، بعد إهلاك فرعون والجبابرة ، ومن قبلهم من الأمم المؤمنة التي استخلفهم اللّه فى أرض من أهلكه اللّه بكفره. كما قال تعالى : فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ «١».

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ : عطف على لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ، داخل معه فى سلك الجواب ، وتأخيره عنه مع كونه

أصل الرغائب الموعودة وأعظمها لأن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل ، فتصدير المواعد بها فى الاستمالة أدخل ، والمعنى : ليجعل دينهم ثابتا متمكنا مقررا لا يتبدل ولا يتغير ، ولا تنسخ أحكامه إلى يوم القيامة. ثم وصفه بقوله : الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ ، وهو دين الإسلام ، وصفه بالارتضاء تأليفا ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه. وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ بالتشديد والتخفيف من الإبدال ، مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ من الأعداء أَمْناً.

نزلت حيث كان أصحاب رسول صلى اللّه عليه وسلّم قبل الهجرة عشر سنين ، أو أكثر ، خائفين ، ولمّا هاجروا كانوا بالمدينة يصبحون فى السلاح ويمسون فيه ، حتى قال رجل : ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ، ونضع السلاح ، فلما نزلت ، قال عليه الصلاة والسلام : «لا تصبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم ، محتبيا ، ليس معه حديدة» «٢» ، فأنجز اللّه وعده ، فأمنوا ، وأظهرهم على جزيرة العرب ، وفتح لهم بلاد المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملكوا خزائنهم ، واستولوا على الدنيا بحذافيرها. وفيه من الإخبار بالغيب ما لا يخفى. وقيل : الخوف والأمن فى الآخرة. ثم مدحهم بالإخلاص فقال : يَعْبُدُونَنِي وحدي ، لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً أي : حال كونهم موحدين غير مشركين بي شيئا من الأشياء ، شركا جليا ولا خفيا لرسوخ محبتهم ، فلا يحبون معه غيره ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ أي : بعد الوعد الكريم ، كفران النعمة ، أو الرجوع عن الإيمان ، كما فعل أهل الردة ، فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ الكاملون فى الفسق ، حيث كفروا تلك النعمة بعد ظهور عزها وأنوارها ، قيل : أول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان رضي اللّه عنه فاقتتلوا بعد ما كانوا إخوانا.

والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين لأن المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على ما ينبغى هم الخلفاء – رضي اللّه عنهم – .

---

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم. [.....]

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٥٩ – ١٦٠). وعزاه فى الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن أبى العالية. وانظر أسباب النزول للواحدى (٣٣٨).

ولمّا كان كفر من كفر بعد الوعد إنما كان بمنع الزكاة ، قرنه مع الصلاة فى الأمر به فقال : وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فمن فرّق بينهما فقد كفر ، وكان من الفاسقين. وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما دعاكم إليه وأمركم به ، ومن جملة ما أمر به : طاعة أمرائه وخلفائه لقوله : «عليكم بسنتى ، وسنّة الخلفاء الراشدين

من بعدي ، عضّوا عليها بالنواجذ» «١» ، فمن امتنع من دفع الزكاة لخليفته – كما فعل أهل الردة – فقد كفر ، ومن أداها إليه كما أمره اللّه فقد استوجب الرحمة ، لقوله : لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أي : لكى ترحموا ، فإنها من مستجلبات الرحمة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : سنة اللّه تعالى فى خواصه : أن يسلط عليهم فى بدايتهم الخلق ، فينزل بهم الذل والفقر والخوف من الرجوع عن الطريق ، ثم يعزهم ، ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، كما قال الشاذلى رضي اللّه عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ... إلخ كلامه.

قال القشيري : وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين ، الذين هم أركان السنّة «٢» ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباد اللّه ، الهادون من يسترشد فى اللّه. ثم قال : فأما حفاظ الدين فهم الأئمة والعلماء الناصحون لدين اللّه ، وهم أصناف : قوم هم حفّاظ أخبار الرسول صلى اللّه عليه وسلّم ، وحفّاظ القرآن ، وهم بمنزلة الخزنة ، وقوم هم علماء الأصول ، الرادّون على أهل العناد ، وأصحاب الابتداع ، بواضح الأدلة ، وهم بطارقة الإسلام وشجعانه ، وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم فى علوم الشريعة وفى العبادات وكيفية المعاملات ، وهم من الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى الملك ، وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق ، وهم فى الدّين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان وأرباب الأسرار ، الذين لا يبرحون فى عالى مجلس السلطان ، فالدين معمور بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة. هـ «٣». وتقدم مثله فى قوله : فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... إلخ «٤». واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر الفريق الثالث ، وهم الكفرة ظاهرا وباطنا ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٥٧]

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

---

(١) أخرجه – بطوله – أحمد فى المسند (٤/ ١٢٧) وأبو داود فى (السنة ، باب فى لزوم السنة ٥/ ١٣ – ١٤ ح ٤٦٠٧) والترمذي فى (العلم ، باب فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/ ٤٣ ، ح ٢٦٧٦) وابن ماجه فى (المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، ١/ ١٦ ح ٤٢) من حديث العرباض بن سارية.

قلت : والنواجذ آخر الأضراس ، واحدها : ناجذ. وأراد بذلك الجد فى لزوم السنة ، فعل من أمسك الشيء بين أضراسه ، وعضّ عليها ، منعا له أن ينتزع.

(٢) فى القشيري : «الملّة».

(٣) بتصرف.

(٤) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٣

يقول الحق جل جلاله : لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ أي : فائتين اللّه عن إدراكهم وإهلاكهم ، فى قطر من أقطار الأرض ، بل لا بد من أخذهم ، عاجلا أو آجلا ، والخطاب للرسول صلى اللّه عليه وسلّم أو لكل سامع. والَّذِينَ :

مفعول أول ، و(معجزين) : مفعول ثان. وقرأ حمزة والشامي بالغيب ، و(الذين) : فاعل ، والأول : محذوف ، أي :

لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين فِي الْأَرْضِ. ومَأْواهُمُ النَّارُ : معطوف على محذوف ، أي : بل هم مدركون ، وَمَأْواهُمُ النَّارُ أي : مسكنهم ومرجعهم ، وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ أي : واللّه لبئس المرجع هى. وفى إيراد النار ، بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم ، إثر نفى قوتهم بالهرب فى الأرض كل مهرب ، من الجزالة ما لا غاية وراءه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا تحسبن أهل الانتقاد على أولياء اللّه أنهم فائتون ، بل لا بد من غيرة اللّه عليهم ، عاجلا أو آجلا ، فى الظاهر أو الباطن ، ومأواهم نار القطيعة ولبئس المصير. وقال القشيري على هذه الآية : الباطل قد تكون له صولة لكنه يختل ، وما لذلك بقاء ، ولعل لبثه من عارض الشتاء فى القيظ ، أي : الحر. هـ «١». واللّه تعالى أعلم.

ثم تمم الكلام على الاستئذان المتقدم ، ووسط بينهما مواعظ تحث على الامتثال ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٥٨ الى ٥٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، ويدخل فيه النساء ، لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ من العبيد والإماء ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ أي : والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار ،

---

(١) العبارة فى لطائف الإشارات المطبوع : [إن الباطل قد تكون له دولة ، ولكنها تخييل ، ولذلك بقاء ، وأقل لبثا ، من عارض ينشأ عن القيظ].

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٤

ثَلاثَ مَرَّاتٍ فى اليوم والليلة ، وهى مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ لأنه وقت القيام من المضاجع ، وطرح ما ينام فيه من الثياب ، ولبس ثياب اليقظة ، وربما يجدهم فى هذا الوقت نائمين متجردين ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وهى نصف النهار فى القيظ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة ، وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة ، والالتحاف بثياب النوم. هى ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ ، ومن نصبه فبدل من ثَلاثَ مَرَّاتٍ أي : أوقات ثلاث عورات ، وسمى كل واحد من هذه الأوقات عورة لأن الإنسان يختل تستره فيها «١» ، والعورة : الخلل ، ومنه سمى الأعور لاختلال عينه.

روى أن غلاما لأسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كرهته ، فنزلت «٢». وقيل : أرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مدلج بن عمرو الأنصاري ، وكان غلاما ، وقت الظهيرة ، ليدعو عمر رضي اللّه عنه ، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه ، فقال عمر رضي اللّه عنه : لوددت أن اللّه تعالى نهى عن الدخول فى هذه الساعات إلا بإذن ، فانطلق إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فوجده وقد نزلت عليه هذه الآية «٣». والأمر ، قيل : للوجوب ، وقيل : للندب.

ثم عذرهم فى ترك الاستئذان فى غير هذه الأوقات ، فقال : لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ أي : لا إثم عليكم ولا على المذكورين من المماليك والغلمان فى الدخول بغير استئذان بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث ، أي : فى الأزمنة التي بين هذه العورات الثلاث.

ثم بيّن العلة فى ترك الاستئذان فى هذه الأوقات بقوله : طَوَّافُونَ أي : هم طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ لحاجة البيت والخدمة ، بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ أي : بعضكم طائف على بعض ، أو يطوف على بعض ، والجملة : إما بدل مما قبلها ، أو بيان ، يعنى : أنكم محتاجون إلى المخالطة والمداخلة ، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأفضى إلى الحرج ، وهو مدفوع بالنص ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ أي : كما بيّن الاستئذان ، يبين لكم غيره من الآيات التي تحتاجون إلى بيانها ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بمصالح عباده ، حَكِيمٌ فيما دبّر وحكم به.

وَإِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ أي : الأحرار دون المماليك الْحُلُمَ أي : الاحتلام ، وهو البلوغ ، وأرادوا الدخول عليكم فَلْيَسْتَأْذِنُوا فى جميع الأوقات. قال القرطبي : لم يقل : فليستأذنوكم ، وقال فى الأولى :

---

(١) فى الأصول : «ستره» ، والمثبت من تفسير النسفي.

(٢ – ٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٠٣) والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٣٩) والبغوي فى التفسير (٦/ ٦٠) عن مقاتل ، بدون إسناد.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٥

لِيَسْتَأْذِنْكُمُ لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبدين. هـ. قلت : فالمخاطبون فى الأولى هم الأولياء بتعليمهم الاستئذان وإيصائهم به ، وهنا صاروا بالغين ، فأمرهم بالاستئذان كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : الذين بلغوا الحلم من قبلهم ، وهم الرجال المذكورون فى قوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ... «١»

الآية. والمعنى : أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن ، إلا فى العورات الثلاث ، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا الحلم وجب أن يفطموا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا فى جميع الأوقات ، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.

والناس عن هذه غافلون. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : ثلاث آيات جحدهن الناس : الإذن كله ، وقوله : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ «٢» ، وقوله : وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ .. «٣». وعن سعيد بن جبير : (يقولون : إنها منسوخة ، واللّه ما هى بمنسوخة) «٤». وعن ابن عباس أيضا قال : إنما أمروا بها حين لم يكن للبيوت الستر ، فلما وجدوا ذلك استغنوا عن الاستئذان. وعن أبى محمد مكى : هذا الأمر إنما كان من اللّه للمؤمنين إذ كانت البيوت بغير أبواب. قلت : أما باعتبار الأجانب فالأبواب تكفى ، وأما باعتبار المماليك والأطفال الذين يلجون الدار من غير حجر فلا تكفى الأبواب فى حقهم ، فلا بد من الاستئذان كما فى الآية.

كَذلِكَ أي : مثل ذلك البيان العجيب يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ. قال ابن عرفة : قال قبل هذه وبعدها : الآيات ، وفى هذه : آياته لوجهين ، الأول : هذه خاصة بالأطفال ، وما قبلها عامة فى العبيد والأطفال ، فأطلقت الآية ، ولم تقيد بالإضافة ، وهذه خاصة ، فعبّر عنها بلفظ خاص. الثاني : أن الخطاب بما هنا للبالغين ، فأسند فيه الحكم إلى اللّه تعالى ، تخويفا لهم وتشديدا عليهم. هـ. والمتبادر أنه تفنن. قاله المحشى الفاسى. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فيما أمر ودبر.

الإشارة : إنما أمر اللّه بالاستئذان لئلا يكشف السر إلى غير أهله غيرة منه تعالى على كشف أسرار عباده ، وإذا كان غار على كشف سر عبده ، فغيرته على كشف أسرار ذاته أولى وأحرى ، فيجب كتم أسرار الذات عن غير أهله ، وكل من خصه اللّه بسر وجب كتمه إلا على من هو أهل له ، وهو من أعطى نفسه وماله ، وباعهما للّه تعالى.

وكل من أطلع على سر من سرار اللّه أو قضاء من قضائه ، ثم استشرف أن يعلم الناس بذلك فهو كذاب. وفى الحكم :

«استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيّتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك». وباللّه التوفيق.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النور.

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

(٣) الآية ٨ من سورة النساء. والخبر عزاه ابن كثير فى التفسير (٣/ ٣٠٣) لابن أبى حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (١٨/ ١٦٣).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٦

ثم رخّص للعجائز فى عدم التستر من الرجال ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٦٠]

وَالْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

قلت : «القواعد» جمع قاعد ، بغير تاء لأنهما من الصفات المختصة بالنساء ، كالطالق والحائض ، فلا تحتاج إلى تمييز ، وهو مبتدأ ، و(اللاتي ..) إلخ : صفة له ، (فليس) : خبر ، وأدخلت الفاء لما فى المبتدأ من معنى الشرط من العموم الذي فى الألف واللام. و(يرجون) : مبنى لاتصاله بنون النسوة. يقول الحق جل جلاله : وَالْقَواعِدُ أي : العجائز مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي قعدن عن الحيض والولادة لكبرهنّ. قال ابن قتيبة : سمين بذلك لأنهن بعد الكبر يكثرن القعود. ويقرب منه من فسره بالقعود عن التصرف للكبر ، والظاهر أن قوله : لا يَرْجُونَ نِكاحاً : نعت مخصّص ، إن فسّر القعود فيها بالقعود عن الحيض والولد لأنه قد يكون فيها مع ذلك رغبة للرجال. وقد يجعل كاشفا إذا فسر القعود باستقذار الرجال لهن من عزوف النفس عنهن ، فقوله : لا يَرْجُونَ نِكاحاً أي : لا يطمعن فى رغبة الرجال فيهن ، فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ فى أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ أي : الثياب الظاهرة ، كالجلباب الذي فوق الخمار ونحوه.

قال ابن عطية : قرأ ابن مسعود وأبىّ : «أن يضعن من ثيابهن». والعرب تقول : امرأة واضع ، للتى كبرت فوضعت خمارها ، قال فى الحاشية : والآية صادقة بما إذا دخل أجنبى بعد الاستئذان ، وبخروجهن أيضا ، ومن التبرج : لبس ما يصف لكونه رقيقا ، أو : شفافا. هـ.

ثم قيّد الرخصة بقوله : غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ أي : مظهرات زينة ، يريد الزينة الخفية ، كالشعر والنحر

والساق ونحوه ، أي : لا يقصدن بوضعهن التبرج وإظهار محاسنها ، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرج : تكلّف إظهار ما يجب إخفاؤه ، من قولهم : سفينة بارجة : لا غطاء عليها ، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها أو محل حسنها للرجال.

وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ أي : يطلبن العفة عن وضع الثياب ، فيتسترن خَيْرٌ لَهُنَّ من الانكشاف ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أي : سميع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة ، عليم ، فيعلم مقاصدهن وسرائرهن فى قصد التخفيف أو التبرج ، وفيه من الترهيب ما لا يخفى.

الإشارة : إذا كمل تهذيب الإنسان وإخلاصه ، وكمل استغناؤه بربه ، فلا بأس أن يظهر من أحواله وعلومه ما يقتدى به ويهتدى ، ليعم الانتفاع به. فإن خيف منه تهمة فالاستعفاف والاكتفاء بعلم اللّه خير له. واللّه سميع عليم.

(٤/٦٦)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٧

ثم أسقط الحرج عن الأعمى فى الاستئذان ، واستطرد معه غيره ، ممن اشترك معه فى مطلق العذر ، وإن اختلف المرخّص فيه ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٦١]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ فى الدخول من غير استئذان لأنه لا يتوقع منه نظر لما يكره. وكذلك لا حرج عليه فيما لا قدرة له عليه من الجهاد وغيره ، ثم استطرد من شاركه فى مطلق العذر فقال : وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ فيما لا يقدر عليه من الجهاد وغيره ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ فى ذلك.

وقال سعيد بن المسيّب : كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم ، فكانوا يتحرجون من ذلك ، ويقولون : نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك ، فنزلت الآية ، رخصة لهم «١». وقيل : كانوا يتحرجون من الأكل معهم لأن الأعمى لا يبصر الطيب من الطعام ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة عليه ،

والمريض لا يستطيع استيفاءه «٢». هـ.

وَلا عَلى أَنْفُسِكُمْ أي : لا حرج عليكم أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أي : البيت الذي فيه أهل بيتكم أزواجكم وعيالكم ، فإذا كان للزوجة أو للولد هناك شيء منسوب إليهما فلا بأس للرجل بأكله لأن الزوجين صارا كنفس واحدة ، فصار بيت المرأة بيت الزوج. وقيل : المراد ببيوتكم : بيوت أولادكم ، فجعل بيوت أولادهم بيوتهم لأن ولد الرجل من كسبه ، وماله كماله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : «أنت ومالك لأبيك» «٣» ، ولذلك لم يذكر الأولاد في الآية لاندراجهم في بيوتكم.

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٤٠) عن سعيد بن المسيب ، وعزاه في مجمع الزوائد (٧/ ٨٣) للبزار ، وابن أبي حاتم وابن مردويه ، وابن النجار ، عن السيدة عائشة – رضى اللّه عنها. وقال الهيثمي : رجال البزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٦٨) وذكره الواحدي في أسباب النزول (٣٣٩) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

(٣) أخرجه ، من حديث جابر ، ابن ماجة في (التجارات ، باب ما للرجل من مال ولده ، ح ٢٢٩١) ، وأخرجه من حديث ابن مسعود ، الطبراني في الأوسط (١/ ٢٢ ح ٥٧) ، وأخرجه من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، الإمام أحمد في المسند (٢/ ٢٠٤) ، وأبو داود في (البيوع/ ح ٣٥٢٨ – ٣٥٢٩) ، وابن ماجه في الموضع السابق ذكره (ح/ ٢٢٩٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٨

ولا حرج عليكم أيضا أن تأكلوا من بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ الذكور أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ النساء ، أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ لأن الإذن من هؤلاء ثابت دلالة. واختلف العلماء في إباحة الأكل من هذه البيوت المذكورة ، فقيل : إنه منسوخ وإنه لا يجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه ، والناسخ : وَلا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ «١» ، وقوله – عليه الصلاة والسلام – : «لا يحلّ مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس» «٢». وقيل : محكمة ، ومعناها : إذا أذنوا في ذلك ، وقيل : ولو بغير إذن ، والتحقيق : هو التفصيل : فمن علم منه طيب نفسه وفرحه بذلك بقرينة : حلّ أكل ماله ، ومن لا فلا.

أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ قال ابن عباس : هو وكيل الرجل وقيّمه في ضيعته وماشيته ، له أن يأكل من ثمرة ضيعته ، ويشرب من لبن ماشيته. والمراد بملك المفاتح : كونها في يده وتحت حوزه. وقيّده ابن العربي

بما إذا لم تكن له أجرة ، وإن كانت له أجرة على فعله حرم ، يعنى : إلا إذا علم طيب نفس صاحبه فيدخل فى الصديق.

وقيل : أريد به بيت عبده لأن العبد وما فى يده لمولاه.

أَوْ صَدِيقِكُمْ أي : أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون واحدا وجمعا ، وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك ، يؤلمه ما يؤلمك ويؤلمك ما يؤلمه ، ويسرك ما يسره كذلك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب ، فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء ، فإذا حضر مولاها أعتقها سرورا بذلك ، فأما الآن فقد غلب الشحّ فلا يأكل إلا بإذن. قاله النسفي «٣».

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً : مجتمعين أَوْ أَشْتاتاً : متفرقين ، جمع شتّ ، نزلت فى بنى ليث بن عمرو ، كانوا يتحرّجون أن يأكل الرجل وحده ، فربما قعد منتظرا نهاره إلى الليل ، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكل أكل ضرورة. وقيل : فى قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا. وقيل : فى قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل ، وزيادة بعضهم على بعض ، فخيّرهم. وقيل : كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته ، ودعاه إلى طعام ، فيقول : إنى أتحرج أن آكل معك ، وأنا غنى وأنت فقير ، فأباح لهم ذلك. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٧٢) فى حديث خطبة الوداع الطويل ، والبيهقي فى الكبرى (٦/ ١٠٠) عن أبى حرة الرشاقى ، عن عمه. وأخرجه الديلمي (الفردوس ح ٧٦٣٥) والدار قطنى (٣/ ٢٦) ، من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

(٣) انظر تفسير النسفي (٢/ ٥٢٠).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٩

الإشارة : ليس على من عميت بصيرته ، فلم ير إلا الكون حرج فى أن يقف مع رخص الشريعة ، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه ، مما أباحته الشريعة ، من غير تورع ولا توقف ولا تبصر. وكذلك المريض القلب بالخواطر والأوهام ، ومن عرجت فكرته عن شهود الملكوت ، فلا بأس لهؤلاء الضعفاء أن يقفوا مع العوائد والأسباب ، ويتناولوا كل ما أباحته ظواهر الشريعة ، وأما الأقوياء فلا يأخذون إلا ما تحققوا حلّيّته ، وفهموا عن اللّه فى أخذه وتركه ، لفتح بصيرتهم وشدة تبصّرهم.

وقال الورتجبي فى قوله : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ : عماه الحقيقي ألا يطيق أن ينظر بطون الأزل والغيب وغيب الغيب. وهذا من قوله – عليه الصلاة والسلام – فى وصف جمال الحق سبحانه : «حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». فجعله معذورا ألا يدرك فى الحقيقة وحقيقة الحق إذ يستحيل الحدث أن يحيط بالقدم أن كان واجبا معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد. هـ. ومراده ببطون الأزل : تجلياته تعالى ، البارزة من وسط بحر جبروته الغيبى ، وهى المراد بالغيب وغيب الغيب ، فالأكوان كلها برزت من بحر الذات الأزلية والكنز الغيبى ، لكنها ، لما تجلت ، كستها رداء الكبرياء ، فمن فتحت بصيرته رأى الحق تعالى فيها ، أو قبلها ، أو معها ، ومن عميت بصيرته لم ير إلا حس الأكوان الظّلمانيّة. واللّه تعالى أعلم.

ومذهب الصوفية فى تناول متاع بعضهم بعضا هو ما قال القائل : «نحن : لا مال مقسوم ، ولا سرّ مكتوم ، فتركتهم لا تقسم أبدا». دخل الجنيد بيت بعض إخوانه ، فوجد زوجته ، فقال : هل عندك شيء نطعم به الفقراء؟

فأشارت إلى وعاء فيه تمر ، لا يملك غيره ، فأفرغه على رأسه ، فأكلوا ، وأخذوا ما بقي ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك ، فقال : الآن علمت أنه يحبنى.

ثم أمر بالسلام بعد الاستئذان ، فقال :

فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ يقول الحق جل جلاله : فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً من البيوت المذكورة أو غيرها بعد الإذن ، فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ أي : فابدأوا بالسلام على أهلها ، الذين هم منكم ، الذين هم بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٠

الدينية أو النّسبيّة. أو بيوتا فارغة ، أو مسجدا ، بأن تقولوا : السلام عليكم ، أو السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، إن كانت خاوية. تَحِيَّةً ، من نصب فعلى المصدر لسلّموا لأنها فى معنى تسليما ، مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أي : بأمره مشروعة من لدنه ، أو لأنها طلب للسلامة ، وهى بيد اللّه ، مُبارَكَةً : مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما ، طَيِّبَةً : تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي اللّه عنه أنه – عليه الصلاة والسلام – قال : «من لقيت أحدا من أمتى فسلم عليه ، يطل عمرك. وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين» «١».

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ ، تكرير لتأكيد الأحكام المختتمة وتفخيمها ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ : لكى تعقلوا

ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام ، وتعملوا بموجبها ، فتفوزوا بسعادة الدارين. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : السلام على النفس : هو طلب الأمان لها ومنها ، فإذا سلمت النفس من موجبات الغضب من اللّه ، سلم صاحبها منها ، قال القشيري : السلام : الأمان ، فسبيل المؤمن إذا دخل بيتا أن يسلّم من اللّه على نفسه ، يعنى : بأن يقول السلام علينا وعلى عباد اللّه الصالحين ، وأن يطلب السلامة والأمان من اللّه تعالى ، لتسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضى اللّه ، إذ لا يحل لمسلم أن يفتر لحظة عن الاستجارة باللّه ، بأن لا يرفع عنه ظل عصمته بإدامة حفظه من الاتصاف بمكروه الشرع. هـ.
ولمّا تكلم على الاستئذان فى الدخول ، تكلم على الاستئذان فى الخروج ، إذا كان مع كبير القوم ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : آية ٦٢]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، إنما ذكر الإيمان باللّه ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبرا للمبتدأ ، مع تضمنه له تقريرا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده ، وإيذانا بأن ما بعده حقيق بأن يجعل قرينا للإيمان بهما ومنتظما فى سلكه.

---

(١) أخرجه مطولا ، البيهقي فى شعب الإيمان (ح ٨٧٥٨) ، وزاد المناوى عزوه فى الفتح السماوي (٢/ ٨٧٩) للثعلبى والجرجاني فى تاريخ جرجان ، وسنده ضعيف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧١

وَإِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ : عطف على (آمنوا) ، داخل فى حيز الصلة ، أي : إنما الكاملون فى الإيمان : الذين آمنوا باللّه ورسوله عن صميم قلوبهم ، وأطاعوه فى جميع الأحكام والأحوال المطردة الوقوع ، والأحوال الواقعة بحسب الاتفاق ، كما إذا كانوا معه – عليه الصلاة والسلام – على أمر مهم يجب الاجتماع فى شأنه كالجمعة ، والأعياد ، والجهاد ، وتدريب الحروب ، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع ، لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، ويأذن لهم ، ولو كان الأمر يقوم بدونهم ، ليتميز المخلص من المنافق ، فإن ديدنه التسلل للفرار ، ولتعظيم الجرم لما فى الذهاب بغير إذنه صلى اللّه عليه وسلّم من الخيانة.

ولمّا أراد الحقّ تعالى أن يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بغير إذنه ، إذا كانوا معه على أمر جامع ، جعل ترك ذهابهم والصبر معه ، حتى يأذن لهم : ثالث الإيمان ، وجعل الإيمان برسوله كالسبب له ، والبساط لذكره ، وذلك مع تصدير الجملة ب «إنما ، ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث أعاده على أسلوب آخر ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فقضى بأن المستأذنين هم المؤمنون خاصة. وفى «أولئك» : من تفخيم المستأذنين ، ما لا يخفى ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ فى الانصراف لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ أي : أمرهم المهم وخطبهم الملم. فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ لما علمت فى ذلك من مصلحة وحكمة.

وهذا بيان لما هو وظيفته صلى اللّه عليه وسلّم فى هذا الباب ، إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين ، وأن الإذن منه – عليه الصلاة والسلام – ليس بأمر محتوم ، بل هو مفوّض إلى رأيه عليه الصلاة والسلام ، وفيه من رفع شأنه صلى اللّه عليه وسلّم ما لا يخفى.

والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : بعد ما تحقق أن الكاملين فى الإيمان هم المستأذنون. فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ، فإن الاستئذان ، وإن كان لعذر ، فقد لا يخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة ، ففيه دليل على أن الصبر وترك الاستئذان أفضل. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ مبالغ فى غفران فرطات العباد ، وفى إفاضة آثار الرحمة عليهم.

وما ذكره الحق تعالى فى شأن الصحابة مع الرسول – عليه الصلاة والسلام – فى شأن الاستئذان ينبغى أن يكون كذلك مع أئمتهم ومقدّميهم فى العلم والدين ، لا يتفرقون عنهم إلا بإذن. والآية نزلت فى الخندق ، كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان ، فنزلت «١». وبقي حكمها عاما إلى يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ١١٠) لابن إسحاق وابن المنذر ، والبيهقي فى الدلائل ، عن عروة ومحمد بن كعب القرظي.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٢

الإشارة : من آداب الفقراء مع شيخهم ألا يتحركوا لأمر إلا بإذنه ، أما أهل البدايات فيستأذنون فى الجليل والحقير ، كقضية الفقير الذي وجد بعض الباقلاء – أي : الفول – فى الطريق ، فأتى بها إلى الشيخ ، فقال : يا سيدى ما نفعل به؟ فقال : اتركه ، حتى تفطر عليه ، فقال بعض الحاضرين : يستأذنك فى الباقلاء؟ فقال : لو خالفنى فى أمر لم يفلح أبدا. وأما أهل النهايات الذين عرفوا الطريق ،

واستشرفوا على عين التحقيق ، وحصلوا على مقام الفهم عن اللّه ، فلا يستأذنون إلا فى الأمر المهم كالتزوج ، والحج ، ونحوهما. وصبره حتى يأمره الشيخ بذلك أولى ، فالمريد ، بقدر ما يترك تدبيره مع الشيخ ، ويتحقق بالتفويض معه قبل الوصول ، كذلك يتركه ويتحقق تفويضه مع اللّه بعد الوصول.

فالأدب مع الشيخ هو الأدب مع اللّه ، لكن لما كان من شأن العبد الجهل باللّه وسوء الأدب معه أمره بالتحكيم لغيره من جنسه ، فإذا حكم جنسه على نفسه قبل المعرفة حكم اللّه على نفسه بعد المعرفة. والتحكيم فى غاية الصعوبة على النفس ، لا يرضاها إلا من سبقت له الهداية ، وجذبته جواذب العناية ، أعنى الدخول تحت الشيخ وتحكيمه على نفسه ، حتى لا يتحرك إلا بإذنه ، فهذا سبب الوصول إلى مقام الشهود والعيان ، فإذا فعل المريد شيئا من غير استئذان فليتب وليطلب من الشيخ الاستغفار له. وينبغى للشيخ أن يقبل العذر ويسامح ويستغفر له ، لقوله تعالى : وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، فالخليفة لرسول اللّه قائم مقامه ، ونائب عنه فى رتبة التربية. واللّه تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن التساهل فى ترك الاستئذان ، فقال :

[سورة النور (٢٤) : الآيات ٦٣ الى ٦٤]

لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)

يقول الحق جل جلاله : لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً أي : إذا احتاج الرسول صلى اللّه عليه وسلّم إلى اجتماعكم لأمر جامع ، فدعاكم ، فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه ، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٣

بعضا ، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الراعي لأن أمره – عليه الصلاة والسلام – وشأنه ليس كشأنكم. أو :

لا تجعلوا دعاء الرسول على أحد ، كدعاء بعضكم بعضا ، فإنّ غضبه عليه ليس كغضبكم لأن غضبه غضب اللّه ، ودعاؤه مستجاب. وهذا يناسب ما قبله من جهه التحذير عن ترك الاستئذان ، فإنّ من رجع بغير استئذان معرض لغضبه – عليه الصلاة والسلام – ودعائه عليه. أو : لا تجعلوا نداءه صلى اللّه عليه وسلم كنداء بعضكم بعضا كندائه باسمه ، ورفع الصوت عليه ، وندائه من وراء الحجرات ، ولكن بلقبه المعظم يا رسول اللّه ، يا نبى اللّه ، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت.

قال القشيري : أي : عظّموه فى الخطاب ، واحفظوا حرمته وخدمته بالأدب ، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتوقير. هـ. فالإضافة ، على الأولين : للفاعل ، وعلى الثالث للمفعول ، لكنه بعيد من المناسبة لما قبله ولما بعده فى قوله : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ أي : يخرجون قليلا على خفية منكم ، لِواذاً أي : ملاوذين ، بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج ، أو يلوذ بمن يخرج بالإذن إراءة أنه من أتباعه. أو مصدر ، أي : يلوذون لواذا.

واللواذ : الملاوذة ، وهى التعلق بالغير ، وهو أن يلوذ هذا بهذا فى أمر ، أي : يتسللون عن الجماعة خفية ، على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض.

ثم هددهم على المخالفة بقوله : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أي : الذين يصدون عن أمره ، يقال : خالفه إلى الأمر : إذا ذهب إليه دونه ، ومنه : وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ «١» ، وخالفه عن الأمر : إذا صد عنه. والضمير : إما لله سبحانه ، أو للرسول – عليه الصلاة والسلام – ، وهو أنسب لأنه المقصود بالذكر.

والمعنى : فليحذر الذين يخالفون عن طاعته ودينه وسنّته ، أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ محنة فى الدنيا كقتل أو زلازل وأهوال ، أو تسليط سلطان جائر ، أو عدو ، أو قسوة قلب ، أو كثرة دنيا استدراجا وفتنة.

قال القشيري : سعادة الدارين فى متابعة السّنّة ، وشقاوتهما فى مخالفتها ، ومما يصيب من خالفها : سقوط حشمة الدين عن القلب. هـ.

أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فى الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب ، وكلمة «أو» : لمنع الخلو ، دون منع الجمع. وإعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة هود.

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من الموجودات ، خلقا وملكا وتصرفا ، وإيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، و«ألا» : تنبيه على أن لا يخالفوا من له ما فى السموات والأرض. قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ أيها المكلّفون ، من الأحوال والأوضاع ، التي من جملتها الموافقة والمخالفة ، والإخلاص والنفاق. وأدخل «قد» ليؤكد علمه بما هم عليه ، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى : أن جميع ما استقر فى السموات تحت ملكه وسلطانه وإحاطة علمه ، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين ، وإن اجتهدوا فى سترها؟! وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ أي : ويعلم يوم يردون إلى جزائه ، وهو يوم القيامة. والخطاب والغيبة فى

قوله : قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ يجوز أن يكون للمنافقين ، على طريق الالتفات ، ويجوز أن يكون ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ عاما ، ويُرْجَعُونَ للمنافقين. فَيُنَبِّئُهُمْ حينئذ بِما عَمِلُوا من الأعمال السيئة ، التي من جملتها : مخالفة الأمر ، ليرتب على ذلك الإنباء ما يليق به من التوبيخ والجزاء.

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. روى عن ابن عباس رضي اللّه عنه : أنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم ، وفسرها على وجه لو سمعته الروم لأسلمت. هـ.

وأما ما ورد فى فضل السور فموضوع ، وقد غلط من ذكره من المفسرين. وباللّه التوفيق.

الإشارة : شيوخ التربية خلفاء الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى القيام بالتربية النبوية ، فيجب امتثال كل ما أمروا به ، واجتناب كل ما نهوا عنه ، فهم معناه أو لم يفهم. فإذا كانوا مجموعين على أمر جامع لم يذهب أحد حتى يستأذن شيخه ، ولا يكفى إذن بعض الفقراء ، إلا إن وجّهه الشيخ لذلك ، فلا يكون دعاء الشيخ كدعاء بعضكم بعضا فى التساهل فى مخالفة أمره ، أو امتثال أمره. قد يعلم اللّه الذين يتسللون ، فيفرون عنه لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة كتسليط الدنيا عليه فتفتنه وتنسخ حلاوة الشهود من قلبه ، أو يصيبهم عذاب أليم ، وهو السلب بعد العطاء ، والعياذ باللّه من الزلل ومواقع الضلال. نسأل اللّه تعالى أن يثبت قدمنا على المنهاج الحق ، وأن يميتنا على المحبة والتعظيم ، ورسوخ القدم فى معرفة الرحمن الرحيم. آمين. وصلى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، النبي الكريم ، وعلى آله وصحبه ، وسلم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٥

سورة الفرقان

مكية. وهى سبع وسبعون آية. ومناسبتها لما قبلها : ما فى خاتمتها من تعظيم الرسول – عليه الصلاة والسلام – وما افتتحت به من تعظيمه أيضا لكونه نذيرا للعالمين. وناسب قوله فى هذه : الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، قوله فيما قبلها : أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «١».

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً (٢)

يقول الحق جل جلاله : تَبارَكَ أي : تكاثر خيره وتزايد ، أو : دام واتصل. وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله ، والمستعمل منها الماضي فقط ، والتفاعل فيها للمبالغة. ومعناها راجع إلى ما يفيض سبحانه

على مخلوقاته من فنون الخيرات ، التي من جملتها : تنزيل القرآن ، المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية ، أي :

تعاظم الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ أي : القرآن ، مصدر فرق بين اثنين ، إذا فصل بينهما. سمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، أو : لأنه لم ينزل جملة ، ولكن مفروقا مفصولا بين أجزائه شيئا فشيئا ، ألا ترى إلى قوله : وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ «٢»؟

أنزله عَلى عَبْدِهِ محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وإيراده – عليه الصلاة والسلام – بذلك العنوان لتشريفه ، والإيذان بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ردا على النصارى. أنزله لِيَكُونَ العبد المنزل عليه ، أو الفرقان لِلْعالَمِينَ من الثقلين ، زاد بعضهم : والملائكة ، أرسل إليهم ليتأدبوا بأدبه ، حيث لم يقف مع مقام ولا حال ، ويقتبسوا من أنواره ، وهو حكمة الإسراء ، وقيل : حتى إلى الحيوانات والجمادات ، أمرت بطاعته فيما يأمرها به ، وبتعظيمه – عليه الصلاة والسلام – . وهذا كله داخل فى العالمين لأن ما سوى اللّه كله عالم كما تقدم فى الفاتحة. وعموم الرسالة من خصائصه – عليه الصلاة والسلام – . نَذِيراً أي : مخوّفا ، وعدم التعرض للتبشير لأن الكلام مسوق لأحوال الكفرة ، ولا بشارة لهم.

---

(١) الآية الأخيرة من سورة النور.

(٢) من الآية ١٠٦ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٦

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له ، خاصة ، دون غيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا. فالقهرية لازمة لهما ، المستلزمة للقدرة التامة والتصرف الكلى ، إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وأمرا ونهيا ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح – عليهما السلام – ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ كما زعمت الثنوية القائلون بتعدد الآلهة ، والرد فى نحورهم.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ أي : أحدث كل شىء وحده ، لا كما تقول المجوس والثنوية من النور والظلمة. أي : أظهر كل شىء فَقَدَّرَهُ أي : فهيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به ، تَقْدِيراً بديعا ، لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك ، والنظر والتدبير فى أمور المعاش والمعاد ، واستنباط الصنائع المتنوعة ، والدلائل المختلفة ، على وجود الصانع. أو : فقدّره للبقاء إلى أبد معلوم. وأيّا ما كان ، فالجملة تعليل لما قبلها ، فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك الشكل البديع

والنظام الرائق ، وكل ما سواه تحت قهره وسلطانه ، كيف يتوهم أنه ولد لله سبحانه ، أو شريك له فى ملكه. تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

الإشارة : عبّر بالعبودية فى التنزيل والإسراء إشارة إلى أن كل من تحقق بالعبودية الكاملة له حظ من تنزيل الفرقان على قلبه ، حتى يفرق بين الحق والباطل ، وحظ من الإسراء بروحه إلى عالم الملكوت والجبروت ، حتى يعاين عجائب أسرار ربه. وما منع الناس من تنزل العلوم اللدنية على قلوبهم ، ومن العروج بروحهم ، إلا عدم التحقق بالعبودية الكاملة لربهم ، حتى يكونوا مع مراده ، لا مع مرادهم ، لا يريدون إلا ما أراد ، ولا يشتهون إلا ما يقضى ، قد تحرروا من رقّ الأشياء ، واتحدت عبوديتهم للواحد الأعلى. فإذا كانوا كذلك صاروا خلفاء الأنبياء ، يعرج بأرواحهم ، ويوحى إلى قلوبهم ما يفرقون به بين الحق والباطل ، ليكونوا نذرا لعالمى زمانه قال تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ «١». وبالله التوفيق.

ثم ردّ على أهل الشرك ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٣]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً (٣)

---

(١) الآية ٢٤ من سورة فاطر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٧

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّخَذُوا أي : الكفار المدرجون تحت العالمين المنذرين ، اتخذوا لأنفسهم مِنْ دُونِهِ تعالى آلِهَةً أصناما ، يعبدونها ويستعينون بها ، وهم لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً أي : لا يقدرون على خلق شىء من الأشياء ، وَهُمْ يُخْلَقُونَ كسائر المخلوقات. والمعنى : أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والخلق ، والملك والتقدير ، عبادا عجزة ، لا يقدرون على خلق شىء ، وهم مخلوقون ومصورون. وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً أي : لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضر عنها ، ولا جلب نفع لها. وهذا بيان لغاية عجزهم وضعفهم فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع ضر وجلب نفع فى الجملة ، وهؤلاء لا يقدرون على شىء البتة ، فكيف يملكون نفع من عبدهم ، أو ضرر من لم يعبدهم؟! وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً أي : إماتة وَلا حَياةً أي : إحياء وَلا نُشُوراً بعثا بعد الموت ، أي : لا يقدرون على إماتة حى ، ولا نفخ الروح فى ميت ، ولا بعث للحساب والعقاب. والإله يجب أن يكون قادرا

على جميع ذلك.

وفيه إيذان بغاية جهلهم ، وسخافة عقولهم ، كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نفى عن آلهتهم مما ذكر ، مفتقرون إلى التصريح لهم بها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : كل من ركن إلى غير اللّه ، أو مال بمحبته إلى شيء سواه ، فقد اتخذ من دونه إلها يعبده من دون اللّه. وكل من رفع حاجته إلى غير مولاه ، فقد خاب مطلبه ومسعاه لأنه تعلق بعاجز ضعيف ، لا يقدر على نفع نفسه ، فكيف ينفع غيره؟ وفى الحكم : «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف ترفع إلى غيره ما كان هو له واضعا؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه ، فكيف يكون لها عن غيره رافعا؟».

قال بعض الحكماء : من اعتمد على غير اللّه فهو فى غرور لأن الغرور ما لا يدوم ، ولا يدوم شيء سواه ، وهو الدائم القديم ، لم يزل ولا يزال ، وعطاؤه وفضله دائمان ، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء ، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ. وقال وهب بن منبه : أوحى اللّه تعالى إلى داود : يا داود أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بي عبد من عبادى دون خلقى ، أعلم ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا. أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى ، أعلم ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ، ولا أبالى فى أي واد هلك. هـ. وباللّه التوفيق.

ولما ذكر شأن الفرقان ، ذكر من طعن فيه وفيمن نزل عليه ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤ الى ٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٦) وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (٧) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً (٨)

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٨

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : تمردوا فى الكفر والطغيان. قيل : هم النضر ابن الحارث ، وعبد اللّه بن أمية ، ونوفل بن خويلد ، ومن ضاهاهم. وقيل : النضر فقط ، والجمع لمشايعة

الباقين له فى ذلك. قالوا : إِنْ هَذا ما هذا القرآن إِلَّا إِفْكٌ كذب مصروف عن وجهه افْتَراهُ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه ، وَأَعانَهُ عَلَيْهِ أي : على اختلاقه قَوْمٌ آخَرُونَ ، يعنون : اليهود ، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارسة ، وهو يعبر عنها بعبارته. وقيل : هم عدّاس ، ويسار «١» ، وأبو فكيهة الرومي ، كان لهم علم بالتوراة والإنجيل. ويحتمل : وأعانه على إظهاره وإشاعته قوم آخرون ، ممن أسلم معه صلى اللّه عليه وسلم.

قال تعالى : فَقَدْ جاؤُ ، وأتوا ظُلْماً أو : بظلم ، فقد تستعمل (جاء) بمعنى فعل ، فتتعدى تعديته ، أو بحرف الجر ، والتنوين للتفخيم ، أي : جاءوا ظلما هائلا عظيما حيث جعلوا الحق البيّن ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إفكا مفترى من قول البشر ، وجعلوا العربي الفصيح يتلقى من العجمي الرومي ، وهو من جهة نظمه الفائق وطرازه الرائق لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن مثل آية من آياته. ومن جهة اشتماله على الحكم العجيبة ، المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية ، والأمور الغيبية ، بحيث لا يناله عقول البشر ، ولا تفى بفهمه الفهوم ، ولو استعملوا غاية القوى والقدر. وَأتوا أيضا زُوراً أي : كذبا كثيرا ، لا يبلغ غايته حيث نسبوا إليه صلى اللّه عليه وسلم ما هو برىء منه. وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ أي : هو أحاديث المتقدمين ، وما سطروه من خرافاتهم كرستم وغيره. جمع أسطار ، أو : أسطورة ، اكْتَتَبَها كتبها لنفسه ، أو : استكتبتها فكتبت له ، فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ أي : تلقى عليه من كتابه بُكْرَةً : أول النهار وَأَصِيلًا آخره ، فيحفظ ما يتلى عليه ثم يتلوه علينا. انظر هذه الجرأة العظيمة ، قاتلهم اللّه ، أنى يؤفكون؟

---

(١) فى الأصول : سيار.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٧٩

قُلْ يا محمد : أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : يعلم كل سر خفى فى السماوات والأرض ، يعنى : أن القرآن : لما اشتمل على علم الغيوب ، التي يستحيل عادة أن يعلمها محمد صلى اللّه عليه وسلم من غير تعلم إلهى ، دلّ على أنه من عند علام الغيوب ، أي : ليس ذلك مما يفترى ويختلق ، بإعانة قوم ، وكتابة آخرين من الأحاديث والأساطير المتقدمة ، بل هو أمر سماوى ، أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء ، أودع فيه فنون الحكم والأحكام ، على وجه بديع ، لا تحوم حوله الأفهام ، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته ، وأخبركم بأمور مغيبات ، وأسرار مكنونات ، لا يهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير ، ثم جعلتموه إفكا مفترى ، واستوجبتم بذلك أن يصبّ

عليكم العذاب صبا ، لو لا حلمه ورحمته ، إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً فأمهلكم ، ولم يعاجلكم بالعقوبة. وهو تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة عنهم ، أي : كان أزلا وأبدا مستمرا على المغفرة والرحمة ، فلذلك لم يعاجلكم بالعقوبة على ما تقولون فى حقه وفى حق رسوله ، مع كمال اقتداره.

ثم ذكر طعنهم فيمن نزل عليه ، فقال : وَقالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء ، وخط المصحف سنّة لا يغير. وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم ، كأنهم قالوا : أي شيء لهذا الزاعم أنه رسول يأكل الطعام كما تأكلون ، ويمشى فى الأسواق لابتغاء الأرزاق كما تمشون ، أي : إن صح ما يدعيه فما له لم يخالف حالنا؟! لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ على صورته فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ، وهذا منهم تنزل عن اقتراح كونه صلى اللّه عليه وسلم ملكا مستغنيا عن المادة الحسية ، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ، ويكون ردءا له فى الإنذار ، ويعبر عنه ، ويفسر ما يقوله للعامة.

أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ من السماء ، يستغنى به عن طلب المعاش معنا ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ بستان يَأْكُلُ مِنْها كالأغنياء المياسير. والحاصل : أنهم أول مرة ادعوا أن الرسول لا يكون إلا كالملائكة ، مستغنيا عن الطعام والشراب ، وتعجبوا من كون الرسول بشرا ، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك يصدقه ويعينه على الإنذار ، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون معه كنز ، يستظهر به على نوائبه ، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون رجلا له يستان يأكل منه ، كالمياسير ، أو نأكل نحن منه ، على قراءة حمزة والكسائي.

قال تعالى : وَقالَ الظَّالِمُونَ وهم الكفرة القائلون ما تقدم ، غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر ، تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه. وهم كفار قريش ، أي : قالوا للمؤمنين : إِنْ تَتَّبِعُونَ ما تتبعون إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً قد سحر فغلب على عقله ، انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ أي : انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة ، الخارجة عن العقول ، الجارية لغرابتها ، مجرى الأمثال ، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة ، البعيدة عن الوقوع؟! فَضَلُّوا عن طريق الجادة فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا فلا يجدون طريقا إليه ، أو :

فلا يجدون سبيلا إلى القدح فى نبوتك ، بأن يجدوا قولا يستقرون عليه ، أو : فضلّوا عن الحق ضلالا مبينا ، فلا

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٠

يجدون طريقا موصلا إليه ، فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الموصلة إلى الرشد والصواب. وباللّه التوفيق.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنّة ماضية ، فإن سمع أهل الإنكار منهم علوما وأسرارا قالوا : ليست من فيضه ، إنما نقلها عن غيره ، وأعانه على إظهارها قوم آخرون ، قل : أنزلها على قلوبهم الذي يعلم السر فى السماوات والأرض ، إنه كان غفورا رحيما ، حيث ستر وصفهم بوصفه ونعتهم بنعته ، فوصلهم بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه. وقوله تعالى : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ، أنكروا وجود الخصوصية مع وصف البشرية ، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية ، كما تقدم مرارا. واللّه تعالى أعلم.

ثم رد اللّه تعالى عليهم ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٠ الى ١٦]

تَبارَكَ الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً (١٢) وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤)

قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً (١٦)

قلت : (جنات) : بدل من خيرا ، و(يجعل) ، من جزمه عطفه على محل جواب الشرط ، ومن رفعه فعلى الاستئناف ، أي : وهو يجعل لك قصورا ، ويجوز عطفه على الجواب لأن الشرط إذا كان ماضيا جاز فى الجواب الرفع والجزم ، كما هو مقرر فى محله.

يقول الحق جل جلاله : تَبارَكَ أي : تكاثر وتزايد خيره الَّذِي إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ فى الدنيا خَيْراً لك مِنْ ذلِكَ الذي اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بأن يجعل لك مثل ما وعدك فى الجنة ، جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، فإنه خير من جنة واحدة من غير أنهار ، كما اقترحوا ، وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً

وغرفا فى الدنيا ، كقصور الآخرة ، لكن لم يشأ ذلك لأن الدنيا لا تسع ما يعطيه تعالى لخواص أحبابه فى الآخرة لأنها ضيقة الزمان والمكان.

وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين ، وهو إنزال الملك وإلقاء الكنز لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية ، وإنما الذي له وجه فى الجملة هو الاقتراح الأخير فإنه غير مناف للحكمة بالكلية ، فإن بعض الأنبياء – عليهم السلام – قد أوتوا مع النبوة ملكا عظيما ، لكنه نادر.

ثم أضرب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة ، وانتقل إلى توبيخهم بحكاية جناية أخرى ، فقال : بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ أي : بل أتوا بأعجب من ذلك كله ، وهو تكذيبهم بالساعة. ويحتمل أن يكون متصلا بما قبله ، كأنه قال : بل كذبوا بالساعة ، وكيف يلتفتون إلى هذا الجواب ، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة ، وهم لا يؤمنون بها؟ ثم تخلص إلى وبال من كذّب بها ، فقال : وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً أي : وهيأنا للمكذبين بها نارا شديدة الإسعار ، أي : الاشتعال. وضع الموصول موضع ضمير «هم» ، أو : لكل من كذب بها كائنا من كان ، ويدخلون هم فى زمرتهم دخولا أوليا. ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع.

إِذا رَأَتْهُمْ أي : النار ، أي : قابلتهم مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ بأن كانت منهم بمرأى للناظرين فى البعد ، كقوله صلى اللّه عليه وسلم فى شأن المؤمن والكافر : «لا تترآءى نارهما» «١» ، أي : لا يتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى. سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً أي : سمعوا صوت غليانها. شبه ذلك بصوت المتغيظ والزفير ، وهو صوت من جوفه. ولا يبعد أن يخلق اللّه فيها الإدراك فتتغيظ وتزفر. وقيل : إن ذلك من زبانيتها ، نسب إليها ، وهو بعيد.

وَإِذا أُلْقُوا مِنْها من النار مَكاناً ضَيِّقاً أي : فى مكان ضيق لأن الكرب يعظم مع الضيق ، كما أن الروح يعظم مع السعة ، وهو السر فى وصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عباس وابن عمر – رضى اللّه عنهما : (تضيق جهنم عليهم ، كما يضيق الزجّ «٢» على الرمح). وسئل النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ذلك فقال :

«والذي نفسى بيده إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط». حال كونهم مُقَرَّنِينَ أي : مسلسلين ، أي : مقرونين فى السلاسل ، قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال. أو : يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة ، وفى أرجلهم الأصفاد. فإذا ألقوا فى الضيق ، على هذا الوصف ، دَعَوْا هُنالِكَ أي : فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة ، ثُبُوراً أي : هلاكا ، بأن يقولوا : وا ثبوراه هذا حينك فتعال ، فيتمنون الهلاك ليستريحوا ، فيقال لهم : لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً أي : لا تدعوا بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة ،

---

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية ٥٢ من سورة المائدة.

(٢) الزّجّ : الحديدة التي تركب فى أسفل الرمح ... اللسان (رجج ، ٣/ ١٨١١).

ودعاء واحدا ، بل ادعوا دعاء متعددا بأدعية كثيرة ، فإن ما أنتم عليه من العذاب ، لغاية شدته وطول مدته ، مستوجب لتكرر الدعاء فى كل أوان. وهو يدل على فظاعة العذاب وهو له.

وأما ما قيل من أن المعنى : إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان ، كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو : لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لها ، فلا يلائم المقام. انظر أبا السعود. وعن أنس رضي اللّه عنه قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أول من يكسى حلّة من النار إبليس ، فيضعها على حاجبيه ، ويسحبها من خلفه ، وذريته من بعده ، وهو يقول : يا ثبوراه ، وهم يجاوبونه : يا ثبورهم ، حتى يقفوا على النار ، فيقال لهم : لا تدعوا ثبورا واحدا ..» «١».

قُلْ لهم يا محمد تقريعا لهم وتهكما بهم ، وتحسرا على ما فاتهم : أَذلِكَ خَيْرٌ ، والإشارة إلى السعير ، باعتبار اتصافها بما فصّل من الأحوال الهائلة ، وما فيه من معنى البعد لكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة. أي : قل لهم أذلك الذي ذكر من السعير ، التي أعدت لمن كذب بالساعة ، وشأنها كيت وكيت خير أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ أي : وعدها اللّه المتقين؟ وإنما قال : «أذلك خير» ، ولا خير فى النار تهكما بهم ، كما تقدم ، وإضافة الجنة إلى الخلد للمدح ، وقيل : للتمييز عن جنات الدنيا. والمراد بالمتقين : المتصفون بمطلق التقوى ، لا بغايتها. كانَتْ تلك الجنة لَهُمْ فى علم اللّه تعالى ، أو فى اللوح ، جَزاءً على أعمالهم ، وَمَصِيراً يصيرون إليه بعد الموت.

لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ من فنون الملاذ والمشتهيات ، وأنواع النعيم والخيرات ، كقوله تعالى : وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ «٢» ، ولعل كل فريق منهم يقنع بما أتيح له من درجات النعيم ، ولا تمتد أعناق همهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية. فلا يلزم الحرمان ، ولا تساوى أهل الجنان. حال كونهم خالِدِينَ لا يفنون ، ولا يفنى ما هم فيه ، كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا أي : موعودا حقيقا بأن يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، أو : مسئولا لا يسأله الناس فى دعائهم ، بقولهم : رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ «٣» أو : تسأله الملائكة بقولهم : رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ «٤» ، وما فى «على» من معنى الوجوب ، لامتناع الخلف فى وعده تعالى ، فكأنه أوجبه على نفسه تفضلا وإحسانا. وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم من تشريفه والإشعار بأنه صلى اللّه عليه وسلم هو أول الفائزين بمغانم هذا الوعد الكريم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ١٥٢) ، والطبري (١٨/ ١٨٨) ، والحديث صححه الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٣٩٢). [.....]

(٢) من الآية ٧١ من سورة الزخرف.

(٣) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ٨ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٣
الإشارة : تبارك الذي إن شاء جعل ذلك خيرا من ذلك ، وهى جنة المعارف المعجلة ، تجرى من تحتها أنهار العلوم وفيض المواهب ، ويجعل لك قصورا تنزل فيها ، ثم ترحل عنها ، وهى منازل السائرين ومقامات المقربين ، إلى أن تسكن فى محل الشهود والعيان ، وهو العكوف فى حضرة الإحسان. بل كذّبوا بالساعة ، أي : من تنكب عن هذا الخير الجسيم ، إنما سببه أنه فعل فعل من يكذب بالساعة من الانهماك فى الدنيا ، والاشتغال بها عن زاد الآخرة. وأعتدنا لمن فعل ذلك سعيرا ، أي : إحراقا للقلب بالتعب ، والحرص ، والجزع ، والهلع ، والإقبال على الدنيا ، إذا قابلتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا غيظا على طلابها ، حيث آثروها على ما فيه رضا مولاها ، وإذا ألقوا فى أشغالها ، وضاق عليهم الزمان فى إدراكها ، دعوا بالويل والثبور ، وذلك عند معاينة أعلام الموت ، والرحيل إلى القبور ، ولا ينفعهم ذلك. قل : أذلك خير أم جنة الخلد؟ ، وهى جنة المعارف ، التي وعد المتقون لكل ما سوى اللّه ، كانت لهم جزاء على مجاهدتهم وصبرهم ، ومصيرا يصيرون إليها بأرواحهم وأسرارهم. لهم فيها ما يشاؤون لكونهم حينئذ أمرهم بأمر اللّه ، كان على ربك وعدا مسئولا ، أي : مطلوبا للعارفين والسائرين. وباللّه التوفيق.
ثم شرح ما يلقى أهل التكذيب من الهول والفظاعة ، فقال :
[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ١٧ الى ١٩]
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (١٩)
قلت : «اتخذ» قد يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله : أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً «١» ، وقد يتعدى إلى مفعولين ، كقوله :
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا «٢» ، فقرأ الجمهور : (أن نتّخذ) بالبناء لفاعل. وقرأ الحسن وأبو جعفر بالبناء للمفعول «٣». فالقراءة الأولى على تعديته لواحد ، والثانية على تعديته لاثنين. فالأول : الضمير فى (نتخذ) ، والثاني : (من أولياء). و(من) : للتبعيض ، أي : ما ينبغى لنا أن نتخذ بعض أولياء من

دونك لأن «من» لا تزاد فى المفعول الثاني ، بل فى الأول ، تقول : ما اتخذت من أحد وليّا ، ولا تقول : ما اتخذت أحدا من ولى. وأنكر القراءة أبو عمرو بن العلاء وغيره ، وهو محجوج لأن قراءة أبى جعفر من المتواتر.

---

(١) من الآية ٨ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ١٢٥ من سورة النساء.

(٣) أي : (نتّخذ) بضم النون وفتح الخاء.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ «١» ، أو : يوم يحشرهم اللّه جميعا للبعث والحساب ، يكون ما لا تفى به العبارة من الأهوال الفظيعة والأحوال الغريبة ، فيحشرهم وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي : الأصنام ينطقها اللّه ، وقيل : عام فى الجميع. و(ما) : يتناول العقلاء وغيرهم لأنه أريد به الوصف ، كأنه قيل : ومعبودهم. فَيَقُولُ الحق جل جلاله للمعبودين ، إثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا : أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ ، بأن دعوتموهم إلى عبادتكم ، أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ أي : عن السبيل بأنفسهم بإخلالهم بالنظر الصحيح ، وإعراضهم عن الرشد.

وتقديم الضميرين على الفعلين بحيث لم يقل : أضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل لأن السؤال ليس عن نفس الفعل ، وإنما هو عن متوليه والمتصدي له ، فلابد من ذكره ، وإيلائه حرف الاستفهام. ليعلم أنه المسئول عنه. وفائدة سؤالهم ، مع علمه تعالى بالمسئول عنه لأن يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم ، فتزيد حسرتهم.

قالُوا فى الجواب : سُبْحانَكَ تعجيبا مما قيل ، لأنهم إما ملائكة معصومون ، أو جمادات لا تنطق ولا قدرة لها على شىء ، أو : قصدوا به تنزيه عن الأنداد ، ثم قالوا : ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أي : ما صح وما استقام لنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ أي : متجاوزين إياك ، مِنْ أَوْلِياءَ نعبدهم لما قام بنا من الحالة المنافية له ، فأنّى يتصوّر أن نحمل غيرنا على أن يتخذوا غيرك ، فضلا أن يتخذونا أولياء ، أو : ما كان يصح لنا أن نتولى أحدا دونك ، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا أن يتولونا دونك حتى يتخذونا أربابا من دونك ، وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ بالأموال والأولاد وطول العمر ، فاستغرقوا فى الشهوات ، وانهمكوا فيها حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ أي :

غفلوا عن ذكرك ، وعن الإيمان بك ، واتباع شرائعك ، فجعلوا أسباب الهداية من النعم والعوافي ،

ذريعة إلى الغواية. وَكانُوا ، فى قضائك وعلمك الأزلى ، قَوْماً بُوراً هالكين ، جمع : بائر ، كعائذ وعوذ.
ثم يقال للكفار بطريق الالتفات : فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ ، وهو احتجاج من اللّه تعالى على العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب ، أي : فقال اللّه جل جلاله عند ذلك للعبدة : فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة ، بِما تَقُولُونَ أي : فى قولكم : هؤلاء أضلونا. والباء بمعنى «فى» ، وعن قنبل :
بالياء ، والمعنى : فقد كذبوكم بقولهم : (سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) ، والباء حينئذ كقولك : كتبت بالقلم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص : «يحشرهم» بالياء ، وقرأ الباقون بالنون .. انظر الإتحاف (٢/ ٣٠٦).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٥
فما يستطيعون «١» فما يملكون صَرْفاً دفعا للعذاب عنكم وَلا نَصْراً أي : فردا من أفراد النصر.
والمعنى : فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو ينصروكم. وعن حفص بالتاء ، أي : فما تستطيعون أنتم أيها الكفرة صرفا للعذاب عنكم ، ولا نصر أنفسكم.
ثم خاطب المكلّفين على العموم فقال : وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ يشرك بدليل قوله : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ «٢» لأن الظلم : وضع الشيء فى غير محله ، ومن جعل المخلوق شريكا لخالقه فقد ظلم ظلما عظيما.
أي : ومن يظلم منكم أيها المكلفون ، كدأب هؤلاء الكفرة ، حيث ركبوا متن المكابرة والعناد ، واستمروا على الملاججة والفساد ، نُذِقْهُ فى الآخرة عَذاباً كَبِيراً لا يقادر قدره ، وهو الخلود فى النار ، والعياذ باللّه.
الإشارة : كل من عشق شيئا وأحبه من دون اللّه فهو عابد له ، فردا أو متعددا ، فيحشر معه يوم القيامة ، فيقال لهم : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ، أم هم ضلوا السبيل؟ فيتبرؤون منهم ، ويقولون : بل متعتهم بالدنيا ، وألهيتهم عن الذكر والتفكر والاعتبار ، أو عن الشهود والاستبصار ، حتى نسوا ذكر اللّه ، وكانوا قوما بورا. وقد ورد : (أن الدنيا تبعث يوم القيامة على هيئة عجوز شمطاء زرقاء ، فتنادى : أين أولادى؟ فيجمعون لها كرها ، فتقدمهم ، فتوردهم النار). وقوله تعالى : وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ أي : يخرج عن حد الاستقامة فى العبودية ، وشهود عظمة الربوبية ، نذقه عذابا كبيرا ، وهو ضرب الحجاب على

سبيل الدوام ، إلا وقتا مخصوصا مع العوام. وبالله التوفيق.

ثم أجاب الحق تعالى عن قول الكفرة : (مال هذا الرسول يأكل الطعام ...) إلخ ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٢٠]

وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠)

قلت : كسرت (إنّ) لأجل اللام فى الخبر. والجملة بعد (إلا) : صفة لمحذوف ، أي : وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين إلا آكلين وماشين ، وإنما حذف اكتفاء بالجار والمجرور ، يعنى من المرسلين ، وهو كقوله تعالى : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ «٣» ، أي : وما منا أحد. وقيل : هى حال ، والتقدير : إلا وأنهم ليأكلون.

يقول الحق جل جلاله ، فى جواب المشركين عن قولهم : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ «٤» تسلية لنبيه صلى اللّه عليه وسلّم : وَما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا وصفتهم إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ بشر

---

(١) قرأ حفص (فما تستطيعون) بالتاء من فوق ، على خطاب العابدين. وقرأ الباقون بالياء على الغيب ، على إسناده إلى المعبودين.

انظر الإتحاف (٢/ ٣٠٧).

(٢) من الآية ١٣ من سورة لقمان.

(٣) من الآية ١٦٤ من سورة الصافات.

(٤) من الآية ٧ من سورة الفرقان.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٦

يأكلون الطَّعامَ ، مفتقرون إليه فى قيام بنيتهم ، وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ فى طلب حوائجهم ، فليس ببدع أن تكون أنت كذلك ، وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أي : محنة ، وهو كالتعليل لما قبله ، أي : إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة ، وفقراء من المال ، يمشون فى الأسواق لطلب المعاش ابتلاء ، وفتنة ، واختبارا لمن تبعهم ، من غير طمع ، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم ، فقد جعلت بعضكم لبعض فتنة.

قال ابن عباس : أي : جعلت بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم ، وترون من خلافهم ، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيكم عليه الدنيا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى ، فلا يخالفون ،

لفعلت ، ولكن قدرت أن أبتلى العباد بكم وأبتليكم بهم «١». هـ.

فالحكمة فى فقر الرسل من المال : تحقيق الإخلاص لمن تبعهم ، وإظهار المزية لهم حيث تبعوهم بلا حرف.

قال النسفي : أو جعلناك فتنة لهم لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكانت طاعتهم لأجل الدنيا ، أو ممزوجة بالدنيا ، فإنما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. هـ.

قال فى الحاشية : وقد قيل : إن الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد تعالى أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض ، على العموم فى جميع الناس : مؤمن وكافر ، بمعنى : أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغنى ممتحن بالفقير ، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغنى ، عليه ألا يحسده ، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق الذي عليه ، وتوجه إليه من ذلك لأن الدار دار تكليف بموجبات الصبر ، وقد جعل تعالى إمهال الكفار والتوسعة عليهم فتنة للمؤمنين ، واختبارا لهم. ولمّا صبروا نزل فيهم : إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا «٢».

والحاصل : أن اللّه تعالى دبّر خلقه ، وخص كلا بما شاء ، من غنى أو فقر ، أو علم أو جهل ، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات ليظهر من يسلّم له حكمه وقسمته ، ومن ينازعه فى ذلك ، ومن يؤدى حق ما توجه عليه من ذلك فيكون شاكرا صابرا ، ومن لا ، وهو أعلم بحكمته فى ذلك ، ولذلك قال : وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً. هـ.

وقال مقاتل : نزلت فى أبى جهل ، والوليد بن عتبة ، والعاص ، حين رأوا أبا ذر وعمارا وصهيبا ، وغيرهم من فقراء المسلمين ، قالوا : أنسلم فنكون مثل هؤلاء؟ فنزلت الآية ، تخاطب هؤلاء المؤمنين : أتصبرون على هذه الحالة من الشدة والفقر؟ هـ.

قال النسفي : أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا ، أم لا تصبرون فيزداد غمّكم؟ حكى أن بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه ، فخرج ضجرا ، فرأى [خصيا فى] «٣» مواكب ومراكب ، فخطر بباله شيء ، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية ، فقال : بل نصبر ، ربّنا. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٦/ ٧٧.

(٢) من الآية ١١١ من سورة المؤمنون.

(٣) في الأصول المخطوطة [فى حصباء] ، والمثبت هو الذي فى تفسير النسفي. [.....]

قال القشيري : هو استفهام بمعنى الأمر ، فمن قارنه التوفيق صبر وشكر ، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. هـ.

وقيل : هو الأمر بالإعراض عما جعل فى نظره فتنة ، كما قال : وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ «١» ، فينبغى ألا ينظر بعض إلى بعض ، إلا لمن دونه ، كما ورد فى الخبر «٢». هـ.

وَكانَ رَبُّكَ بَصِيراً عالما بالحكمة فيما يبتلى به ، أو : بمن يصبر ويجزع. وقال أبو السعود : هو وعد كريم لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم بالأجر الجزيل لصبره الجميل ، مع مزيد تشريف له – عليه الصلاة والسلام – بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره صلى اللّه عليه وسلم. هـ.

الإشارة : الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هى سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا ، إلا قدر الحاجة ، بعد التوقف والاضطرار ، ابتداء وانتهاء ، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم تضره. والحالة الشريفة : ما سلكها نبينا صلى اللّه عليه وسلم وهو التخفيف منها وإخراجها من اليد ، حتى مات ودرعه مرهونة عند يهودى ، فى وسق من شعير. وعادته تعالى ، فيمن سلك هذا المسلك ، أن يديل الغنى فى عقبه ، فيكونون أغنياء فى الغالب. واللّه تعالى أعلم.

وما وصف به الحق تعالى رسله من كونهم يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، هو وصف للأولياء أيضا – رضى اللّه عنهم – فيمشون فى الأسواق للعبرة والاستبصار فى تجليات الواحد القهار ، فحيث يحصل الزحام يعظم الشهود للملك العلام ، وفى ذلك يقول الششترى رضي اللّه عنه : عين الزحام هو الوصول لحيّنا.

وكان شيخ أشياخنا – سيدى على العمراني – يقول لأصحابه : من أراد أن يذوق فليمش إلى السوق. هـ.

فينبغى للمريد أن يربى فكرته فى العزلة والخلطة والخلوة والجلوة ، ولا يتقصر على تربيتها فى العزلة فقط لئلا يتغير حاله فى حال الخلطة فيبقى ضعيفا. فالعزلة تكون ابتداء ، قبل دخول بلاد المعاني ، فإذا دخل بلاد المعاني فليختر الخلطة على العزلة ، حتى يستوى قلبه فى الخلوة والجلوة ، فالعزلة عن الناس عزلة الضعفاء والعزلة بين الناس عزلة الأقوياء. فالمشى فى الأسواق والأكل فيها من سنة الفقراء ، أهل الأحوال مجاهدة لنفوسهم ، وترييضا لها على إسقاط مراقبة الخلق ، والخوف منهم. وقد ورد أن اللّه تعالى أمر بذلك نبيه صلى اللّه عليه وسلم تشريفا لأهل الأحوال ، كما ذكره صاحب اللباب عند قوله : ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ...

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة طه.

(٢) قال صلى اللّه عليه وسلم : «إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه فى المال والخلق ، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضّل عليه». أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب لينظر إلى من هو أسفل منه ، ح

٤٦٩٠) ، ومسلم فى (الزهد والرقائق ، ٤/ ٢٢٧٥ ، ح ٢٩٦٣) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٨٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٨

ومن آداب الداخل فى السوق : أن يكون ماشيا على رجليه ، لا راكبا ، كما وصف اللّه تعالى الرسل – عليهم السلام. وفى قوله تعالى : وَجَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ : تسلية لمن يبتلى من الأولياء ، وتهوين له على ما يلقاه من شدائد الزمان ، وإذاية الإخوان ، وجفوة الناس. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى من أقاويل الكفرة ليبطلها كما أبطل ما قبلها ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٢١ الى ٢٤]

وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (٢٢) وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (٢٣) أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤)

قلت : (و قال) : عطف على : (و قالوا مال هذا الرسول ...) إلخ ، ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما حكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر ممن يعتقد المصير إلى اللّه – عز وجل – .

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا أي : لا يتوقعون الرجوع إلينا بالبعث ، أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب ، الذي تستوجبه مقالاتهم الشنيعة. والحاصل : أنهم ينكرون البعث بالكلية ، فأطلق الرجاء على التوقع. وقيل : لا يخافون لقاءنا لأن الرجاء فى لغة تهامة : الخوف ، قالوا : لَوْ لا هلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ رسلا دون البشر ، أو : يشهدون بنبوة محمد ودعوى رسالته ، أَوْ نَرى رَبَّنا جهرة ، فيخبرنا برسالته ، ويأمرنا باتباعه ، وإنما قالوا ذلك عنادا وعتوا.

قال تعالى : لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ أي : أضمروا الاستكبار ، وهو الكفر والعناد فى قلوبهم ، أو : عظموا فى أنفسهم حتى اجترءوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء ، وَعَتَوْا أي : تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان عُتُوًّا كَبِيراً بالغا أقصى غاياته ، أي : إنهم لم يجترءوا على هذا القول العظيم إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار ، وأقصى العتو ، حتى أمّلوا نيل المشاهدة والمعاينة والمفاوضة التي اختص بها أكابر الرسل وخاصة الأولياء ، بعد تطهير النفوس وتصفية القلوب والأرواح. وهذا كقولهم : وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ... إلى قوله : أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا «١». ولم يكتفوا بما رأوا من المعجزات القاهرة فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب ، حتى منّتهم أنفسهم الخبيثة أمالى سدت دونها مطامع النفوس

القدسية. واللام : جواب قسم محذوف ، أي : واللّه لقد استكبروا ..
الآية. وفيه من الدلالة على قبح ما هم عليه ، والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ، ما لا يخفى.

---

(١) الآيات : ٩٠ – ٩٢ من سورة الإسراء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٨٩
يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ عند الموت أو البعث. ويَوْمَ : منصوب باذكر ، أو بما دل عليه : لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ فإنه بمعنى : يمنعون البشرى ، أو : لا يبشر المجرمون. انظر البيضاوي. والجملة : استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة ، بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ما يكون من الشناعة. وإنما قيل : يوم يرون ، دون أن يقال : يوم تنزل إيذانا ، من أول الأمر ، بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه ، بل على وجه آخر غير معهود. وتكرير (يومئذ) لتأكيد التهويل ، مع ما فيه من الإيذان بأن تقديم الظرف للاهتمام ، لا لقصر نفي البشرى على ذلك الوقت فقط فإن ذلك مخل بتفيظع حالهم. و(للمجرمين) :
تعيين على أنه مظهر ، وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالإجرام ، مع ما هم عليه من الكفر والطغيان.
وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً على ما ذكر من الفعل المنفي ، أي : لا يبشرون ، ويقولون. وهو ينبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر ، وغاية هول مطلعه ، أي : يقولون ، عند مشاهدة ملائكة العذاب : حجرا محجورا ، أي : منعا ممنوعا منكم ، وهى كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو هائل ، أو هجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، فكأن المعنى : نسأل اللّه تعالى أن يمنع ذلك عنّا منعا ، ويحجره عنا حجرا. والمعنى : أنهم يطلبون نزول الملائكة – عليهم السلام – ويقترحونه ، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة ، وفزعوا منهم فزعا شديدا. وقالوا ، عند رؤيتهم ، ما كانوا يقولون عند نزول خطب شنيع وبأس فظيع.
وقيل : هو قول الملائكة ، أي : تقول الملائكة للمجرمين ، حين يرونهم : حجرا محجورا ، أي : حراما محرما عليكم البشرى ، أي : جعل اللّه ذلك حراما عليكم ، إنما البشرى للمؤمنين. و(الحجر) : مصدر ، يفتح ويكسر ، وقرئ بهما. من حجره إذا منعه. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها. ومحجورا : لتأكيد معنى الحجر ، كما قالوا : موت مائت. وانظر ما وجّه به وقف الهبطى على «حجرا» فلعله الأوجه له.

ثم ذكر مآل أعمالهم ، فقال : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً الهباء : شبه غبار يرى في شعاع الشمس ، يطلع من كوّة. والقدوم هنا : مجاز. مثلت حال هؤلاء الكفرة وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، وعتق ، ونحو ذلك ، بحال من خالف سلطانه ، فقدم إلى أشيائه ، وقصد إلى ما تحت يديه ، فأفسدها ، ومزقها كل ممزق ، ولم يترك لها عينا ولا أثرا ، أي : عمدنا إليها وأبطلناها ، أي : أظهرنا بطلانها بالكلية ، من غير أن يكون هناك قدوم. والمنثور : المفرّق ، وهو استعارة عن جعله لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.

(٨٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٩٠

ثم ذكر ضدهم ، فقال : أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا أي : مكانا يستقرون فيه ، والمستقر : المكان الذي يستقر فيه في أكثر الأوقات ، للتجالس والتحادث ، وَأَحْسَنُ مَقِيلًا : مكانا يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم في الجنة ، ولكنه سمى مكان استرواحهم إلى أزواجهم الحور مقيلا على طريق التشبيه. وروى أنه يفرغ من الحساب في نصف ذلك اليوم ، فيقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار.

وقال سعيد الصواف : بلغني أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين ، حتى يكون ما بين العصر إلى غروب الشمس ، إنهم ليقيلون في رياض الجنة حتى يفرغ من حساب الناس. وقرأ هذه الآية. هـ. وأما الكافر فيطول عليه ، كما قال تعالى : فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ «١».

قال أبو السعود : وفي وصفه بزيادة الحسن ، مع حصول الخيرية ، رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف.

والتفضيل المعتبر فيهما : إما لإرادة الزيادة على الإطلاق ، أي : هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل ، وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين في الدنيا ، أو إلى ما لهم في الآخرة ، بطريق التهكم بهم ، كما مرّ في قوله : أَذلِكَ خَيْرٌ .. الآية. هـ.

الإشارة : هؤلاء طلبوا الرؤية قبل إبّانها وتحصيل شروطها ، وهي الإيمان بالله ، والإخلاص ، والخضوع لمن يدل على اللّه ، وذل النفس وتصغيرها في طلب اللّه. ولذلك قال تعالى في وصفهم – الذي منعهم من شهوده تعالى : لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً أي : ولو صغروا في أنفسهم ، وخضعوا خضوعا كبيرا لحصل لهم ما طلبوا ، ولبشروا بما أملوا ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تذلّل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضى المحبوب صحّ لك الوصل

تذلّل له تحظى برؤيا جماله ففي وجه من تهوى الفرائض والنّفل

وقيل لأبى يزيد رضي اللّه عنه ، حين قام يصلى بالليل : يا أبا يزيد ، خزائننا معمورة بالخدمة ، ائتنا من كوّة الذل والافتقار. وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي اللّه عنه : أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها الزحام ، فأتيت باب الذل والفقر فوجدته خاليا ، فدخلت وقلت : هلموا إلى ربكم. أو كما قال.

وفى قوله تعالى : وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ .. إلخ ، الترغيب فى الإخلاص الموجب لقبول الأعمال ، والترهيب من الرياء والعجب ، الموجبان لإحباط الأعمال. وفى حديث معاذ عنه صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه خلق سبعة أملاك قبل خلق السموات ، ووكل كل ملك بباب من أبواب السماء ، فتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الأولى ، فيقول الملك : ردوه ، واضربوا به وجهه إنّ صاحبه كان يغتاب الناس ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى

---

(١) من الآية ٤ من سورة المعارج.

السماء الثانية ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يفتخر على الناس فى مجالسهم ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الثالثة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الخامسة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يحسد الناس ويقع فيهم ، ثم تصعد الحفظة إلى السماء السادسة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان لا يرحم إنسانا قط ، بل كان يشمت بمن وقع فى بلاء ، أنا ملك الرحمة ، أمرنى ألا يجاوزنى عمله. ثم تصعد الحفظة إلى السماء السابعة ، فيقول الملك : ردوه إنه كان يحب الظهور والرفعة عند الناس ، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة ، وذكر ، وتفكر ، وحسن خلق ، فيقفون بين يدى اللّه ، ويشهدون له بالصلاح ، فيقول الرب جل جلاله : أنتم الحفظة على عمل عبدى ، وأنا الرقيب على قلبه ، إنه لم يردنى بهذا العمل ، أراد به غيرى ، فعليه لعنتى ، ثم تلعنه الملائكة والسموات. انتهى باختصار «١» ، وخرجه المنذرى. وتكلم فى وضعه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر موطنا آخر لرؤية الملائكة ، على نمط ما تقدم ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٢٥ الى ٢٩]

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ

خَذُولاً (٢٩)

قلت : (الملك) : مبتدأ ، و(الحق) : صفته. و(للرحمن) : خبر ، و(يومئذ) : ظرف للاستقرار.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ تَشَقَّقُ أي : تنفتح ، فمن قرأ بالتخفيف : حذف إحدى التاءين ، وأصله : تتشقق. ومن شد : أدغم التاء فى الشين ، أي : تنشق السَّماءُ بِالْغَمامِ أي : عن الغمام ، فتنزل ملائكة السموات فى تلك الغمام ليقع الفصل بين الخلائق ، وهو المراد بقوله تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ ، وَالْمَلائِكَةُ «٢». قيل : هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم.

---

(١) ذكره مطولا المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ٧١ – ٩٣) وقال : (رواه ابن المبارك فى الزهد عن رجل ، لم يسمه ، عن معاذ ، ورواه ابن حبان فى غير الصحيح ، والحاكم ، وغيرهما ، وروى عن على وغيره. وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقه وبجميع ألفاظه. واللّه أعلم) قلت : والحديث ذكره ابن الجوزي فى الموضوعات (٣/ ١٥٤) بمعناه مطولا ، وعزاه للحاكم فى التاريخ.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة البقرة.

وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا عجيبا غير معهود. روى أن السموات تنشق سماء سماء ، وتنزل ملائكة كل سماء فى ذلك الغمام ، وفى أيديها صحائف أعمال العباد ، فيفصل اللّه بين خلقه ، ولذلك قال : الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ أي : السلطنة القاهرة ، والاستيلاء العام ، الثابت الذي لا زوال له أصلا ، هو للرحمن وحده لأن كل ملك يزول يومئذ ، ولا يبقى إلا ملكه.

وفائدة التقييد ، مع أن الملك للّه فى الدنيا والآخرة لأن فى الدنيا قد تظهر صورة الملك للمخلوق مجازا ، ويكون له تصرف صوري ، بخلاف يوم القيامة ، ينقطع فيه الدعاوى ، ويظهر الملك للّه الواحد القهار ، وَكانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً أي : وكان ذلك اليوم ، مع كون الملك للمبالغ فى الرحمة ، عَسِيراً أي : صعبا ، شديدا على النفوس بالنسبة للكافرين ، وأما على المؤمنين فيكون يسيرا ، بفضل اللّه تعالى. وقد جاء فى الحديث : أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين ، حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة ، صلّوها فى الدنيا. ففى حديث أبى سعيد الخدري حيث قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قلت : يا رسول اللّه ، ما أطول هذا اليوم؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : «والذي نفسى بيده إنّه ليخفّف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة

يصليها فى الدنيا» «١».

وَاذكر أيضا يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ ندما وتحسرا ، فعض اليد والأنامل : كناية عن شدة الغيظ والحسرة لأنها من روادفها ، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف ، فيرتفع الكلام بذلك فى طبقة الفصاحة ، ويجد السامع فى نفسه من الروعة ما لا يجده عند اللفظ المكنى عنه.

والمراد بالظالم : إما عقبة بن أبى معيط ، وكان خليلا لأبىّ بن خلف ، وكان عقبة يكثر مجالسة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقدم من سفر وصنع طعاما ، فدعا إليه أشراف قومه ، ودعا النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، فلما قرّب الطعام ، قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ما أنا بآكل من طعام ، حتى تشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأنى رسول اللّه». فقال عقبة : أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدا رسول اللّه. فأكل النبي صلى اللّه عليه وسلم طعامه ، وكان أبىّ بن خلف غائبا ، فلما أخبر ، قال له : صبأت يا عقبة؟ فقال : لا ، واللّه ما صبأت ، ولكن دخل علىّ رجل فأبى أن يأكل من طعامى إلا أن أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت له ، فطعم ، فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك أبدا ، حتى تأتيه فتبزق فى وجهه ، وتطأ عنقه ، فوجده صلى اللّه عليه وسلم ساجدا ، ففعل ذلك ، وأخذ رحم دابته فألقاها بين كتفيه ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لا ألقاك خارجا من مكّة إلا علوت

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/ ٧٥) ، وابن حبان (الإحسان ، تحقيق الأرنؤوط ١٦/ ٣٢٩ ح ٧٣٣٤) ، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٧ ح ١٣٩٠) ، وحسّنه الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٣٣٩).

رأسك بالسيف». فقتل عقبة يوم بدر صبرا. وأما أبىّ فقتله النبي صلى اللّه عليه وسلم بيده ، يوم أحد ، فى المبارزة ، طعنه فى عنقه ، فمات بمكة «١».

وعن الضحاك : لما بصق عقبة – بأمر أبىّ – فى وجه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، رجع بصاقه فى وجهه ، وشوى وجهه وشفتيه ، حتى أثر فى وجهه وأحرق خديه ، فلم يزل فى وجهه حتى قتل ، وقتله علىّ ببدر بأمره صلى اللّه عليه وسلم بقتله. هـ.

وقال الشعبي : كان عقبة بن أبى معيط خليلا لأبي بن خلف ، فأسلم عقبة ، فقال أبىّ : وجهى من وجهك حرام ، أن تابعت محمدا ، فارتدّ لرضا صاحبه ، فنزلت الآية «٢». هـ.

وإمّا جنس الظالم ، ويدخل عقبة فيه دخولا أوليا.

يَقُولُ يا لَيْتَنِي ، الياء لمجرد التنبيه ، من غير تعيين المنبّه ، أو : المنبه محذوف ، أي : يا هؤلاء لَيْتَنِي

(١) من الآية ٤٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة.

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٤

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٥

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٦

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٧

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٨

البحر المديد ج ٤ ، ص : ٩٩

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٠

قلت : (و قوم) : منصوب بمضمر يدل عليه (دمرناهم) ، أي : ودمرنا قوم نوح ، و(عادا وثمودا) : عطف على (قوم نوح).

يقول الحق جل جلاله : وَدمرنا أيضا قَوْمَ نُوحٍ ، وذلك أنهم لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ نوحا ، ومن قبله شيثا وإدريس ، أو : لأن تكذيبهم لواحد تكذيب للجميع لاتّفاقهم على التوحيد والإسلام ، أَغْرَقْناهُمْ بالطوفان ، وَجَعَلْناهُمْ أي : وجعلنا إغراقهم أو قصتهم لِلنَّاسِ آيَةً : عبرة يعتبر بها كل من يشاهدها أو يسمعها. وَأَعْتَدْنا هيأنا لِلظَّالِمِينَ أي : لهم. وأظهر فى موضع الإضمار للإيذان بتجاوزهم الحد فى الظلم ، أو لكل ظالم ظلم شرك ، فيدخل كل من شاركهم ، كقريش وغيرهم ، أي : هيأنا عَذاباً أَلِيماً ، أي : النار المؤبدة عليهم.

وَدمرنا أيضا عاداً وَثَمُودَ ، وقد تقدم فى الأعراف «١» ، وهو كيفية تدميرهم. وَأَصْحابَ الرَّسِّ ، هم قوم شعيب قال ابن عباس : أصحاب الرسّ : أصحاب البئر. قال وهب : كانوا أهل بئر ، قعودا عليها ، وأصحاب مواشى ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل اللّه إليهم شعيبا ، فآذوه ، وتمادوا فى طغيانهم ، فبينما هم حول البئر – والبئر فى وسط منازلهم – انهارت بهم وبديارهم ، فهلكوا جميعا. وقال قتادة : الرسّ : قرية بفلج اليمامة ، قتلوا نبيّهم فأهلكهم اللّه. وقيل : هم بقية قوم هود وقوم صالح ، وهم أصحاب البئر ، التي قال : وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ «٢».

وقال سعيد بن جبير وغيره : قوم كان لهم نبى ، يقال له : حنظلة بن صفوان ، وكان بأرضهم جبل ، يقال له :

فتخ ، مصعده فى السماء ميل ، وكانت العنقاء تنتابه ، وهى كأعظم ما يكون من الطير ، وفيها من كل لون – وسموها العنقاء لطول عنقها – وكانت تنقض على الطير فتأكلها ، فجاعت ذات يوم ، فانقضت على صبى فذهبت به ، – وسميت عنقاء مغرب لأنها تغرّب ما تأكله عن أهله ، فتأكله – ثم انقضت على جارية قد ترعرعت ، فأخذتها فطارت بها ، فشكوا إلى نبيهم ، فقال : اللهم خذها واقطع نسلها ، فأصابتها صاعقة ، فاحترقت ، فلم ير لها أثر ، فصارت مثلا عند العرب. ثم إنهم قتلوا نبيهم فأهلكهم اللّه. وقال مقاتل والسدى : هم أصحاب بئر أنطاكية ، وتسمى الرس ، قتلوا فيها حبيبا النجار ، فنسبوا إليها ، وهم الذين ذكروا فى (يس). وقيل : هم أصحاب الأخدود الذين حفروه ، والرسّ فى كلام العرب : كل محفور مثل البئر ، والقبر ، والمعدن ، وغير ذلك ، وجمعها : رساس. وقال عكرمة : هم قوم رسّوا نبيهم فى بئر.

(١) راجع تفسير الآيات : ٦٥ – ٧٨ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٤٥ من سورة الحج.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠١
قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إن أول الناس ممّن يدخل الجنة عبد أسود ، وذلك أن اللّه تعالى بعث نبيا إلى قرية ، فلم يؤمن به إلا ذلك الأسود ، فحفر أهل القرية بئرا وألقوا فيها نبيهم ، وأطبقوا عليها بحجر ضخم ، فكان العبد يحتطب على ظهره ، ويبيعه ، ويأتيه بطعامه ، فيعينه اللّه تعالى على رفع تلك الصخرة حتى يدليه إليه. فبينما هو يحتطب ذات يوم إذ نام ، فضرب على أذنه سبع سنين ، ثم جاء بطعامه إلى البئر فلم يجده. وكان قومه قد بدا لهم فاستخرجوه وآمنوا به ، ومات ذلك النبي ، فقال – عليه الصلاة والسلام : «إنّ ذلك الأسود لأوّل من يدخل الجنّة» «١» ، يعنى : من قومه. هـ.
وهؤلاء آمنوا فلا يصح حمل الآية عليها ، إلا أن يكونوا أحدثوا شيئا بعد نبيهم ، فدمرهم اللّه.
وقال جعفر بن محمد عن أبيه : أن أصحاب الرسّ : السحّاقات ، قال أنس : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ من أشراط السّاعة أن يستكفى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء» «٢» ، وذلك السحاق ، ويقال له أيضا : المساحقة ، وهو حرام بالإجماع. وسبب ظهوره : أن قوما أحدثوا فاحشة اللواط ، حتى استغنوا عن النساء ، فبقيت النساء معطلة ، فجاءتهن شيطانة فى صورة امرأة ، وهى الولهات بنت إبليس ، فشهّت إلى النساء ركوب بعضهن بعضا ، وعلمتهن كيف يصنعن ذلك ، فسلط عليهم صاعقة من أول الليل ، وخسفا من آخر الليل ، وصيحة مع الشمس ، فلم يبق منهم بقية. هـ.
وَقُرُوناً أي : دمرنا أهل قرون. والقرن : سبعون سنة ، وقيل : أقل ، وقيل : أكثر ، بَيْنَ ذلِكَ أي : بين ذلك المذكور من الأمم والطوائف ، كَثِيراً ، لا يعلم عددها إلا العليم الخبير ، وَكُلًّا من الأمم المذكورين قد ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ أي : بيّنا له القصص العجيبة ، الزاجرة عماهم عليه من الكفر والمعاصي ، بواسطة الرسل. وقيل : المراد : تبيين ما وقع لهم ، ووصف ما أدى إليه تكذيبهم لأنبيائهم ، من عذاب اللّه وتدميره إياهم ، ليكون عبرة لمن بعدهم ، وَكُلًّا أي : وكل واحد منهم تَبَّرْنا تَتْبِيراً أي : أهلكنا إهلاكا عجيبا. والتتبير :
التفتيت. قال الزجاج : كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته.
ثم بيّن بعض آثار الأمم المتبّرة ، فقال : وَلَقَدْ أَتَوْا يعنى : أهل مكة عَلَى الْقَرْيَةِ ، وهى سدوم ، وهى أعظم قرى قوم لوط ، وكانت خمسا ، أهلك اللّه أربعا ، وبقيت واحدة ، كان أهلها لا يعملون الخبيث ، وأما البواقي فأهلكها بالحجارة ، وإليه أشار بقوله : الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أي : أمطر اللّه عليها

الحجارة. والمعنى : واللّه لقد أتى قريش فى متاجرهم إلى الشام على القرية التي أهلكها اللّه ، وبقي آثارها خاربة ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (١٩١/ ١٤) عن محمد بن كعب القرطبي ، وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٨).

(٢) أخرجه الطبراني فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٨٢ ح ١٠٥٥٦) مطولا من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه وفيه : «يا ابن مسعود إن أعلام الساعة وأشراطها ..» الحديث. قال فى مجمع الزوائد ٧/ ٣٢٣. رواه الطبراني فى الأوسط. وفيه : سيف بن مسكين ، وهو ضعيف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٢

فى مرورهم ورجوعهم ، فيتفكرون ويؤمنون ، بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً أي : بل كانوا قوما كفرة بالبعث ، لا يخافون ولا يأملون بعثا ، كما يأمله المؤمنون لطمعهم فى الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو : بل كانوا قوما كفرة بالبعث ، منهمكين فى الغفلة ، يرون ما نزل بالأمم أمرا اتفاقيا ، لا بقدرة الباقي ، فطابع الكفر منعهم من التفكر والاعتبار. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى للمؤمن العاقل ، المشفق على نفسه ، أن ينظر فيمن هلك من الأمم السالفة ، ويتأمل فى سبب هلاكهم ، فيشديده على الاحتراز مما استوجبوا به الهلاك ، وهو مخالفة الرسل وترك الإيمان فيشديده على متابعة ما جاء به الرسول صلى اللّه عليه وسلم من الأوامر والنواهي ، ويرغب فيما رغّب فيه ، ويهتدى بهديه ، ويقتدى بسنته ، ويربى إيمانه ، ويجعل البعث والنشر والحشر بين عينيه ، فهذه طريق النجاة. وينبغى للمريد ، إذا رأى فقيرا سقط من درجة الإرادة ويبست أشجاره ، أن يحترز من تلك الزلاقة التي زلق فيها ، فيبحث عن سبب رجوعه ، ويجتنبه جهد استطاعته. ومرجعها إلى ثلاث : خروجه من يد شيخه إلى غيره ، وسقوط تعظيم شيخه من قلبه بسبب اعتراض أو غيره ، واستعمال كثرة الأحوال ، حتى يلحقه الملل. نسأل اللّه الحفظ من الجميع بمنّه وكرمه.

ثم ذكر وبال من لم يعظم الواسطة ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَبِيلاً (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا رَأَوْكَ أي : مشركو مكة إِنْ ما يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أي : مهزوءا بك ، أو محل هزؤ ، حال كونهم قائلين : أَهذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ، ورسولا : حال من العائد المحذوف ، أي : هذا الذي بعثه اللّه رسولا ، والإشارة للاستحقار فى اعتقادهم وتسليمهم البعث والرسالة ، مع كونهم فى غاية الإنكار لهما على طريق الاستهزاء ، وإلا لقالوا : أبعث اللّه هذا رسولا.

(١٠٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٣

إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا أي : ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا ، والعدول إلى الإضلال لغاية ضلالتهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى. لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها لصرفنا عنها ، وهو دليل على مجاهدة الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى دعوتهم ، وإظهار المعجزات لهم ، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ، لو لا فرط لجاجهم وتقليدهم.

قال تعالى : وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم ، مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ، وأخطأ طريقا. وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل.

أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أي : أطاع هواه فيما يذر ويفعل ، فصار معبوده هواه ، يقول لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : هذا الذي لا يرى معبوده إلا هواه ، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتهديه إليها؟ يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر ، فإذا مر بحجر أحسن منه تركه وعبد الثاني. وقال الحسن : هو فى كل متبع هواه. أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا حفيظا تحفظه عن متابعة هواه وعبادة ما يهواه. والفاء لترتيب الإنكار على ما قبله ، كأنه قيل : أبعد ما شاهدت من غلوه فى طاعة الهوى ، وعتوه عن اتباع الهدى ، تقهره على الإيمان ، شاء أو أبى ، وإنما عليك التبليغ فقط.

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ، «أم» : منقطعة ، بمعنى بل ، أي : بل أتظن أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع ، أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ والأنكال؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ أي : ما هم ، فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات ، وانتفاء التأثير بما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات ، إلّا كالبهائم ، التي هى غاية فى الغفلة ، ومثل فى الضلالة ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذي يعلفها ويتعاهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وتأوى إلى معاطنها ، وهؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم ، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان ، الذي هو أعدى عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذي هو أقبح المضار والمعاطب ، ولا

يهتدون إلى الحق ، الذي هو الشرع الهنى ، والمورد العذب الروى ، ولأنها ، إن تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير ، لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراب الشر ، بخلاف هؤلاء حيث مهّدوا قواعد الباطل ، وفرعوا أحكام الشرور ، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة عليها ، لا تتعدى إلى أحد ، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد ، وصد الناس عن سنن السداد ، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ، ولأنها غير متمكنة من طلب الكمال ، لعدم القوى العقلية ، فلا تقصير من قبلها ، ولا ذم ، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون الفطرة الأصلية ، مستحقون بذلك أعظم العقاب ، وأشد النكال. هـ. وأصله للبيضاوى.

(١٠٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٤

الإشارة : تعظيم الرسول صلى اللّه عليه وسلم وإجلاله وتوقيره من أعظم ما يقرب إلى اللّه ، ويوصل إلى رضوان اللّه ، ويدخل العبد على مولاه لأنه باب اللّه الأعظم ، والواسطة الكبرى بين اللّه وبين عباده ، فمن عظّمه صلى اللّه عليه وسلم وبجلّه وخدمه أتم الخدمة ، أدخله الحضرة ، على التوقير والتعظيم والهيبة والإجلال. ومن حاد عن متابعته فقد أتى البيت من غير بابه كمن دخل حضرة الملك بالتسور ، فيستحق القتل والطرد والبعد. وإدخاله على اللّه : دلالته على من يعرفه باللّه ، وقد يوصله بلا واسطة ، لكنه نادر. ومن أهمل هذا الجانب واستصغره طرده اللّه وأبعده ، وانسحب عليه قوله : وَإِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً ، وكان ممن اتخذ إلهه هواه ، وكان كالبهائم ، أو أضل لأن من اتبع الواسطة كان هواه تابعا لما جاء من عند اللّه ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده ، بعد بيان من غفل عنها وضل ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٤٥ الى ٥٠]

أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَالنَّوْمَ سُباتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً (٤٩)

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ يا محمد إِلى رَبِّكَ أي : ألم تنظر إلى بديع صنع ربك ودلائل قدرته

وتوحيده. والتعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – ، لتشريفه وتبجيله ، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار قدرته ورحمته ، كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ أي : بسطه حتى عمّ الأرض ، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس ، فى قول الجمهور لأنه ظل ممدود ، لا شمس معه ولا ظلمة ، فهو شبيه بظل الجنة. وقيل : مد ظل الأشياء الشاخصة أول النهار من شجر ، أو مدر ، أو إنسان ، ثم قبضها وردها إلى المشرق.

وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً أي : دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس ، أو : لا ينتقص بسيرها. ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ

عَلَيْهِ

أي : على الظل دَلِيلًا ، لأنه بالشمس يعرف الظل ، فلو لا طلوعها وظهورها ما عرف الظل ، ولا ظهر له أثر ، فالأشياء تعرف بأضدادها.

ثُمَّ قَبَضْناهُ أي : أخذنا ذلك الظل الممدود إِلَيْنا إلى حيث إرادتنا قَبْضاً يَسِيراً أي : على مهل قليلا قليلا ، حسب ارتفاع دليله ، على حسب مصالح المخلوقات ومرافقها.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً أي : جعل الظلام الساتر كاللباس وَالنَّوْمَ سُباتاً أي : راحة لأبدانكم ، وقطعا لأعمالكم. والسبت : القطع ، والنائم مسبوت لأنه انقطع عمله وحركته ، وقيل السبات : الموت ، والميت مسبوت لأنه مقطوع الحياة ، كقوله : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ «١». ويعضده ذكر النشور فى مقابلته بقوله : وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً أي : ذا نشور ، أي : انبعاث من النوم ، كنشور الميت ، أو : ينشر فيه الخلق للمعاش.

وهذه الآية ، مع دلالتها على قدرته تعالى ، فيها إظهار لنعمته تعالى لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية ، وفى النوم واليقظة – المشبهين بالموت والبعث – عبرة للمعتبرين. قال لقمان لابنه : كما تنام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشر.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، وعن المكي بالإفراد ، نَشْراً «٢» : جمع نشور ، أي : أرسلها للسحاب حتى تسوقها إلى حيث أراد تعالى أن تمطر ، بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أي : أرسلها قدام المطر ، لأنه ريح ، ثم سحاب ، ثم مطر. وقرأ عاصم بالباء ، أي : مبشرات بالمطر. وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً أي : مطهرا بالغا فى التطهير ، كقوله : لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ «٣» وهو اسم لما يتطهر به ، كالوضوء والوقود ، لما يتوضأ به ويوقد به. وقيل : طهور فى نفسه ، مبالغة فى الطاهرية ، فالطهور فى العربية يكون صفة ، كما تقول : ماء طهور ، واسما ، كما فى قوله صلى اللّه عليه وسلم :

«التراب طهور ، والمؤمن طهور» ، وقد يكون مصدرا بمعنى الطهارة ، كقولك : تطهرت طهورا حسنا ، ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «لا صلاة إلا بطهور» «٤». ووصفه تعالى الماء بذلك ليكون أبلغ فى النعمة ، فإن الماء الطهور أنفع وأهنأ مما خالطه ما يزيل طهوريته ، أي : أنزلناه كذلك.

لِنُحْيِيَ بِهِ أي : بالمطر الطهور بَلْدَةً مَيْتاً بالجدب والقحط ، فحييت بالنبات والعشب. والتذكير لأن البلدة بمعنى البلد ، والمراد به : القطعة من الأرض عامرة أو غامرة. وَنُسْقِيَهُ أي : ذلك الماء الطهور ، عند

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة الأنعام.

(٢) قرأ عاصم : «بشرا» بالباء ، وقرأ الباقون «بالنون» .. انظر الإتحاف (٢/ ٣٠٩).

(٣) من الآية ١١ من سورة الأنفال.

(٤) أخرجه بطوله مسلم فى (الطهارة ، باب وجوب الطهارة للصلاة ، ١/ ٢٠٤ ، ح ٢٢٤) من حديث ابن عمر. رضي اللّه عنه : (لا تقبل صلاة بغير طهور.) الحديث.

جريانه فى الأودية ، أو اجتماعه فى الآبار والحياض ، مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً أي : نسقى ذلك بهائم وناسا كثيرا. والأناسى : جمع أنسيّ ، ككرسى وكراسى. وقيل : جمع إنسان ، وأصله : أناسين ، وأبدلت النون ياء ، وأدغمت التي قبلها فيها. وقدّم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهما. وتخصيص الأنعام من بين سائر الحيوان لأن عامة منافع الإنسان متعلقة بها.

وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ أي : هذا القول ، الذي هو إنشاء السحاب وإنزال المطر ، على الوجه الذي مرّ من الغايات الجميلة ، فى القرآن وغيره من الكتب السماوية ، أو : صرفنا المطر عاما بعد عام وفى بلدة دون أخرى. أو : صرفناه بينهم وابلا ، وطلّا ، ورذاذا وديمة. وقيل : التصريف راجع إلى الريح. وقيل : إلى القرآن المتقدم فى قوله : لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ .. «١» ويعضده : وَجاهِدْهُمْ بِهِ «٢». وقوله : بَيْنَهُمْ أي : بين الناس جميعا متقدمين ومتأخرين ، لِيَذَّكَّرُوا ليتفكروا ويعرفوا قدر النعمة فيه ، أو : ليعرفوا بذلك كمال قدرته وسعة رحمته ، فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ ممن سلف وخلف إِلَّا كُفُوراً أي : جحودا لهذه النعمة وقلة اكتراث بها ، وربما نسبوها إلى غير خالقها ، فيقولون : مطرنا بنوء كذا.

وفى البخاري عنه صلى اللّه عليه وسلم يقول اللّه تعالى : «أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر ، فأمّا من قال : مطرنا بفضل اللّه ورحمته فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب. وأما من قال : مطرنا بنوء كذا ، فهو

كافر بي ، مؤمن بالكواكب» «٣». فمن نسب الأمطار إلى الأنواء ، وجحد أن تكون هى والأنواء من خلق اللّه ، فقد كفر ، ومن اعتقد أن اللّه خالقها ، وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها ، لم يكفر.

وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «ليس سنة بأمطر من الأخرى ، ولكن اللّه تعالى قسم هذه الأرزاق ، فجعلها فى سماء الدنيا ، فى هذا القطر ، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم. ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل اللّه ذلك إلى غيرهم ، فإذا عصوا جميعا صرف اللّه ذلك إلى الفيافي والبحار» «٤». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الكون كله ، من جهة حسه الظاهر ، ظل آفل ، وضباب حائل ، لا وجود له من ذاته ، وإنما الوجود للمعانى القديمة الأزلية. فنسبة الكائنات ، من بحر المعاني الأزلية ، كنسبة ظلال الأشجار فى البحار ، فظلال

---

(١) الآية ٣٢ من هذه السورة.

(٢) الآية ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاستسقاء ، باب قول اللّه تعالى : وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ح ١٠٣٨) ومسلم فى (الإيمان ، باب كفر من قال : مطرنا بالنوء ، ١/ ٨٣ ، ح ١٢٥) ، عن زيد بن خالد الجهني.

(٤) ذكره بلفظه البغوي فى تفسيره (٦/ ٨٩) وعزاه لابن إسحاق ، وابن جريج ، ومقاتل ، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه. وأخرج الحاكم فى المستدرك (التفسير ٢/ ٤٠٣) ، عن ابن عباس : «ما من عام ، أمطر من عام ، ولكن اللّه قسم ذلك بين عباده على ما يشاء ، وتلا هذه الآية. يعنى : قوله : وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي على شرط الشيخين. [.....]

الأشجار فى البحار لا تمنع السفن من التسيار ، فكذلك ظلال الكائنات لا تمنع سفن الأفكار من الخوض فى بحار المعاني الأزلية الجبروتية ، بل تخرقها ، وتخوض فى بحار الأحدية الجبروتية ، الأولية والآخرية ، والظاهرية والباطنية ، والعلوية والسفلية ، ولا يحجبها عن اللّه ظل شيء من الكائنات ، وإليه الإشارة بقوله : ألم تر ، أيها العارف ، إلى ربك كيف مد الظل ، أي : مد ظل الكائنات ليعرف بها كنز ربوبيته وبطون غيبه ، ثم يرفع ذلك الظل عن عين البصيرة ، التي أراد فتحها ، فتشاهد بطون الأزل

وغيب الغيب ، وتصير عارفة بالله. ولو شاء لجعله ساكنا ، فيقع به الحجاب ، فيحجب العبد بسحب الآثار عن شهود الأنوار. ثم جعلنا شمس العرفان عليه أي : على الأثر ، دليلا ، فيستدل بالله على غيره ، فلا يرى غيره ، ثم قبضناه ، أي : ذلك الظل ، عن قلب السائر أو العارف ، قبضا يسيرا ، فيغيب عنه شيئا فشيئا ، حتى يفنى عن حسه وحس غيره من الكائنات ، فلا يشهد إلا المكوّن لأن ذلك إنما يكون بالتدرج والتدريب ، فإذا تحقق فناؤه رجع إلى شهود الأثر بالله «١» قياما برسم الحكمة ، وأداء لحق العبودية.

وهو الذي جعل ليل القبض لباسا ، أي : سترا ورداء من الهفوات لأن القبض يغلب فيه السكون ، وجانبه مأمون ، والنوم – أي : الزوال – سباتا ، أي : راحد من كد التدبير والاختيار ، وجعل نهار البسط نشورا ، تنتشر فيه العلوم وتنبسط فيه المعارف ، إن قام صاحبه بآدابه ، ولا يقوم به إلا القليل لأنه مزلة أقدام ، ولذلك قال فى الحكم :

«ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا».

وهو الذي أرسل رياح الواردات الإلهية نشرا بين يدى رحمته ، أي : معرفته إذ لا رحمة أعظم منها ، وأنزلنا من سماء الغيوب ماءا طهورا ، وهو العلم بالله ، الذي تحيا به الأرواح والأسرار ، وتطهر به قلوب الأحرار ، لنحيي به بلدة ميتا ، أي : روحا ميتة بالجهل والغفلة ، ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا لأن ماء المعاني سار فى كل الأوانى فماء التوحيد سار فى الأشياء كلها ، جهل هذا من جهله ، وعرفه من عرفه. وأكثر الناس جاحدون لهذا.

ولذلك قال تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ فكل شيء فيه سر من حياة هذا الماء ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا وجحودا له ، ولم ينتفع به إلا خواص أوليائه. وبالله التوفيق.

ثم إن هذا الماء إنما يسقى على أيدى الوسائط. وكان القياس تعددهم كتعدد سحابات الأمطار بتعدد الأقطار ، لكن خولف ذلك فى حق نبينا صلى اللّه عليه وسلم تشريفا لقدره ، وتعظيما لأمره ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥١ الى ٥٢]

وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً (٥١) فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَجاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً (٥٢)

---

(١) إذن فهو فناء شهود ، وليس فناء وجود. فتنبه ، أعزك اللّه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٨

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً أي : رسولا ينذر أهلها ، ولقسمنا النذر بينهم كما قسمنا المطر ، فيخف عليك أعباء النبوة ، ولكنا لم نشأ ذلك فحملناك ثقل نذارة جميع القرى ، حسبما نطق به قوله تعالى : لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «١» لتستوجب بذلك الدرجة القصوى ، وتفضل على سائر الرسل والأنبياء ، فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم. وكما آثرتك على جميع الأنبياء فآثر رضاى على جميع الأهواء ، وكأنه نهى للرسول صلى اللّه عليه وسلم عن المداراة معهم ، والتقصير فى الدعوة لئلا تغلبه الشفقة عن مقابلتهم بصريح الحق.

قال القشيري : فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ أي : كن قائما بحقّنا ، من غير أن يكون منك جنوح إلى غيرنا ، أو مبالاة بسوانا ، فإنّا نعصمك بكل وجه ، ولا نرفع عنك ظلّ عنايتنا بحال. هـ.

وَجاهِدْهُمْ بِهِ أي : بالقرآن بأن تقرأ عليهم ما فيه من الزواجر والقوارع والمواعظ ، وذكر أحوال الأمم الهالكة ، جِهاداً كَبِيراً عظيما موقعه عند اللّه لما يتحمل فيه من المشاق ، فإن دعوة كلّ العالمين ، على الوجه المذكور ، جهاد كبير ، أو : (جاهدهم به) بالشدة والعنف من غير مداداة ولا ملاينة ، فكبر الجهاد هو ملابسته بالشدة والعنف ، كقوله : جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ «٢». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الإنذار والوعظ بالمقال مع الهمة والحال عزيز الوجود ، فقلّ أن يجتمع منهم ، فى العصر الواحد ، ثلاثة أو أربعة فى الإقليم الكبير لأن اللّه تعالى لم يشأ ذلك بحكمته ، قال تعالى : وَلَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ، وكلما قلّ عددهم ، وعظم الانتفاع بهم ، عظم قدرهم ، فينبغى للمذكّر أن يذكّر كلّا بما يليق به ، فأهل العصيان ينبغى له أن يشدد فى الإنذار ، ولا يداريهم ولا يداهنهم. وأهل الطاعة ينبغى له أن يبشّرهم ويسهل الأمر عليهم ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : «يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا» «٣» ، فيحتاج المذكّر إلى فطنة وفراسة ، حتى يعطى كل واحد ما يليق به ، ويخاطب كل واحد بما يطيقه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دليلا آخر على كمال قدرته ، فقال :

---

(١) من الآية الأولى من سورة الفرقان.

(٢) من الآية ٧٣ من سورة التوبة ، والآية ٩ من سورة التحريم.

(٣) أخرجه البخاري فى (كتاب العلم ، باب : ما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يتخولهم بالموعظة ، ح ٦٩) ومسلم فى (الجهاد والسير. باب الأمر بالتيسير وترك التنفير ، ٣/ ١٣٠٩ ، ح ١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك – رضى اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٠٩

[سورة الفرقان (٢٥) : آية ٥٣]

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً (٥٣)

قلت : أصل المرج : الخلط والإرسال ، ومنه قوله تعالى : فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ «١» ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «كيف بك يا عبد اللّه إذا كنت فى حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، وصاروا هكذا ، وشبّك بين أصابعه» «٢».

يقال : مرجت دابته وأمرجتها : إذا أرسلتها فى المرعى. ومنه قيل للروضة : مرج.

يقول الحق جل جلاله : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أي : أرسلهما ، وخلّاهما متجاورين متلاصقين غير متمازجين. هذا عَذْبٌ فُراتٌ أي : شديد العذوبة ، قامع للعطش لعذوبته ، أي : برودته ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ : بليغ الملوحة ، أو : هذا عذب لا ملوحة فيه ، وهذا ملح لا عذوبة فيه ، مع اتحاد جنسهما ، وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً حائلا بقدرته ، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج لئلا يختلطا ، وَحِجْراً مَحْجُوراً أي : وسترا ممنوعا عن الأعين ، كقوله : حِجاباً مَسْتُوراً «٣» ، أي : جعل بينهما حاجزا خفيا لئلا يغلب أحدهما الآخر ، أو : سدا ممنوعا يمنعهما فلا يبغيان ، ولا يفسد الملح العذب ، ولو خلّا اللّه تعالى البحر الملح ، ولم يلجمه بقدرته ، لفاض على الدنيا ، واختلط مع العذب وأفسده.

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٤ الى ٥٥]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً (٥٥)

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال : وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْماءِ أي : النطفة بَشَراً إنسانا فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً. قسم البشر قسمين : ذوى نسب ، أي : ذكورا ، ينسب إليهم ، فيقال : فلان ابن فلان. وذوات صهر ، أي : إناثا يصاهر بهن ، فهو كقوله : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى «٤». قال ابن جزى : والنسب : أن يجتمع إنسان مع آخر فى أب أو أمّ ، قرب ذلك أو بعد. والصهر : هو الاختلاط بالتناكح. هـ. وعن على رضي اللّه عنه : النسب ما لا يحل نكاحه ، والصهر : ما يحل نكاحه.

وعن الضحاك ومقاتل : النسب سبعة ، والصهر خمسة ، ثم قرأ هذه الآية : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ «٥». فالسبعة الأولى :

نسب ، والباقي : صهر. هـ. والأصح أن التسعة نسب ، والباقي صهر.

---

(١) من الآية ٥ من سورة ق.

(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان ٧/ ٥٧٥ ح ٥٩٢٠) عن أبى هريرة ، وأخرجه أحمد فى المسند (٢/ ١٦٢) ، وأبو داود فى (الملاحم ، باب الأمر والنهى ، ٤/ ٥١٣ ، ح ٤٣٤٢) وابن ماجه فى (الفتن

، باب التثبت فى الفتنة ، ٢/ ١٣٠٧ ح ٣٩٥٧) ، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.

(٣) من الآية ٤٥ من سورة الإسراء.

(٤) من الآية ٣٩ من سورة القيامة.

(٥) من الآية ٢٣ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٠

وَكانَ رَبُّكَ قَدِيراً حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا ذا نوعين ، ذكرا وأنثى ، أو : حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة ، وجعله قسمين متقابلين ذكرا وأنثى.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، بعد هذا البرهان الواضح على توحيده ، ما لا يَنْفَعُهُمْ إن عبدوه ، وَلا يَضُرُّهُمْ إن تركوه ، وهم الأصنام ، أو كل من عبد من دون اللّه إذ المخلوق كله عاجز ، وَكانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ، الذي ذكر آثار قدرته ودلائل ربوبيته ، ظَهِيراً معينا ، يظاهر الشيطان ويعينه على الكفر والعصيان.

والمعنى : أن الكافر بعبادة الصنم ، يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن. وقال ابن عرفة : أي : مظاهرا لأعداء اللّه على أولياء اللّه ، فتلك إعانته. هـ.

الإشارة : مرج البحرين بحر الشريعة وبحر الحقيقة ، فبحر الشريعة عذب فرات لأنه سهل المدارك ، يناله الخاص والعام ، وبحر الحقيقة ملح أجاج لأنه لا يناله إلا من ذاق مرارة فطام النفس من هواها ، ومجاهدتها فى ترك مناها ، حتى تموت ثم تحيا ، فحينئذ تتلذذ بمشاهدة مولاها ، وتطيب حياتها فى أخراها ودنياها. فبحر الحقيقة صعب المرام ، لا يركبه إلا الشجعان ، وفى ذلك يقول صاحب العينية رضي اللّه عنه :

وإيّاك جزعا «١» لا يهولك أمرها فما نالها إلّا الشّجاع المقارع

والبرزخ الذي جعل بينهما : نور العقل ، يميز بين محل الشرائع ومحل الحقائق ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوفى كل ذى قسط قسطه.

ثم ذكر شأن الواسطة ، التي هى سبب لركوب البحرين ، فقال :

وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً ...

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٦ الى ٥٧]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً (٥٦) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْناكَ يا محمد إِلَّا مُبَشِّراً للمؤمنين وَنَذِيراً للكافرين ، قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ

عَلَيْهِ على تبليغ الرسالة مِنْ أَجْرٍ من جهتكم ، فتقولون : إنما يطلب محمد جمع أموالنا ، إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا أي : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه طريقا توصله إليه ، بإنفاقه ماله فى سبيل اللّه ، فليفعل وليعطه لغيره. وقيل : الاستثناء متصل ، أي : لا أسألكم عليه أجرا ، إلا فعل من يريد أن يتقرب إليه

---

(١) فى العينية : حزما. انظر الديوان (ص ٧٨).

تعالى ، ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة ، حسبما أدعوكم إليهما. فصوّر ذلك بصورة الأجر من حيث إنه مقصود الإتيان به ، واستثناه منه قطعا لشائبة الطمع ، وإظهارا لغاية الشفقة عليهم ، حيث جعل ذلك ، مع كون نفعه عائدا إليهم ، عائدا إليه صلى اللّه عليه وسلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العلماء باللّه خلفاء الرسل ، فما أظهرهم اللّه فى كل زمان إلا ليذكروا الناس ويعظوهم ، ويبشروهم وينذروهم ، من غير عوض ولا طمع ، فإن تعلقت همتهم بشىء من عرض الدنيا من أيدى الناس ، كسف ذلك نورهم ، وانتقص نفعهم ، وقلّ الاهتداء على أيديهم ، وقد تقدم هذا مرارا. وباللّه التوفيق.

ثم أمر نبيه بالتوكل ، ليغيب عن خيرهم وشرهم ، وعن طلب الأجر منهم ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٥٨ الى ٦٠]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩) وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَزادَهُمْ نُفُوراً (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ فى الاستكفاء عن شرورهم ، والاغتناء عن أجورهم ، أي : ثق به فإنه يكفيك عن الطمع فيمن يموت ، فلا تطلب على تبليغك من مخلوق أجرا ، فإن اللّه كافيك. قرأها بعض الصالحين فقال : لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق. وَسَبِّحْ أي : ونزهه أن يكل إلى غيره من توكّل عليه ، بِحَمْدِهِ أي : بتوفيقه الذي يوجب الحمد ، أو : قل سبحان اللّه وبحمده ، أو : نزهه عن صفات النقصان ، مثنيا عليه بنعوت الكمال ، طالبا لمزيد الإنعام ، وَكَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً أي : كفى اللّه خبيرا بذنوب عباده ، ما ظهر منها وما بطن ، يعنى : أنه خبير بأحوالهم ، كاف فى جزاء أعمالهم الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ أي : فى مدة

مقدارها [ستة أيام] «١» إذ لم يكن ليل ولا نهار. وعن مجاهد : أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، وإنما خلقها فى هذه المدة ، وهو قادر على خلقها فى لحظة ، تعليما لخلقه الرفق والتثبت.
ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ استواء يليق به ، الرَّحْمنُ أي : هو الرحمن ، أو :
فاعل استوى ، أي : استوى الرحمن برحمانيته على العرش وما احتوى عليه. وراجع ما تقدم فى الأعراف. «٢» فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً

---

(١) زيادة ليست فى الأصول.
(٢) راجع : تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف (٢/ ٢٢٣ - ٢٢٥).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٢
أي : سل عنه رجلا عارفا خبيرا به ، يخبرك برحمانيته. وكانوا ينكرون اسم الرحمن ، ويقولون : لا نعرف الرحمن إلا الذي باليمامة ، يعنون : مسليمة الكذاب ، وكان يقال له : رحمن اليمامة ، غلوّا فيه ، فأمر نبيه أن يسأل من له خبرة وعلم بالكتب المتقدمة عن اسم الرحمن ، فإنه مذكور فى الكتب المتقدمة.
قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف : والظاهر : أن الخبير هو اللّه ، أي : اسأل اللّه الخبير بالأشياء ، الأعلم بخفاياها ، والتقدير : فسل بسؤالك إياه خبيرا. وإنما استظهرنا هذا القول لأن المأمور بالسؤال الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وتجلّ رتبته عن سؤال غير ربه. والمراد : فسل اللّه الخبير بالرحمن ووصفه. انظر تمام كلامه.
وَإِذا قِيلَ لَهُمُ أي : إذا قال محمد للمشركين : اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ صلّوا له ، أو : اخضعوا ، قالُوا وَمَا الرَّحْمنُ أي : لا نعرف الرحمن فنسجد له ، قالوا ذلك : إما لأنهم ما كانوا يطلقونه على اللّه تعالى ، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى. أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا أي : للذى تأمرنا بالسجود له ، أو لأمرك بالسجود له من غير علم منا به. وهو منهم عناد لأن معناه فى اللغة : ذو الرحمة التي لا غاية لها لأن فعلان يدل على المبالغة ، وهم من أهل اللغة. وَزادَهُمْ نُفُوراً أي : زادهم الأمر بالسجود للرحمن تباعدا عن الإيمان ونفورا عنه. وباللّه التوفيق.
الإشارة : قد تقدم الكلام على التوكل فى مواضع. وللقشيرى هنا كلام ، وملخصه باختصار : أن التوكل :
تفويض الأمر إلى اللّه سبحانه ، وأصله : علم العبد بأنّ الحادثات كلّها حاصلة من اللّه ، ولا يقدر أحد على إيجاد شيء أو دفعه ، فإذا عرف العبد هذا ، وعلم أن المراد اللّه لا يرتفع ولا يدفع ، حصل له

التوكل. وهذا القدر فرض ، وهو من شرائط الإيمان ، قال اللّه تعالى : وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١» ، وما زاد على هذا القدر من سكون القلب ، وطمأنيته ، وزوال الانزعاج والاضطراب ، فهو من أحوال التوكل ومقاماته.

فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ودرجات ، فأول رتبة فيه : أن يكتفى بما فى يده ، ولا يطلب الزيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة. وتسمى هذه الحالة : القناعة ، فيقنع بالحاصل ، ولا يستزيد ما ليس بحاصل – يعنى : مع وجود الأسباب – ثم بعد هذا سكون القلب فى حال عدم الأسباب ، وهو مقام التجريد ، وهم متباينون فى الرتبة : واحد يكتفى بوعده لأنه صدّقه فى ضمانه ، فسكن قلبه عند فقد الأسباب ثقة منه بوعد ربه ، وقد قيل : إن التوكل : سكون القلب بضمان الربّ ، ويقال : سكون الجأش فى طلب المعاش ، ويقال : الاكتفاء بوعده عند عدم نقده.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة المائدة.

وألطف من هذا أن يكتفى بعلم اللّه ، فيشتغل بمولاه ، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان ، فيكل أمره إلى اللّه ، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه : التفويض ، وهو أن يكل أمره إليه ، ولا يختار حالا على حال ، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه ، يعلم أنه مملوك لسيّده ، والسيّد أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد الراحة فى المنع ، ويستعذب ما يستقبله من الرّدّ ، فهى رتبة الرضا ، ويحصل له فى هذه الحالة ، من فوائد الرضا ومطالعته ، ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة فى وجود المقصود.

وبعد هذا : الموافقة وهو ألا يجد الراحة فى المنع ولا فى العطاء ، وإنما يجد حلاوة نسيم القرب ، وزوائد الأنس بنسيان كل أرب. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند برد الرضا – ويعدّون ذلك حجابا – كذلك أهل الأنس باللّه يعدّون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصانا وحجابا. ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة ، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية ، فيعبر عن هذه الحالة بالخمود ، والاستهلاك ، والوجود ، والاصطلام ، والفناء ، – وهذا هو عين التوحيد الخاص – فعند ذلك لا أنس ، ولا هيبة ، ولا لذة ، ولا راحة ، ولا وحشة ، ولا آفة. يعنى : تغيب المقامات بلذاتها وراحتها ، عند تحقق الفناء ، ثم قال : هذا بيان ترتيبهم ، فأمّا ما دون ذلك فالإخبار عن أحوال المتوكلين ، على تباين شرفهم ، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضا : ويقال : التوكل فى الأسباب الدنيوية ينتهى إلى حدّ ، وأما التوكل على اللّه فى إصلاح آخرته : فهو أشدّ غموضا وأكثر خفاء ، فالواجب ، فى الأسباب الدنيوية ، أن يكون السكون عند طلبها غالبا ، والحركة تكون ضرورة ، وأما فى أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة ، فالواجب البدار والجدّ والانكماش ، والخروج عن أوطان الكسل ، وترك الجنوح إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني فى العبادات والتباطؤ فى تلافى ما ضيّعه من إرضاء الخصوم ، والقيام بحقّ الواجبات ، ثم يعتقد فى نفسه أنه متوكّل على اللّه ، فهو متمن معلول الحال ، ممكور مستدرج ، بل يجب أن يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه ، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكونه وحركته ، ويتبرّأ من حوله وقوّته ، ثم يحسن الظنّ بربّه. ومع حسن ظنه بربّه لا ينبغى أن يخلو من مخافته ، اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغله فى الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة فى العواقب فإن ذلك – إذا حصل – فالوقت غالب ، وهو أحد ما قيل فى قولهم : الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن ، الذي نفر المشركون عن الخضوع له ، ما يبين عظمته وكبرياءه ، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له ردا على امتناع الكفرة منه ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦١ الى ٦٢]

تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (٦٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٤

يقول الحق جل جلاله : تَبارَكَ أي : تعاظم الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وهى البروج الإثنا عشر : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت.

وهى منازل الكواكب السبعة السيارة ، لكل كوكب بيتان ، يقوى حاله فيهما ، وللشمس بيت ، وللقمر بيت ، فالحمل والعقرب بيتا المريخ ، والثور والميزان بيتا الزهرة ، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد ، والسرطان بيت القمر ، والأسد بيت الشمس ، والقوس والحوت بيتا المشترى ، والجدى والدلو بيتا زحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع ليصيب كل واحدة منها ثلاثة بروج ، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية ، والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية ، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية ، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سميت بالبروج التي هى القصور العالية لأنها ، لهذه الكواكب ، كالمنازل الرفيعة لسكانها. واعتبر بزيادة البحر عند زيادة القمر ونقصه عند نقصه ، فإن بيت القمر –

وهو السرطان – مائى ، وذلك من إمداد الأسماء لا بالطبع. وتذكر : «وبالاسم الذي وضعته على الليل فأظلم ..» إلخ. قاله فى الحاشية.

واشتقاق البروج من التبرج ، الذي هو الظهور لظهورها ، ولذلك قال الحسن وقتادة ومجاهد : البروج : النجوم الكبار لظهورها.

وَجَعَلَ فِيها سِراجاً أي : الشمس ، لقوله تعالى : وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً «١». وقرأ الأخوان : «سرجا». ويراد : النجوم الكبار والشمس ، وَقَمَراً مُنِيراً أي : مضيئا بالليل.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً أي : ذو خلفة يخلف كل واحد منهما الآخر ، بأن يقوم مقامه ، فيما ينبغى أن يعمل فيه ، فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر. قال قتادة : فأروا اللّه تعالى من أعمالكم خيرا فى هذا الليل والنهار ، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم ، تقربان كل بعيد ، وتبليان كل جديد ، وتجيئان بكل موعود. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : فاتتنى الصلاة الليلة ، فقال : أدرك ما فاتك من ليلتك فى نهارك ، فإن اللّه تعالى جعل الليل والنهار خلفة لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ. هـ «٢». أي : يتذكر آلاء اللّه – عز وجل – ، ويتفكر فى بدائع صنعه ، [فيعلم] «٣» أنه لا بد له من صانع حكيم. وقرأ حمزة وخلف : «يذكر» أي : يذكر اللّه فى قضاء ما فاته فى أحدهما ، أَوْ أَرادَ شُكُوراً أي : شكر نعمة ربه عليه فيهما ، فيجتهد فى عمارتها بالطاعة شكرا. وباللّه التوفيق.

الإشارة : تبارك الذي جعل فى سماء القلوب أو الأرواح بروجا منازل ينزلها السائر ، ثم يرحل عنها ، وهى مقامات اليقين كالخوف ، والرجاء ، والورع ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والرضا ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ،

---

(١) الآية ١٦ من سورة نوح. [.....]

(٢) أخرج الطبري (١٩/ ٣٠) عن شقيق.

(٣) فى الأصول : [فيهم]. والمثبت : من تفسير البيضاوي وأبى السعود.

والمشاهدة ، والمعاينة. وجعل فيها سراجا ، أي : شمس العرفان لأهل الإحسان ، وقمرا منيرا ، وهو توحيد البرهان لأهل الإيمان. وهو الذي جعل ليل القبض ونهار البسط خلفة ، يخلف أحدهما الآخر ، لمن أراد أن يذكر فى ليل القبض ، ويشكر فى نهار البسط. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر أهل الذّكر والشكر ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦٣ الى ٦٧]

وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (٦٥) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (٦٦) وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (٦٧)

قلت : و(عباد) : مبتدأ ، و(الذين) وما بعده : خبر. وقيل : (أولئك يجزون). و(هونا) : حال ، أو : صفة ، أي :

يمشون هينين ، أو : مشيا هونا.

يقول الحق جل جلاله : وَعِبادُ الرَّحْمنِ أي : خواصه الذين يسجدون ويخضعون للرحمن ، الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً أي : بسكينة وتواضع ووقار ، قال الحسن : يمشون حلماء علماء مثل الأنبياء ، لا يؤذون الذر ، فى سكون وتواضع وخشوع ، وهو ضد المختال الفخور المرح ، الذي يختال فى مشيه. وقال ابن الحنفية : أصحاب وقار وعفة ، لا يسفهون ، وإن سفه عليهم حلموا. و«الهون» فى اللغة : الرفق واللين. ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم : «أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما. وأبغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما» «١».

وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ أي : السفهاء بما يكرهون ، قالُوا سَلاماً سدادا من القول ، يسلمون فيه من الإيذاء والإثم والخنا. أو : سلمنا منكم سلاما ، أو : سلموا عليهم سلاما ، دليله قوله تعالى : وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ «٢» ، ثم

---

(١) أخرجه الترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى الاقتصاد فى الحب والبغض ٤/ ٣١٦ ، ح ١٩٩٧) ، من حديث أبى هريرة ، وأخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (باب الاقتصاد فى النفقة ، ٥/ ٢٦٠ ، ح/ ٦٥٩٣) عن سيدنا علىّ ، موقوفا.

(٢) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٦

قالوا : سَلامٌ عَلَيْكُمْ. قيل : نسختها آية القتال ، وفيه نظر فإن الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعا ومروءة ، فلا ينسخ.

وكان الحسن إذا تلى الآيتين قال : هذا وصف نهارهم ، ثم قال تعالى : وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً : هذا وصف ليلهم. قال ابن عباس : من صلى لله تعالى ركعتين ، أو أكثر ، بعد العشاء ، فقد

بات لله تعالى ساجدا وقائما. وقيل :
هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء ، والظاهر : أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره.
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً هلاكا لازما. ومنه : الغريم لملازمته غريمه ، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ، وعقّبه بذكر دعوتهم هنا إيذانا بأنهم ، مع اجتهادهم ، خائفين مبتهلين إلى اللّه فى صرف العذاب عنهم إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً ، أي : إن جهنم قبحت مستقرا ومقاما لهم. و«ساءت» : فى حكم «بئست» ، وفيها ضمير مبهم يفسره مُسْتَقَرًّا. والمخصوص بالذم : محذوف ، أي : ساءت مستقرا ومقاما هى. وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم «إن».
وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا لم يجاوزوا الحد فى النفقة. وعن ابن عباس : لم ينفقوا فى المعاصي.
فالإسراف : مجاوزة حد الأمر ، لا مجاوزة القدر. وسمع رجل جلا يقول : لا خير فى الإسراف ، فقال : لا إسراف فى الخير. وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من منع حقا فقد قتر ، ومن أعطى فى غير حق فقد أسرف». وَلَمْ يَقْتُرُوا ، القتر والإقتار والتقتير : التضييق. وقرئ بالجميع «١» ، وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً أي : وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار قواما عدلا بينهما. فالقوام : العدل بين الشيئين. قال أبو عبيدة : لم يزيدوا على المعروف ، ولم يخلوا به ، لقوله :
وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ ... «٢» الآية. وقال يزيد بن أبى حبيب فى هذه الآية : أولئك أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم ، كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ، ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة. ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدّ عنهم الجوع ، ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن الثياب ما يستر عوراتهم ، ويكنّهم من الحرّ والبرد.
وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : كفى بالمرء سرفا ألا يشتهى شيئا إلا اشتراه فأكله. ومثله فى سنن ابن ماجة مرفوعا «٣». قال القشيري : الإسراف : أن ينفق فى الهوى ونصيب النفس ، ولو فلسا ، وأما ما كان لله فليس فيه إسراف ، ولو ألفا. والإقتار : ما كان ادخارا عن اللّه ، فأما التضييق على النّفس منعا لها عن اتباع الشهوات ، ولتتعود الاجتزاء باليسير ، فليس بالإقتار المذموم. هـ.
[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٦٨ الى ٧١]
وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (٦٨) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (٦٩) إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٠) وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (٧١)
وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ أي : لا يشركون بالله شيئا ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قتلها إِلَّا بِالْحَقِّ بقود ، أو رجم ، أو شرك ، أو سعي فى الأرض بالفساد ، وَلا يَزْنُونَ أي : لا يفعلون من

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر : (يقتروا) بضم الياء وكسر التاء من أقتر. وقرأ ابن كثير وأبو عمر

ويعقوب : بفتح الياء وكسر التاء ، كيحمل ، وقرأ الباقون بفتح الياء ، وضم التاء ، كيقتل ... انظر الإتحاف (٢/ ٣١١).

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه ابن ماجة فى (الأطعمة ، باب من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت ، ٢/ ١١١٢ ح ٣٣٥٢) من حديث أنس بن مالك ، بلفظ : «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٧

هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة شيئا ، حيث كانوا مع إشراكهم به – سبحانه – مداومين على قتل النفوس المحرمة ، التي من جملتها الموؤدة ، منكبّين على الزنا ، لا يرعوون عنه أصلا ، فنفى هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيره ، كأنه قيل : والذين طهرهم اللّه مما أنتم عليه. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : «قلت : يا رسول اللّه أىّ الذّنب أعظم؟ قال : أن تجعل للّه ندّا وهو خلقك ، قلت : ثمّ أىّ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثمّ اىّ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك». فنزلت الآية تصديقا لذلك «١».

الإشارة : قد تضمنت الآية أربعة أصناف من الناس على سبيل التدلي الأول : الأولياء العارفون باللّه ، أهل التربية النبوية ، ومن تعلق بهم من أهل التهذيب والتأديب ، وإليهم أشار بقوله : وَعِبادُ الرَّحْمنِ ... إلخ ، وفيهم قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «رأيت أقواما من أمتى ، ما خلقوا بعد ، وسيكونون فيما بعد اليوم ، أحبهم ويحبوننى ، ويتناصحون ويتباذلون ، يمشون بنور اللّه فى الناس رويدا ، فى خفية وتقى ، يسلمون من الناس ، ويسلم الناس منهم بصبرهم وحملهم ، قلوبهم بذلك إليه يرجعون ، ومساجدهم بصلاتهم يعمرون ، يرحمون ضعيفهم ، ويجلون كبيرهم ، ويتواسون بينهم ، يعود غنيهم على فقيرهم ، وقويهم على ضعيفهم ، يعودون مرضاهم ، ويشهدون جنائزهم ، فقال رجل من القوم : يرفقون برقيقهم؟ فالتفت إليه النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : كلا لا رقيق لهم ، وهم خدام أنفسهم ، هم أكرم على الله تعالى من أن يوسع عليهم لهوان الدنيا عند ربهم. ثم تلى النبي صلى اللّه عليه وسلم : وَعِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً ... الآية. رواه أبو برزة الأسلمى ، عنه صلى اللّه عليه وسلم.

الثاني : العباد والزهاد ، أهل الجد والاجتهاد ، أهل الصيام والقيام ، الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، أقامهم الحق تعالى لخدمته ، كما أقام الأولين لمحبته ومعرفته. الثالث : الصالحون والأبرار ، الذين يعبدون اللّه طمعا فى الجنة وخوفا من النار ، ومن كان منهم له مال أنفقه فى سبيل اللّه ، من غير سرف

ولا إقتار. الرابع : عامة الموحّدين من أهل اليمين ، المجتنبون لكبائر الذنوب ، المسارعون بالتوبة إلى علام الغيوب. واللّه تعالى أعلم.

ثم أشار إلى وبال من فعل شيئا من ذلك ولم يتب ، فقال :

وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ...

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة الفرقان ، باب «والذين لا يدعون مع اللّه إلها آخر» ح ٤٧٦١) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب كون الشرك أقبح الذنوب ، ١/ ٩٠ ح ١٤١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٨

قلت : (يضاعف) و(يخلد) : بدل من (يلق) بدل كل من كل ، عند الأزهرى لأن لقىّ الآثام هى مضاعفة العذاب ، وبدل اشتمال ، عند المرادي. ومن رفعهما : فعلى الاستئناف.

يقول الحق جل جلاله : وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ أي : ما ذكر ، كما هو دأب الكفرة المذكورين ، يَلْقَ فى الآخرة أَثاماً وهو جزاء الآثام ، كالوبال والنكال وزنا ومعنى ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أضعافا كثيرة ، كما يضاعف للمومنين جزاء أعمالهم كذلك ، وَيَخْلُدْ فِيهِ أي : فى ذلك العذاب المضاعف ، مُهاناً ذليلا حقيرا ، جامعا للعذاب الجسماني والروحاني.

إِلَّا مَنْ تابَ من الشرك ، وَآمَنَ بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً بعد توبته فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ أي : يوفقهم للمحاسن بعد القبائح ، فيوفقهم للإيمان بعد الشرك ، ولقتل الكافر بعد قتل المؤمن ، وللعفة بعد الزنا ، أو : يمحوها بالتوبة ، ويثبت مكانها الحسنات. ولم يرد أن السيئة بعينها تصير حسنة ، ولكن يمحوها ويعوض منها حسنة. وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «ليتمنّينّ أقوام أنهم أكثروا من السيئات ، قيل : من؟ قال : الذين يبدل اللّه سيئاتهم حسنات» «١». وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً للسيئات ، رَحِيماً يبدّلها حسنات.

وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً أي : ومن تاب ، وحقق التوبة بالعمل الصالح ، فإنه بذلك تائب إلى اللّه متابا مرضيا مكفرا للخطايا. وسبب نزول الآية : أن ناسا من المشركين قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : إن الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنّ لما عملناه كفّارة. فنزلت : وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ ... إلى قوله : إِلَّا مَنْ تابَ .. إلخ «٢».

والظاهر أن توبة قاتل النفس بغير حق مقبولة لعموم قوله : إِلَّا مَنْ تابَ ، وهو قول الجمهور. وقيل : إن هذه منسوخة بآية النساء ، وهو ضعيف. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من قنع من نفسه بمجرد الإسلام والإيمان ، ولم تنهضه نفسه إلى التشوف لمقام الإحسان ، لا بد أن يلحقه الندم وضرب من الهوان ، ولو دخل فسيح الجنان لتخلفه عن أهل القرب والوصال ، وفى ذلك يقول الشاعر :

من فاته منك وصل حظّه النّدم ومن تكن همّه تسمو به الهمم

ثم ذكر نوعا من الأبرار ، فقال :

[سورة الفرقان (٢٥) : الآيات ٧٢ الى ٧٧]

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (٧٢) وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (٧٤) أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً (٧٥) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً (٧٦)

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (٧٧)

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٢٥٢) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه بلفظه مسلم فى (الإيمان ، باب : كون الإسلام يهدم ما قبه ، ١/ ١١٣ ح ١٩٣) ، وبنحوه أخرجه البخاري فى (تفسير سورة الفرقان) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١١٩

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ أي : لا يقيمون شهادة الكذب ، أو : لا يحضرون محاضر الكذب فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه ، أي : يبعدون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين ، فلا يقربونها ، تنزّها عن مخالطة الشر وأهله. وفى مواعظ عيسى – عليه السّلام – : إياكم ومجالس الخطّائين. وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ أي : بالفحش وكل ما ينبغى أن يلغى ويطرح ، والمعنى : وإذا مروا بأهل اللغو المشتغلين به مَرُّوا كِراماً معرضين عنه ، مكرمين أنفسهم عن التلوث به ، كقوله : وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ «١» ، وعن الباقر : إذا ذكروا الفروج كفوا عنها ، وقال مقاتل : إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا عنه وصفحوا.

وَالَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ أي : قرئ عليهم القرآن ، أو : وعظوا بالقرآن ، لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْياناً ، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية ، مجلتين لها بعيون راعية. وإنما عبّر عنها بنفي الضد

تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون.

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا ، «من» : للبيان ، كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ، ثم بينت القرة وفسرت بقوله : مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا والمعنى : أن يجعلهم اللّه لهم قرة أعين بأن يروا منهم من الطاعة والإحسان ما تقر به العين. أو : للابتداء ، أي : هب لنا من جهتهم ما تقر به العين ، من طاعة أو صلاح. وَهب لنا أيضا من ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ بتوفيقهم للطاعة ، ومبادرتهم للفضائل والكمالات ، فإن المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة اللّه تعالى وشاركوه فيها يسر قلبه ، وتقر عينه بما شاهده من مقاربتهم له فى الدين ، ويكون ذلك سببا فى لحوقهم به فى الجنة ، حسبما وعد به قوله تعالى : أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «٢».

وإنما قال : «أعين» بلفظ القلة ، دون عيون لأن المراد أعين المتقين ، وهى قليلة بالإضافة إلى أعين غيرهم.

والمعنى : أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجا وأعقابا ، عمّالا لله ، يسرون بمكانهم ، وتقر بهم عيونهم ، قيل : ليس شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس : (هو الولد إذا رآه يكتب الفقه).

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٢١ من سورة الطور.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٠

وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً أي : أئمة يقتدى بنا فى الدين ، فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ، أو : واجعل كل واحد منا إماما أي : من أولادنا إماما. والظاهر : أن صدور هذا الدعاء منهم كان بطريق الانفراد إذ يتعذر اجتماعهم فى دعاء واحد. وإنما كانت عبارة كل واحد منهم عند الدعاء : واجعلنى للمتقين إماما ، غير أنه حكيت عبارة الكل بصيغة المتكلم مع الغير قصدا إلى الإيجاز ، كقوله تعالى : يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ «١».

وأبقى إماما على حاله من الانفراد. قيل : وفى الآية دليل على أن الرئاسة فى الدين ينبغى أن تطلب ويرغب فيها ، إذا كان القصد نفع عباد اللّه دون حظ نفسانى.

أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ، جنس ، أي : الغرفات ، وهي العلالي فى الجنة. ووحده بقصد الجنس. بِما صَبَرُوا بصبرهم على مشاق الطاعات ، وترك الشهوات ، وتحمل المجاهدات ، وعلى إذاية أهل الإنكار

، وارتكاب الذل والافتقار. وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً أي : تحييهم الملائكة ، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات. أو : يحيى بعضهم بعضا ، ويسلمون عليهم ، خالِدِينَ فِيها لا يموتون ولا يخرجون ، حَسُنَتْ أي : الغرفة مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً موضع قرار وإقامة ، وهى فى مقابلة : ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً.

قُلْ يا محمد : ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْ لا دُعاؤُكُمْ أي : ما يصنع بكم ربّى ، وأي فائدة فى خلقكم ، لو لا دعاؤكم إلى الإسلام والتوحيد ، أو : لو لا عبادتكم له ، أي : إنما خلقكم لعبادته كقوله : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ «٢» فإنما خلق الإنسان لمعرفته وطاعته ، وإلا فهو وسائر البهائم سواء. قال المحشى : والظاهر : أنه خطاب لقريش القائلين : أَنَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا أي : لا يحفل بكم ربى لو لا تضرعكم واستغاثتكم إياه فى الشدائد. هـ.

وقيل : ما يعبأ : بمغفرة ذنوبكم ، ولا هو عنده عظيم ، لو لا دعاؤكم معه الآلهة والشركاء ، كقوله : ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ «٣» ، قاله الضحاك. ثم قال : فظاهره : أن «ما» : استفهامية ، ويحتمل كونها نافية.

انظر بقية كلامه.

وفسّر البخاري الدعاء هنا بالإيمان «٤» ، أي : ما يبالى بكم ربى لو لا إيمانكم المتوقع من بعضكم ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بما جاء به الرسول فتستحقون العقاب ، فَسَوْفَ يَكُونُ العذاب الذي أنتجه تكذيبكم لِزاماً لازما لكم لا تنفكون عنه ، حتى يكبكم فى النار. فالفاء فى قوله : فَقَدْ كَذَّبْتُمْ استئناف وتعليل لكونهم لا يعبأ بهم ، وإنما أضمر العذاب من غير تقدم ذكر للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره ، وأنه مما لا تفى العبارة به.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.

(٢) من الآية ٥٦ من سورة الذاريات. [.....]

(٣) من الآية ١٤٧ من سورة النساء.

(٤) انظر فتح الباري (كتاب الإيمان ، باب دعاؤكم إيمانكم ١/ ٦٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢١

وعن مجاهد : هو القتل يوم بدر ، وأنه لوزم بين القتلى. وفى المشارق : اللزام : الفيصل ، وقد كان يوم بدر. هـ.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قوله تعالى : وَإِذا مَرُّوا بأهل اللغو ، وهم المتكلمون فى حس الأكوان ، مروا كراما مكرمين أنفسهم عن الالتفات إلى خوضهم. والذين إذا سمعوا الوعظ والتذكير أنصتوا بقلوبهم وأرواحهم ، خلاف ما عليه العامة من التصامم والعمى عنه. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا .. إلخ ، قال القشيري : قرة الروح : حياتها ، وإنما تكون كذلك إذا كان بحق اللّه قائما. ويقال : قرة العين من كان لطاعة اللّه معانقا ، ولمخالفة أمره مفارقا. هـ. قلت : قرة العين تكون فى الولد الروحاني ، كما تكون فى الولد البشرى فإن الشيخ إذا رأى تلميذه مجدّا صادقا فى الطلب ، حصل له بذلك غاية السرور والطرب ، كما هو معلوم عند أرباب الفن. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد صلى اللّه عليه وسلم وآله وصحبه وسلّم تسليما.

(٤/١٢١)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٢

(٤/١٢٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٣

سورة الشّعراء

مكية ، إلا قوله : وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ فإنها مدنية. وهى مائتان وسبع وعشرون آية. وفى الحديث : «أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» «١» عليه السّلام أي : بدلها ، كما فى حديث آخر. ومناسبتها لما قبلها : أنه لما ذكر تكذيب قريش وأوعدهم بلزوم العذاب ، ذكر تلهف رسوله صلى اللّه عليه وسلم عليهم ، حيث لم يؤمنوا حتى استوجبوا ذلك بقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ ... الآية ، ثم سلاه بما ذكر من قصص الأنبياء وتكذيب قومهم وإهلاكهم بأنواع العذاب ، ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه ، كما هو شأنه حين يريد أن يقص عليه قصص من قبله ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (٤)

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِؤُنَ (٦)

يقول الحق جل جلاله : طسم أي : يا طاهر ، يا سيد ، يا محمد ، أو : أيها الطاهر السيد المجيد.

وقال الواحدي : أقسم تعالى بطوله وسنائه وملكه ، والمقسم عليه : إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ ... إلخ. تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ أي : ما نسرده عليك فى هذه السورة وغيرها من الآيات ، هى آيات الكتاب ، أي : القرآن المبين ، أي : الظاهر إعجازه ، وأنه من عند اللّه ، على أنه من أبان ، بمعنى بان ، أو : المبين للأحكام الشرعية والحكم الربانية ، أو : الفاصل بين الحق والباطل. وما فى الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار إليه فى الفخامة ورفعة القدر.

ثم شرع فى تسليته بقوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أي : قاتل نفسك. قال سهل : تهلك نفسك باتباع المراد فى هدايتهم وإيمانهم ، وقد سبق منى الحكم بإيمان المؤمنين وكفر الكافرين ، فلا تبديل ولا تغيير. و«لعل» : للإشفاق ،

---

(١) أخرجه مطولا ، البيهقي فى السنن (١٠/ ٩) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٨) عن معقل بن يسار. وفيه «عبد اللّه بن أحمد». قال الذهبي : تركوا حديثه.

أي : أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي : لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين ، إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً ، هو تعليل لما قبله من النهى عن التحسر ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به المشيئة ، فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ، والمفعول محذوف ، أي : إن نشأ إيمانهم ننزل عليهم من السماء آية ملجئة لهم إلى الإيمان ، قاهرة لهم عليه ، فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ منقادين.

والأصل : فظلوا لها خاضعين ، فأقحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع ، وترك الخبر على حاله من جمع العقلاء. وقيل : لمّا وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم ، كقوله تعالى : رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ «١». وقيل : المراد بالأعناق : الرؤساء ومقدمو الجماعة ، وقيل : الجماعة ، من قولهم : جاءنا عنق من الناس ، أي : فوج. وقرئ : خاضعة ، على الأصل.

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ، هذا بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب لصرف رسوله صلى اللّه عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم ، وقطع رجائه فيهم على الجملة ، قال القشيري : أي : ما نجدّد لهم شرعا ، أو نرسل رسولا إلا أعرضوا

عما دلّ برهانه عليه ، وقابلوه بالتكذيب ، فلو أنهم أنعموا النظر فى آياتهم ، لا تضح لهم صدقهم ، ولكن المقسوم من الخذلان فى سابق الحكم يمنعهم من الإيمان والتصديق. هـ.

والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم ، وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح ، وعماياتيهم بموجب الرحمة ، لمحض منفعتهم ، أشنع وأقبح ، أي : ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية ، أو من طائفة نازلة من القرآن تذكّرهم أكمل تذكير ، وتنبههم من الغفلة أتم تنبيه ، بمقتضى رحمته الواسعة ، إلا جددوا إعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء إصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال.

فَقَدْ كَذَّبُوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيبا مقارنا للاستهزاء ، فَسَيَأْتِيهِمْ أي : فسيعلمون أَنْبؤُا أي : أخبار ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، وأنباؤه : ما يحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة ، عبّر عنها بالأنباء إما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم ، وإما لأنهم ، بمشاهدتها ، يقفون على حقيقة القرآن الكريم ، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم ، باستماع الأنباء. وفيه تهويل : لأن الأنباء لا تطلق إلا على خبر خطير له وقع كبير ، أي : فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤون به ، إما فى الدنيا ، كيوم بدر وغيره من مواطن الحتوف ، أو يوم القيامة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٤ من سورة يوسف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٥

الإشارة : طسم ، الطاء تشير إلى طهارة سره – عليه الصلاة والسلام – ، والسين تشير إلى سيادة قدره ، والميم إلى مجادة أمره ، وهذا بداية الشرف ونهايته. أو : الطاء تشير إلى التنزيه للقلب ، من حيث هو ، والتطهير. والسين تشير إلى تحليته بالسر الكبير ، والميم تشير إلى تصرفه فى الملك والملكوت بإذن العلى الكبير. وهذه بداية السير ونهايتة ، فيكون حينئذ عارفا بالله ، خليفة رسول اللّه فى العودة إلى اللّه ، فإن حرص على هداية الخلق فيقال له :

لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ، فلو شاء ربك لهدى الناس جميعا ، ولا يزالون مختلفين ، وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما ذكر ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٧ الى ٩]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

قلت : الهمزة : للإنكار التوبيخي ، والواو : للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أي : أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والتكذيب ، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض .. إلخ. و(كم) : خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : ينظروا إِلَى عجائب الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ أي : من كل صنف محمود كثير المنفعة ، يأكل منه الناس والأنعام. وتخصيص النبات بالذكر ، دون ماعداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا. ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ، ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئا إلا وفيه فائدة ، إما وحده ، أو بانضمامه إلى غيره ، كما نطق به قوله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً «١» فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة ، وإن غفل عنه الغافلون ، ولم يتوصل إلى معرفة كنهه العاقلون. وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والإحاطة ، وهما «كم» و«كلّ» أنّ كلمة «كلّ» تدل على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل ، و«كم» تدل على أنّ هذا المحاط متكاثر ، مفرط الكثرة ، وبه نبّه على كمال قدرته.

إِنَّ فِي ذلِكَ الإنبات ، أو : كل صنف من تلك الأصناف لَآيَةً عظيمة دالة على كمال قدرته ، وسعة علمه وحكمته ، ونهاية رحمته الموجبة للإيمان ، الوازعة عن الكفر والطغيان. وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ أي : أكثر قومه – عليه الصلاة والسلام – مُؤْمِنِينَ فى علم اللّه تعالى وقضائه ، حيث علم أنهم سيصرفون عنه ، ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام. وقال سيبويه : «كان» : صلة ، والمعنى : وما أكثرهم مؤمنين ، وهو الأنسب بمقام

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد ، مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى. وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم أنهم معذرون فيه بحسب الظاهر لأن التفريق بين القدرة والحكمة ، اللتين هما محل التحقيق والتشريع ، قد خفى على مهرة العلماء ، فضلا عن غيرهم. فالحكم بزيادة «كان» أقرب كأنه قيل : إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان ، وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية عتوهم وعنادهم. ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم لأن منهم من سبق له أنه يؤمن.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب على كل ما يريد من الأمور ، التي من جملتها : الانتقام من هؤلاء ، الرَّحِيمُ المبالغ فى الرحمة ، ولذلك يمهلهم ، ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترءوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات. وفى التعرض لوصف الربوبية ، مع الإضافة إلى ضميره – عليه الصلاة والسلام – ، من تشريفه والعدة الحقيّة «١» بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

الإشارة : أو لم يروا إلى أرض النفوس الطيبة ، كم أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف العلوم الغريبة ، والحكم العجيبة ، بعد أن كانت ميتة بالجهل والغفلة ، إنّ فى ذلك لآية ظاهرة على وجود الخصوصية فيها ، وعلى كمال من عالجها حتى ظهرت عليها. أو : أولم يروا إلى أرض العبودية ، كم أنبتنا فيها من أصناف الآداب المرضية ، والمقامات اليقينية ، والمكاشفات الوهبية ، إن فى ذلك لأية ، وما كان أكثرهم مؤمنين بهذه الخصوصية عند أربابها ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ، يعز من يشاء ، ويرحم بها من يشاء. وبالله التوفيق.

ثم شرع فى قصص الأنبياء تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وبدأ بموسى عليه السّلام لشدة معالجته لقومه ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٠ الى ١٧]

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤)

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يا محمد إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أي : وقت ندائه إياه ، وذكّر قومك بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم زجرا لهم ، وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق بإخوانهم المكذبين.

---

(١) فى تفسير أبى السعود : «الخفية».

أو : واذكر حاله لتتسلى به وبما عالج مع قومه ، حيث أرسله وقال له : أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، أو : بأن ائت القوم الظالمين بالكفر والمعاصي ، أو : باستعباد بنى إسرائيل وذبح أبنائهم. قَوْمَ فِرْعَوْنَ :

عطف بيان ، تسجيل عليهم بالظلم ، ثم فسرهم ، وقل لهم : أَلا يَتَّقُونَ اللّه ، ويتركون ما هم عليه من العتو والطغيان. وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات ، المنبئ عن زيادة الغضب عليهم ، كأنّ ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك. وليس هذا نفس ما ناداه به ، بل ما فى سورة طه من قوله : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. «١» إلخ ، واختصره هنا لمقتضى المقام.

قالَ موسى عليه السّلام متضرعا إلى اللّه عز وجل : رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ من أول الأمر ، وَيَضِيقُ صَدْرِي بتكذيبهم إياى ، وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي بأن تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال ، وأسمع من الجدال ، أو : تغلبنى عقدة لسانى ، فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ أخى ، أي : أرسل جبريل إليه ، ليكون نبيا معى ، أتقوّى به على تبليغ الرسالة. وكان هارون بمصر حين بعث موسى بجبل الطور. وليس هذا من التعلل والتوقف فى الأمر ، وإنما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال ، وتمهيد عذره.

ثم قال : وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ أي : تبعة ذنب بقتل القبطىّ ، فحذف المضاف ، أو : سمّى تبعة الذنب ذنبا ، كما يسمّى جزاء السيئة سيئة. وتسميته ذنبا بحسب زعمهم. فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ به قصاصا. وليس هذا تعللا أيضا ، بل استدفاع للبلية المتوقعة ، وخوف من أن يقتل قبل أداء الرسالة ، ولذلك وعده بالكلاءة ، والدفع عنه بكلمة الردع ، وجمع له الاستجابتين معا بقوله :

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا لأنه استدفعه بلاءهم ، فوعده بالدفع بردعه عن الخوف ، والتمس منه رسالة أخيه ، فأجابه بقوله : فَاذْهَبا ، أي : جعلته رسولا معك فَاذْهَبا بِآياتِنا أي : مع آياتنا ، وهى اليد والعصا وغير ذلك ، فقوله : فَاذْهَبا : عطف على مضمر ، ينبئ عنه الردع ، كأنه قيل : ارتدع يا موسى عما تظن ، فاذهب أنت ومن استدعيته مصحوبا بآياتنا ، فإنها تدفع ما تخافه.

إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ أي : سامعون ما يقال لك ، وما يجرى بينكما وبينه ، فنظهر كما عليه. شبّه حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة ، فسمع ما يجرى بينهم ، فيمد أولياءه وينصرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالإعانة ، فاستعير الاستماع ، الذي هو الإصغاء للسمع ، الذي هو العلم بالحروف والأصوات ، وهو تعليل للردع عن الخوف ، ومزيد تسلية لهما ، بضمان كمال الحفظ والنصر ، كقوله تعالى : إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرى «٢».

ْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

، ليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب لأن معنى هذا :

الوصول إلى المرسل إليه ، والذهاب : مطلق التوجه ، ولم يثنّ الرسول هنا كما ثناه فى سورة طه «٣» لأن الرسول

---

(١) الآية ١٢ من سورة طه.

(٢) الآية ٤٦ من سورة طه.

(٣) فى قوله : إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ، الآية ٤٧.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٢٨

يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة ، فيكون مصدرا ، فجعل ثمّة بمعنى المرسل فثنى ، وجعل هنا بمعنى الرسالة ، فسوّى فى الوصف به الواحد والتثنية والجمع ، كما تقول : رجل عدل ، ورجلان عدل ، ورجال عدل لاتحادهما فى شريعة واحدة ، كأنهما رسول واحد. قلت : والنكتة فى إفراد هذا وتثنية الآخر أن الخطاب فى سورة طه توجه أول القصة إليهما معا بقوله : اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ فجرى فى آخر القصة على ما افتتحت به ، وهنا توجه الخطاب فى أولها إلى موسى وحده ، بقوله : وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، فجرى على ما افتتح به القصة من الإفراد. واللّه تعالى أعلم.

أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ ، «أن» مفسرة لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول ، أي : خلّ بنى إسرائيل تذهب معنا إلى الشام ، وكان مسكنهم بفلسطين منه ، قبل انتقالهم مع يعقوب عليه السّلام إلى مصر ، فى زمن يوسف عليه السّلام. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من كان أهلا للوعظ والتذكير لا ينبغى أن يتأخر عنه خوف التكذيب ولا خوف الإذاية ، فإن اللّه معه بالحفظ والرعاية. نعم إن طلب المعين فلا بأس ، فإن أبهة الجماعة ، فى حال الإقبال على من يعظمهم ، أقوى فى إدخال الهيبة والروع فى قلوبهم ، ونور الجماعة أقوى من نور الواحد. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب فرعون ومجادلته ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٨ الى ٢٩]

قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (١٩) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (٢٢)

قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (٢٣) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧)

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : لما أتى موسى وهارون فرعون وبلّغا الرسالة ، قالَ له : أَلَمْ نُرَبِّكَ .. إلخ ، روى أنهما أتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة ، حتى قال البواب : إن هنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال : ائذن له ، لعلنا نضحك منه ، فأذن ، فدخل ، فأدى الرسالة ، فعرفه فرعون «١» ، فقال له : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا فى حجرنا ومنازلنا ، وَلِيداً أي : طفلا. عبّر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة. وهذه من فرعون معارضة لقول موسى عليه السّلام : نَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

، بنسبته تربيته إليه وليدا. ولذلك تجاهل بقوله : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ ، وصرح بالجهل بعد ذلك بقوله : لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهَاً غَيْرِي ... إلخ ، وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ قيل : لبث فيهم ثلاثين سنة ، ثم خرج إلى مدين ، وأقام به عشر سنين ، ثم عاد يدعوهم إلى اللّه – عز وجل – ثلاثين سنة ، ثم بقي بعد الغرق خمسين ، وقيل : قتل القبطي وهو ابن ثنتى عشرة سنة ، وفرّ منهم على إثر ذلك. واللّه أعلم.

ثم قال له : وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ يعنى : قتل القبطي ، بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته ، وتبليغه مبلغ الرجال ، وبّخه بما جرى عليه مع خبازه ، أي : قتلت صاحبى ، وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ بنعمتي ، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصى ، أو : أنت حينئذ ممن تكفر بهم الآن ، أي : كنت على ديننا الذي تسميه كفرا ، وهذا افتراء منه عليه لأنه معصوم ، وكان يعاشرهم بالتقية ، وإلا فأين هو عليه السّلام من مشاركتهم فى الدين.

قالَ فَعَلْتُها إِذاً أي : إذ ذاك وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ أي : من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله ، بل أراد تأديبه ، أو :

الذاهلين عما يؤدى إليه الوكز. أو : من الضالين عن النبوة ، ولم يأت عن اللّه فى ذلك شىء ، فليس علىّ توبيخ فى تلك الحالة. والفرض أن المقتول كافر ، فالقتل للكافر لم يكن فيه شرع ، وهذا كله لا ينافى النبوة ، وكذلك التربية لا تنافى النبوة.

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ إلى ربى ، متوجها إلى مدين لَمَّا خِفْتُكُمْ أن تصيبنى بمضرة ، أو تؤاخذني بما لا أستحقه. فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً أي : حكمة ، أو : نبوة وعلما ، فزال عنى الجهل والضلالة ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ من جملة رسله ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ أي : تلك التربية نعمة تمنّ بها علىّ ظاهرا ، وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل ، وقهرك إياهم ، بذبح أبنائهم ، فإنه السبب فى وقوعي عندك وحصولى فى تربيتك ، ولو تركتهم لربانى أبواى. فكأن فرعون فى الحقيقة امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه. فقال له موسى عليه السّلام : أو تلك نعمة تمنّها علىّ استعبادك لهم ، ليس ذلك بنعمة ، ولا لك فيها علىّ منة ، وتعبيده : تذليلهم واستخدامهم على الدوام. ووحد الضمير فى «تمنّها» و«عبّدت» ، وجمعها فى «منكم» و«خفتكم» لأن الفرار والخوف كان منه ومن ملائه المؤتمرين به ، وأما الامتنان فمنه وحده.

(١) انظر البحر المحيط (٧/ ١٠).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٠

وحين انقطعت حجة فرعون وروغانه عن ذكر رب العالمين ، أخذ يستفهم موسى عن الذي ذكر أنه رسول من عنده مكابرة وتجاهلا وتعاميا ، طلبا للرئاسة ، كما قال تعالى : قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ ، أي : أىّ شيء رب العالمين ، الذي ادعيت أنك رسوله ، منكرا لأن يكون للعالمين رب غيره ، حسبما يعرب عنه قوله : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى «١» ، وقوله : ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي «٢». أو : فما صفته ، أو حقيقته؟ قالَ موسى : هو رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا أي : ما بين الجنسين ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أي : إن كنتم موقنين بالأشياء ، محققين لها ، علمتم ذلك ، أو : إن كنتم موقنين شيئا من الأشياء ، فهذا أولى بالإيقان لظهور دليله وإنارة برهانه.

قالَ فرعون ، عند سماع جوابه عليه السّلام ، خوفا من تأثيره فى قلوبهم ، لِمَنْ حَوْلَهُ من أشراف قومه ، وكانوا خمسمائة مسورة بالأسورة : أَلا تَسْتَمِعُونَ ، أنا أسأله عن الماهية ، وهو يجيبنى بالخاصية. ولما كانت ماهية الربوبية لا تدرك ولا تنال حقيقتها ، أجابه بما يمكن إدراكه من خواص الماهية.

ثم قالَ عليه السّلام : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أي : هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين ، أي : وفرعون من جملة المخلوقين فلا يصلح للربوبية ، وإنما قال : وَرَبُّ آبائِكُمُ لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

قالَ فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ حيث يزعم أن فى الوجود إلها غيرى ، أو : حيث لا يطابق جوابه سؤالى لأنى أسأله عن الحقيقة وهو يجيبنى بالخاصية ، قالَ موسى عليه السّلام : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ فتستدلون بما أقول حتى تعرفوا ربكم. وهذا غاية الإرشاد ، حيث عمم أولا بخلق السموات والأرض وما بينهما ، ثم خصص من العام أنفسهم وآباءهم لأنّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ، ومن ولد منه ، وما شاهد من أحواله ، من وقت ميلاده إلى وفاته ، ثم خصّص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر ، على تقدير مستقيم وحساب مستو ، من أقوى الدلائل على وحدانية الربوبية ، ووجوب وجودها. أو : تقول : لما سأله عن ماهية الربوبية جهلا فأجابه ، بالخاصية ، قال أَلا تَسْتَمِعُونَ؟ فعاد موسى إلى مثل قوله ، فجنّنه فرعون ، زاعما أنه حائد عن الجواب ، فعاد ثالثا مبينا أن الواجب الوجود ، الفرد الصمد ، لا يدرك بالكنه ، إنما يعرف بالصفات ، وما عرفه بالذات إلا خواص الخواص ، فالسؤال عن الذات من

أمثاله جهل وحمق. ولذلك قال : إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ، أي : إن كان لكم عقل علمتم أنه لا يمكن أن تعرفوه إلا بهذا الطريق.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة النازعات.

(٢) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

قال ابن جزىّ : إن قيل : كيف قال أولا : إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، ثم قال آخرا : إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟ فالجواب : أنه لاين أولا طمعا فى إيمانهم ، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله : «إن كنتم تعقلون» ، وجعل ذلك فى مقابلة قول فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. هـ.

ولما تجبر فرعون وبهت قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ، أي : لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى ، وكان من عادته أن يأخذ من يرى سجنه ، فيطرحه فى هوّة ذاهبة فى الأرض ، بعيدة العمق ، فردا ، لا ينظر فيها ولا يسمع ، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قال : لأسجننك ، لم يؤد هذا المعنى ، وإن كان أخصر. قاله النسفي.

الإشارة : التربية لها حق يراعى ويجب شكرها ، ولا فرق بين تربية البشرية والروحانية. قال القشيري : لم يجحد موسى حقّ التربية والإحسان إليه فى الظاهر ، ولكن بيّن أنه إذا أمر اللّه بشىء وجب اتباع أمره ، وإذا كانت تربية المخلوقين توجب حقا ، فتربية اللّه أولى بأن يعظّم العبد قدرها. هـ. فكل من أحسن إلى بشريتك بشىء وجب عليك شكره بالإحسان إليه ، ولو بالدعاء ، وكل من أحسن إلى روحانيتك بالعلم أو بالمعرفة ، وجب عليك خدمته وتعظيمه ، وإنكار ذلك سبب المقت والطرد ، والعياذ بالله.

وقول فرعون : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ : سؤال عن حقيقة الذات ، ومعرفة الكنه متعذرة إذ ليس كمثله شىء ، وأقرب ما يجاب به قوله تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ «١» فهذه الأسماء الأربعة أحاطت بالذات فى الجملة ، ولم تترك منها شيئا ، والإحاطة بالكنه متعذرة ، ولو وقعت الإحاطة لم يبق للعارفين ترق ، مع أن ترقيهم فى كشوفات الذات لا ينقطع أبدا ، فى هذه الدار الفانية ، وفى تلك الدار الباقية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة العصا وما يتبعها ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)

قلت : (لو) : هنا ، ليست امتناعية ، بل إغيائية ، فلا جواب لها ، أي : تفعل بي هذا على كل حال ولو جئتك بشيء مبين.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٢

يقول الحق جل جلاله : قالَ موسى عليه السّلام لفرعون ، لمّا هدده بالسجن : أَوَلَوْ أتفعل ما ذكرت من سجني ولو جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ واضح الدلالة على صدقي ، وتوحيد رب العالمين. يريد به المعجزة فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته ، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده. والتعبير عنه بالشيء للتهويل. قالَ فرعون : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فيما قلت من الإتيان بالشيء الواضح على صدق دعواك ، أو : من الصادقين فى دعوى الرسالة.

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ أي : ظاهر ثعبانيته ، لا أنه تخيل بما يشبهه كشأن الشعوذة والسحر. روى أنها ارتفعت فى السماء قدر ميل ، ثم انحطت مقبلة على فرعون ، تقول : يا موسى مرنى بما شئت ، فيقول فرعون :

أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها ، فأخذها ، فعادت عصا. وَنَزَعَ يَدَهُ أي : أخرجها من تحت إبطه ، فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ أي : بياضا خارجا عن العادة ، بحيث يجتمع النظارة على النظر إليه لخروجه عن العادة.

روى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال : هل لك غيرها؟ فأخرج يده ، وقال لفرعون : ما هذه؟ قال : يدك ، فأدخلها تحت إبطه ، ثم نزعها ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ويسدّ الأفق. فسبحان القادر على كل شيء.

الإشارة : النفوس الفرعونية هى التي تتوقف فى الصدق والإيمان على ظهور المعجزة أو الكرامة ، وأما النفوس الزكية فلا تحتاج إلى معجزة ولا كرامة ، بل يخلق اللّه فيها الهداية والتصديق بطريقة الخصوصية ، من غير توقف على شيء. وباللّه التوفيق.

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٣٤ الى ٣٧]

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (٣٥)

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)

قلت : (حوله) : ظرف وقع موقع الحال ، أي : مستقرين حوله.

يقول الحق جل جلاله : قالَ فرعون ، لمّا رأى ما بهته وحيّره ، لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ ، وهم أشراف قومه : إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ فائق فى فن السحر. ثم أعدى قومه على موسى بقوله : يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ بما صنع مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ تشيرون فى أمره من حبس أو قتل ، وهو من المؤامرة ، أي : المشاورة ، أو : ماذا تأمرون به ، من الأمر ، لما بهره سلطان المعجزة وحيّره ، حط نفسه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده – فى زعمه – والامتثال لأمرهم ، وجعل نفسه مأمورة ، أو : إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعد ما كان مستقلا فى الرأى والتدبير.

(١٣٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٣

قالُوا له : أَرْجِهْ وَأَخاهُ أي : أخّر أمرهما ، ولا تعجل بقتلهما خوفا من الفتنة أو : احبسهما ، وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ أي : شرطا يحشرون السحرة ، يَأْتُوكَ أي : الحاشرون بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فائق فى فن السحر. وأتوا بصيغة المبالغة ليسكّنوا بعض روعته. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : المشاورة فى الأمور المهمة من شأن أهل السياسة والرأى ، وفى الحديث : «ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار» «١» ، فالمشاورة من الأمر القديم ، وما زالت الأكابر من الأولياء والأمراء يتشاورون فى أمورهم اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر جمع السحرة ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٣٨ الى ٤٤]

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (٤١) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢)

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (٤٤)

يقول الحق جل جلاله : فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وهو ما عيّنه موسى عليه السّلام بقوله : مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى «٢». والميقات : ما وقت به ، أي : حدّ من زمان أو مكان. ومنه :

مواقيت الحج. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ أي : اجتمعوا. وعبّر بالاستفهام حثا على الاجتماع.

واستبطاء لهم ، والمراد : استعجالهم إليه ، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ فى دينهم إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ أي : إن غلبوا موسى ، ولا نتبع موسى فى دينه ، وليس غرضهم اتباع السحرة ، وإنما الغرض الكلى ألا يتبعوا موسى ، فساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة لأنهم إذا اتبعوا السحرة لم يكونوا متبعين لموسى ، وهو مرادهم ، ولأن السحرة إذا سمعوا ذلك حملهم التروس على الجد فى المغالبة.

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً أي : جزاء وافرا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ لموسى؟

قالَ نَعَمْ لكم ذلك ، وَإِنَّكُمْ مع ذلك ، إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ عندى فى المرتبة والحال ، فتكونون أول من

---

(١) أخرجه الطبراني فى الأوسط (٦٦٢٧) ، والصغير (٢/ ٧٨) ، والشهاب القضاعي فى مسنده (٧٧٤) ، من حديث أنس. وانظر كشف الخفاء (٢/ ١٨٥). [.....]

(٢) الآية ٥٩ من سورة طه.

يدخل علىّ ، وآخر من يخرج عنى. ولما كان قوله : أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً ، فى معنى جزاء الشرط لدلالته عليه ، وكان قوله : وَإِنَّكُمْ إِذاً : معطوفا عليه ، دخلت «إذا» قارة فى مكانها ، الذي تقتضيه من الجواب والجزاء.

قالَ لَهُمْ مُوسى بعد أن قالوا له : إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى «١» : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ من السحر ، فسوف ترون عاقبته. ولم يرد به الأمر بالسحر والتمويه ، بل الإذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل ، فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ، وكانوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا.

وقيل : كانت الحبال اثنين وسبعين ، وكذا العصىّ. وَقالُوا بعد الإلقاء ، لما رأوها تتحرك وتقبل وتدبر : بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ ، قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم ، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر ، أقسموا بعزته وقوته ، وهو من أيمان الجاهلية. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : السحر على قسمين : سحر القلوب إلى حضرة الحق ، وسحر النفوس إلى عالم الخلق ، أو : إلى عالم الخيال. فالأول : من شأن العارفين بالله ، الداعين إلى اللّه ، فهم يسحرون قلوب من أتى إليهم إلى حضرة القدس ، ومحل الأنس ، فيقال فى شأنهم : فجمع السحرة بقلوبهم ، إلى ميقات يوم معلوم ، وهو يوم الفتح والتمكين ، أو يوم النفحات ، عند اتفاق جمعهم فى مكان معلوم. وقيل للناس ،

وهو عوام الناس : هل أنتم مجتمعون لتفيقوا من سكرتكم ، وتتيقظوا من نوم غفلتكم ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، ولا شك فى غلبتهم ونصرهم لقوله تعالى : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ «٢».

ثم ذكر إبطال سحرهم ، وإسلامهم ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٤٥ الى ٥١]

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (٤٦) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (٤٨) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩)

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

---

(١) الآية ٦٥ من سورة طه.

(٢) من الآية ٤٠ من سورة الحج.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٥

يقول الحق جل جلاله : فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ من يده ، فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ أي : تبتلع بسرعة ما يَأْفِكُونَ : ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم ، ويزورونه ، فيخيّلون فى حبالهم وعصيّهم أنها حيات تسعى ، فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ لما شاهدوا ذلك من غير تلعثم ولا تردد ، غير متمالكين لأنفسهم لعلمهم بأن ذلك خارج عن حدود السحر ، وأنه أمر إلهى ، يدل على تصديق موسى عليه السّلام. وعبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكلة لقوله : أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ ، فألقى ، فلما خروا سجودا ، قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ ، قال عكرمة : أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. هـ. رَبِّ مُوسى وَهارُونَ : عطف بيان ، أو : بدل من بِرَبِّ الْعالَمِينَ.

فدفع توهم إرادة فرعون لأنه كان يدعى الربوبية ، فأرادوا أن يعزلوه منها. وقيل : إن فرعون لما سمع منهم : آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ ، قال : إياى عنيتم؟ قالوا : رَبِّ مُوسى وَهارُونَ.

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ أي : بغير إذن لكم ، كما فى قوله تعالى : قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي «١» ، لان أن الإذن منه ممكن أو متوقع ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فتواطأتم على ما فعلتم مكرا وحيلة.

أراد بذلك التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق. ثم هدّدهم بقوله :

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، يدا من جهة ورجلا من أخرى ، أو : من أجل خلاف ظهر منكم ، وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قيل : إنه فعل ذلك ، وروى عن ابن عباس وغيره ، وقيل : إنه لم يقدر على ذلك ، لقوله تعالى : أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ «٢».

قالُوا أي : السحرة : لا ضَيْرَ أي : لا ضرر علينا فى ذلك ، فحذف خبر «لا» ، إِنَّا إِلى رَبِّنا الذي عرفناه ووالياه مُنْقَلِبُونَ لا إليك ، فيكرم مثوانا ويكفر خطايانا ، أو : لا ضرر علينا فيما توعدتنا به إذ لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بالموت ، فلأن يكون فى ذاته وسبب دينه أولى ، قال الورتجبي : لمّا عاينوا مشاهدة الحق سهل عليهم البلاء ، لا سيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه ، بنعت الرضا والغفران. هـ.

ولذلك قالوا : إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أي : لأن كنا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ من أهل المشهد ، أو : من أتباع فرعون.

الإشارة : من شأن خواص الملك ألا يفعلوا شيئا إلا بإذن من ملكهم ، ولذلك أنكر فرعون على السحرة المبادرة إلى الإيمان قبل إذنه ، وبه أخذت الصوفية الكبار والفقراء مع أشياخهم ، فلا يفعلون فعلا حتى يستأذنوا فيه الحق تعالى والمشايخ ، وللإذن سر كبير ، لا يفهمه إلا من ذاق سره. وتقدم بقية الإشارة فى سورة الأعراف «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٥ من سورة القصص.

(٣) راجع إشارة الآيات ١١٧ – ١٢٦ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٣٦

ثم ذكر خروج موسى عليه السّلام من مصر وتوجهه إلى البحر ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٥٢ الى ٥٩]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (٥٦)

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (٥٩)

قلت : أسرى وسرى : لغتان ، وقرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله : وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بقطع الهمزة ووصلها ، أي : سر بِعِبادِي ليلا. وسماهم عباده لإيمانهم بنبيهم ، وذلك بعد إيمان السحرة بسنين ، أقام بين أظهرهم ، يدعوهم إلى

الحق ويظهر لهم الآيات ، ثم أمره بالخروج ، وقال : إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ أي : يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين ، فأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر ، فيدخلوا مداخلكم ، فأطبقه عليهم فأغرقهم. روى أنه مات فى تلك الليلة فى كل بيت من بيوت القبط ولد ، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. وروى أن اللّه أوحى إلى موسى :

أن اجمع بنى إسرائيل ، كلّ أربعة أبيات فى بيت ، ثم اذبحوا أولاد الضأن ، فاضربوا بدمائها على أبوابكم ، فإنى سآمر الملائكة فلا تدخل بيتا فيه دم ، وسآمرها فتقتل أبكار القبط ، واخبزوا فطيرا فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهى إلى البحر فيأتيك أمرى. «١» هـ. وحكمة لطخ الدم ليتميز بيوت بنى إسرائيل ، فلا تقتل الملائكة فيها أحدا. عاملهم على قدر عقولهم ، وإلا فالملك لا يخفى عليه ما أمر به.

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ حين أخبر بمسيرهم فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ جامعين للعساكر ليتبعهم ، فلما اجتمعوا قال : إِنَّ هؤُلاءِ ، يريد بنى إسرائيل لَشِرْذِمَةٌ طائفة قليلة قَلِيلُونَ ، ذكرهم بالاسم الدالّ على القلة ، ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل ، فيدل على أن كل حزب منهم قليل. أو : أراد بالقلة : الذلة ، لا قلة العدد ، أي : إنهم لذلتهم ، لا يبالى بهم ، ولا يتوقع غلبتهم. قال ابن عرفة : شرذمة : تقليل لهم باعتبار الكيفية ، وقليلون :

باعتبار الكمية ، وإنما استقلّ قوم موسى – وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا – لكثرة من معه ، فعن الضحاك : كانوا سبعة آلاف ألف ، وروى أنه أرسل فى أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر ، مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون فى جمع عظيم ، وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان ، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أنه خرج فرعون فى ألف ألف حصان ، من سوى الإناث. هـ «٢».

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٩/ ٧٦) ، والدر المنثور (٥/ ١٥٨) والبغوي (٦/ ١١٣).

(٢) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٦) بعد ذكره لبعض الأقوال فى تعيين عدد الذين خرجوا مع فرعون : والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل ، واللّه أعلم. والذي أخبر به القرآن هو النافع ، ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته ، لأنهم خرجوا بأجمعهم.

وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ أي : فاعلون ما يغيظنا ، وتضيق به صدورنا ، وهو خروجهم من مصر ، وحملهم

حلينا ، وقتلهم أبكارنا ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ أي : ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرته وحسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن العجز. وقرئ : (حذرون) «١» بالمد والقصر ، فالأول دال على تجد الحذر ، والثاني على ثبوته.

قال تعالى : فَأَخْرَجْناهُمْ أي : خلقنا فيهم داعية الخروج وحملناهم عليه ، مِنْ جَنَّاتٍ بساتين وَعُيُونٍ وأنهار جارية ، وَكُنُوزٍ أموال وافرة من ذهب وفضة ، وسماها كنوزا لأنهم لم ينفقوا منها فى طاعة اللّه تعالى شيئا. وَمَقامٍ كَرِيمٍ أي : منزل رفيع بهيّ ، وعن ابن عباس : المنابر.

كَذلِكَ أي : الأمر كذلك ، أو : أخرجناهم مثل ذلك الإخراج العجيب ، فهو خبر ، أو : مصدر تشبيهى لأخرجنا. وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ أي : ملكناها إياهم ، على طريقة تمليك مال الموروث للوارث لأنهم ملكوها من حين خروج أربابها عنها قبل أن يقبضوها. وعن الحسن : لما عبروا النهر رجعوا ، وأخذوا ديارهم وأموالهم. هـ. قال ابن جزى : لم يذكر فى التواريخ ملك بنى إسرائيل لمصر ، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام ، فتأويله على هذا : أورثناهم مثل ذلك بالشام. هـ. قلت : بل التحقيق أنهم ملكوا التصرف فى مصر ، ووصلت حكومتهم إليها ، ولم يرجعوا إليها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : لا ينتصر نبيّ ولا وليّ إلا بعد أن يهاجر من وطنه سنّة اللّه التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنّة اللّه تبديلا ، والنصرة مقرونة مع الذلة والقلة وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر معجزة فلق البحر وغرق فرعون ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٦٠ الى ٦٨]

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤)

وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي (حاذرون) بألف بعد الحاء. وقرأ الباقون بحذفها. انظر الإتحاف (٢/ ٣١٦).

يقول الحق جل جلاله : فَأَتْبَعُوهُمْ أي : فأتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل ، أي : لحقوا بهم ، وقرئ بشد التاء ، على الأصل ، مُشْرِقِينَ داخلين فى وقت شروق الشمس ، أي : طلوعها ، فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعانِ أي :
تقابلا ، بحيث يرى كلّ فريق صاحبه ، أي : بنو إسرائيل والقبط ، قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ أي : قرب أن يلحقنا عدونا ، وأمامنا البحر ، قالَ موسى عليه السّلام ثقة بوعد ربه : كَلَّا ارتدعوا عن سوء الظن بالله ، فلن يدرككم أبدا ، إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ أي : سيهدينى طريق النجاة منهم.
روى أن موسى عليه السّلام لما انتهى إلى البحر هاجت الريح ، والبحر يرمى بموج مثل الجبال ، فقال يوشع عليه السّلام : يا كليم اللّه ، أين أمرت ، فقد غشينا فرعون ، والبحر أمامنا؟ قال عليه السّلام : هاهنا ، فخاض يوشع الماء ، وضرب موسى بعصاه البحر ، فكان ما كان ، وقال الذي كان يكتم إيمانه : يا مكلم اللّه أين أمرت؟ قال : هاهنا. فكبح فرسه بلجامه ، ثم أقحمه البحر ، فرسب فى الماء ، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك ، فلم يقدروا ، فجعل موسى لا يدرى كيف يصنع؟ فأوحى اللّه إليه : أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ، فضربه ، فانفلق ، فإذا الرجل واقف على فرسه ، لم يبتلّ لبده ولا سرجه «١».
وقال محمد بن حمزة : لما انتهى موسى إلى البحر ، دعا ، فقال : يا من كان قبل كل شيء ، والمكوّن لكلّ شيء ، والكائن بعد كلّ شيء ، اجعل لنا مخرجا ، فأوحى اللّه إليه : أن اضرب بعصاك البحر «٢» ، وذلك قوله تعالى :
فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ أي : القلزم ، أو النيل ، فَانْفَلَقَ أي : فضرب فانفلق وانشقّ ، فصار اثنى عشر فرقا ، على عدد الأسباط. فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ أي : جزء من الماء كَالطَّوْدِ : كالجبل المنطاد فى السماء الْعَظِيمِ ، وبين تلك الجبال من الماء مسالك ، بأن صار الماء مكفوفا كالجامد ، وما بينها يبس ، فدخل كل سبط فى شعب منها.
وَأَزْلَفْنا أي : قرّبنا ثَمَّ الْآخَرِينَ أي : فرعون وقومه ، حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم ، وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ من الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة ، حتى عبروه ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ بإطباقه عليهم. قال النسفي : وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب فى الآجال وغيرها من الحوادث ، فإنهم اجتمعوا فى الهلاك ، على اختلاف طوالعهم. روى أن جبريل عليه السّلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون ، فكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم ، ويستقبل القبط فيقول : رويدكم ، ليلحق آخركم «٣». هـ.
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أي : فى جميع ما فصّل مما صدر عن موسى عليه السّلام ، وما ظهر على يديه من المعجزات القاهرة ، وفيما فعل فرعون وقومه من الأفعال والأقوال ، وما فعل بهم من العذاب والنكال ، لعبرة عظيمة ، لا تكاد توصف ، موجبة لأن يعتبر المعتبرون ، ويقيسوا شأن النبي صلى اللّه عليه وسلم بشأن موسى عليه السّلام ، وحال أنفسهم

(١) أخرجه الطبري (١٩/ ٨٠) عن ابن جريج. وذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١١٥).
(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣٦) لابن أبى حاتم ، عن عبد اللّه بن سلام.
(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ١٦٣ - ٩٦٤) لابن عبد الحكم وعبد بن حميد ، عن مجاهد.

بحال أولئك المهلكين ، ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول ، فيؤمنوا باللّه تعالى ويطيعوا رسوله ، كى لا يحل بهم ما حلّ بأولئك ، أو : إن فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه السّلام إياها على ما هى عليه ، من غير أن يسمعها من أحد ، لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق ، موجبة للإيمان باللّه تعالى ، وتصديق من جاء بها وطاعته.

وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أي : وما كان أكثر هؤلاء المكذبين الذين سمعوا قصصهم منه - عليه الصلاة والسلام - مؤمنين ، فلم يقيسوا حاله صلى اللّه عليه وسلم بحال موسى ، وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ، ولم يتدبروا فى حكايته صلى اللّه عليه وسلم لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد ، مع كونه أميا لا يقرأ ، وكل من الطريقين مما يؤدى إلى الإيمان ، قطعا لانهماكهم فى الغفلة ، فكان على هذا ، زائدة ، كما هو رأى سيبويه ، فيكون كقوله تعالى : وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ «١» وهو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم فى المستقبل ، أو : وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين بموسى عليه السّلام ، قال مقاتل : لم يؤمن من أهل مصر غير رجل وامرأتين حزقيل المؤمن من آل فرعون ، وآسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ياموشى ، التي دلّت على عظام يوسف. هـ.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب على كل ما يريد من الأمور ، التي من جملتها : الانتقام من المكذبين ، الرَّحِيمُ البالغ فى الرحمة ، ولذلك أمهلهم ولم يعاجل عقوبتهم ، أو : العزيز بالانتقام من أعدائه ، الرحيم بالانتصار لأوليائه. جعلنا اللّه من خاصتهم بمنّه وكرمه ، آمين.

الإشارة : قوله تعالى : إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ : اعلم أن المعية تختلف باختلاف المقام ، فالمعية ، باعتبار عامة الخلق ، تكون بالإحاطة والقهرية والعلم والاقتدار ، وباعتبار الخاصة تكون بالحفظ والرعاية والنصر والمعونة. فمن تحقق أن اللّه معه بعلمه وحفظه ورعايته اكتفى بعلمه ، وفوض الأمر إلى سيده ، وكلما قوى التفويض والتسليم دلّ على رفع المقام ، ولذلك فضّل ما حكاه الحق تعالى عن حبيبه بقوله : إِنَّ اللَّهَ مَعَنا «٢» ، على ما حكى عن كليمه بزيادة قوله : سَيَهْدِينِ فتأمل. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السّلام لما فيها من الرد على أهل الشرك تقبيحا لما عليه قريش والعرب ، مع كونهم من ذريته ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٦٩ الى ٨٢]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (٦٩) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (٧٠) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (٧١) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة يوسف.

(٢) كما جاء فى الآية ٤٠ من سورة التوبة. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٤٠

يقول الحق جل جلاله : وَاتْلُ عَلَيْهِمْ أي : على المشركين نَبَأَ إِبْراهِيمَ أي : خبره العظيم الشأن ، ولم يأمر فى قصص هذه السورة بتلاوة قصّة إلا فى هذه تفخيما لشأنه ، وتعظيما لأمر التوحيد ، الذي دلت عليه. إِذْ قالَ أي : وقت قوله لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ أي : أىّ شيء تعبدون؟ وإبراهيم عليه السّلام يعلم أنهم عبدة الأصنام ، لكنه سألهم ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة ، قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً ، وجواب ما تَعْبُدُونَ : هو قولهم : أَصْناماً لأن السؤال وقع عن المعبود لا عن العبادة ، فكان حق الجواب أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى : وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ «١» ، وكقوله تعالى : ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ «٢». لكنهم أطنبوا فيه بإظهار العامل قصدا إلى إبراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بعبادتها ، فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ أي : فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنما قالوا : فَنَظَلُّ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. أو :

يراد به الدوام.

قالَ إبراهيم عليه السّلام : هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أي : هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم ، على حذف مضاف ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ إن عبدتموها ، أَوْ يَضُرُّونَ أو يضرونكم إن تركتم عبادتها إذ لا بد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضر؟ قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ فاقتدينا بهم. اعترفوا بأن أصنامهم

بمعزل عما ذكر من السمع ، والمنفعة ، والمضرة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أنهم لا سند لهم سوى التقليد الرديء.

قالَ إبراهيم : أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أي : أنظرتم وأبصرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ حق الإبصار ، أو حق العلم ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي أي : فاعلموا أنهم أعداء لى ، لا أحبهم ولا يحبونى ، أو : لو عبدتموهم لكانوا أعداء لى يوم القيامة ، كقوله : سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا «٣» ، وقال الفراء : هو من المقلوب ، أي : فإنى عدو لهم ، والعدو يجىء بمعنى الواحد والجماعة لأنه فعول ، كصبور. وفى قوله : عَدُوٌّ لِي ، دون «لكم» زيادة نصح ، لكونه أدعى لهم إلى القبول ، ولو قال : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المثابة ، ولم يقبلوه ، إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ : استثناء منقطع ، أي : لكن رب العالمين ليس كذلك ، بل هو

---

(١) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة سبأ.

(٣) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

حبيب لى. وأجاز الزّجّاج أن يكون متصلا ، على أن الضمير لكل معبود ، وكان من آبائهم من عبد اللّه تعالى ، وهم أيضا كانوا يعبدون اللّه مع أصنامهم.

ثم وصف الربّ تعالى بقوله : الَّذِي خَلَقَنِي بالتكوين فى القرار المكين ، فَهُوَ يَهْدِينِ وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا ، هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح ، متجددة على الاستمرار ، كما ينبئ عنه صيغة المضارع. وعبّر بالاستقبال ، مع سبق الهداية فى الأزل لأن المراد ما ينشأ عنها ، وهو الاهتداء لما هو الأهم والأفضل والأتم الأكمل ، أو : والذي خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدين إلى آداب خلّته. ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو ، بخلاف الهداية والإطعام والسقي ، فإنه يكون على سبيل المجاز من المخلوقين ، ولذلك أكده بهو ليخصه به تعالى.

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي لا غيره ، أضاف الإطعام إلى مولى الإنعام لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام.

وَهو أيضا الذي يَسْقِينِ أي : يروينى بمائه. وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى ، مستقل فى استيجاب الحكم. وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ : عطف على يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، ونظم معهما فى سلك الصلة بموصول واحد لأن الصحة والمرض من

متبوعات الأكل والشرب فى العادة ، غالبا.

وقال فى الحاشية : ثم ذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة وتستمر ، وهو الغذاء والشراب ، ولمّا كان ذلك مبنيا على غلبة إحدى الكيفيات على الأخر ، بزيادة الغذاء أو نقصانه ، فيحدث بعد ذلك مرض ، ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم. هـ. ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى اللّه تعالى ، مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الأدب ، كما قال الخضر عليه السّلام : فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها «١» ، فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما «٢».

وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، ولم يقل : وإذا مت لأن الإماتة والإحياء من خصائصه تعالى. وأيضا : الموت والإحياء من كمال الكمال لأنه الخروج من سجن الدنيا إلى السرور والهناء ، أو : الخروج من دار البلاء والفناء إلى دار الهناء والبقاء. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي أي : فى مغفرته لى خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ، ذكره عليه السّلام هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصي ، ويكونوا على حذر منها ، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان : أخرج سؤاله على حد الأدب ، لم يحكم على ربه بالمغفرة ، ولكنه طمع طمع العبيد فى مواليهم ، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئا إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئا ، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه. هـ.

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.

(٢) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٤٢

وقيل : أشار إلى قوله : إِنِّي سَقِيمٌ «١» فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا «٢» وقوله فى سارّة : «هى أختى» حذرا من الجبار.

وفيه نظر لأنها مع كونها معاريض ، لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار ، إنما صدرت عنه عليه السّلام بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه فى أول أمره. وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، مع كونها إنما تغفر فى الدنيا لأن أثرها إنما يظهر يومئذ ، ولأن فى ذلك تهويلا له ، وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه ، إن لم يغفر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى لك أيها العبد أن تكون إبراهيميا حنيفيا ، فتنبذ جميع الأرباب ، وتعادى كل من يشغلك عن محبة الحبيب ، من العشائر والأصحاب ، وتقول لمن عكف على متابعة هواه ، ولزم الحرص على جمع دنياه ، هو ومن تقدمه : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب

العالمين ، الذي خلقنى لعبوديته ، فهو يهدين إلى معرفته ، والذي هو يطعمنى طعم الإيمان واليقين والإحسان ، ويسقينى من شراب خمرة العيان ، وإذا مرضت بالذنوب فهو يشفين بالتوبة ، أو : وإذا مرضت بشيء من العيوب فهو يشفين بالتطهير منها. أو :

إذا مرضت برؤية السّوى ، فهو يشفين بالغيبة عنه ، والذي أطمع أن يطهرنى من البقايا ، ويجعلنى من المقربين يوم الدين. وقال ذو النون رضي اللّه عنه : يطعمنى طعام المعرفة ، ويسقينى شراب المحبة ، ثم قال :

شراب المحبّة خير الشّراب وكلّ شراب سواه سراب

وقال الشيخ أبو يزيد البسطامي رضي اللّه عنه : إن للّه شرابا ، يقال له : شراب المحبة ، ادخره لأفاضل عباده ، فإذا شربوا سكروا ، وإذا سكروا طاشوا ، وإذا طاشوا طاروا ، وإذا طاروا وصلوا ، وإذا وصلوا اتصلوا ، فهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. هـ. قلت : شراب المحبة هو خمرة الفناء والغيبة فى اللّه ، بدليل قول ابن الفارض رضي اللّه عنه :

فلم تهونى ما لم تكن فىّ فانيا ولم تفن ما لم تجتل فيك صورتى.

وقال الجنيد رضي اللّه عنه : يحشر الناس يوم القيامة عراة ، إلا من لبس ثياب التقوى ، وجياعا إلا من أكل طعام المعرفة ، وعطاشا إلا من شرب شراب المحبة. هـ. وقد يستغنى صاحب طعام المعرفة وشراب المحبة عن الطعام والشراب الحسيين ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، حين كان يواصل : «إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقين» «٣».

قال أبو بكر الوراق فى قوله تعالى : الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ أي : يطعمنى بلا طعام ، ويسقينى بلا شراب. قال : ويدل عليه حديث السّقّاء فى عهد النبي صلى اللّه عليه وسلم حيث سمع النبي صلى اللّه عليه وسلم يقرأ ثلاثة أيام : وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها ، فرمى بقربته ، فأتاه آت فى منامه بقدح من شراب الجنة ، فسقاه ، قال أنس :

فعاش بعد ذلك نيفا وعشرين سنة ، لم يأكل ولم يشرب على شهوة. هـ.

---

(١) من الآية ٨٩ من سورة الصافات.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٣) أخرجه البخاري فى (الصوم ، باب التنكيل لمن أكثر الوصال ، ح ١٩٦٥) ومسلم فى (الصيام ، باب النهى عن الوصال فى الصوم ، ٢/ ٧٧٤ ، ح ١١٠٣) من حديث أبى هريرة ، بدون لفظ «عند ربى» وجاء هذا اللفظ فى رواية عند الإمام أحمد فى المسند (٢/ ٢٥٣).

وكان عبد الرحمن بن أبى نعيم لا يأكل فى الشهر إلا مرة ، فأدخله الحجاج بيتا ، وأغلق عليه بابه ، ثم فتحه بعد خمسة عشر يوما ، ولم يشك أنه مات ، فوجده قائما يصلى ، فقال : يا فاسق ، تصلى بغير وضوء؟ فقال : إنما يحتاج الوضوء من يأكل ويشرب ، وأنا على الطهارة التي أدخلتنى عليها. هـ.

ومكث سفيان الثوري بمكة دهرا ، وكان يسفّ من السبت إلى السبت كفا من الرمل. هـ. وهذا من باب الكرامة ، فلا يجب طردها ، وقد تكون بالرياضة ، وطريق المعرفة لا تتوقف على هذا. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر دعاء إبراهيم عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٨٣ الى ٨٩]

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)

يقول الحق جل جلاله ، حاكيا عن خليله إبراهيم عليه السّلام : رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً أي : حكمة ، أو حكما بين الناس ، أو نبوة لأن النبي ذو حكم بين عباد اللّه. وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ أي : الأنبياء ، الذين صلحوا لحمل أعباء النبوة والرسالة ، وصلحت سرائرهم للحضرة ، ولقد أجابه بقوله : وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ أي : ثناء حسنا ، وذكرا جميلا فى الأمم التي تجيء بعدي ، فأعطى ذلك ، فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه ، ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به. أو : واجعلنى على طريق قويم ، وحال مرضى ، يقتدى بي فيهما ، ويحمد أثرى بعد موتى ، كما قيل :

موت التقيّ حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم فى الناس أحياء.

وقد تحقق له جميع ذلك ، وخصوصا فى هذه الأمة ، حتى إنه مذكور ومقرون فى كل صلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقال بعضهم : سأل أن يجعله صالحا ، بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذبا. وقيل : سأل الإمامة فى التوحيد والدين ، وقد أجيب بقوله : إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً «١» هـ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ أي : اجعلنى وارثا من ورثة جنة النعيم ، أي : الباقين فيها ، وَاغْفِرْ لِأَبِي ، أي : اجعله أهلا للمغفرة ، بإعطاء الإسلام إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ : الكافرين ، أو : اغفر له على حاله.

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وكان قبل النهى. وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ أي : لا تهنّى يوم يبعثون. الضمير للعباد لأنه معلوم ، أو : للضالين ، أي : لا تخزنى فى أبى يوم البعث ، وهذا من جملة الاستغفار لأبيه ، وكان قبل النهى عنه ، أي : لا تهنّى ، يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ ، أي : لا ينفع فيه مال ، وإن كان مصروفا فى وجوه البر ، ولا بنون ، وإن كانوا صلحاء متأهلين للشفاعة ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من الكفر والنفاق فإنه ينفعه ماله المصروف فى طاعة اللّه ، ويشفع فيه بنوه ، إن تأهلوا للشفاعة ، بأن أدّبهم ودرّجهم إلى اكتساب الكمالات والفضائل.

وقال ابن المسيب : القلب السليم هو قلب المؤمن فإن قلب الكافر والمنافق مريض قال اللّه تعالى : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ «١». وقال أبو عثمان : هو القلب الخالي من البدعة ، المطمئن على السنة. وقال الحسن بن الفضل : سليم من آفات المال والبنين ، واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قد استعمل إبراهيم عليه السّلام الأدب ، الذي هو عمدة الصوفية ، حيث قدّم الثناء قبل الطلب ، وهو مأخوذ من ترتيب فاتحة الكتاب. وقوله تعالى : رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً : قال القشيري : أي : على نفسى أولا ، فإن من لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ بالقيام بحقك ، دون الرجوع إلى طلب الاستقلال لنفسى دون حقك. هـ.

ومما اصطلحت عليه الصوفية أن الصالحين : من صلحت ظواهرهم ، وتطهرت قلوبهم من الأمراض. وفوقهم الأولياء ، وهم من كشف عنهم الحجاب ، وأفضوا إلى الشهود والعيان ، وفوقهم درجة النبوة والرسالة ، فقول الخليل وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ، وكذلك قال الصدّيق ، هو تنزل وتواضع ليعرف جلالة قدر الصالحين ، فما بالك بمن فوقهم! فهو كقول نبينا صلى اللّه عليه وسلم : «اللهمّ أحينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرني فى زمرة المساكين» «٢». أي :

اجعل المساكين هم قرابتى ، المحدقون بي فى المحشر ، فقد عرّف صلى اللّه عليه وسلم بفضيلة المساكين ، وعظّم جاههم ، بطلبه أن يكونوا فى كفالته ، لا أنه فى كفالتهم ، وكذلك الخليل والصدّيق ، عرّفا بفضيلة الصالحين من أهل الإسلام ، لأ أنهما طلبا اللحوق بهم.

وقوله تعالى : وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ كل من أخلص وجهه لله ، وتخلصت سريرته مما سوى اللّه ، وكان إبراهيميا حنيفيا ، جعل اللّه له لسان صدق فيمن يأتى بعده ، وحسن الثناء عليه فى حياته وبعد مماته ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «إذا أحب اللّه عبدا نادى جبريل : إن اللّه يحب فلانا فأحبّه ، فيحبّه جبريل ، ثم ينادى جبريل

---

(١) من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم ، ٤/ ٤٩٩ ، ح ٢٣٥٢) ، والبيهقي فى الكبرى (٧/ ١٢) من حديث أنس بن مالك ، وأخرجه ابن ماجة

فى (الزهد ، باب مجالسة الفقراء ، ٢/ ١٣٨١ - ١٣٨٢ ، ح ٤١٢٦) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٢٢) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، من حديث أبى سعيد الخدري.

(١٤٤/٤)

فى أهل السموات : إن اللّه يحب فلانا فأحبّوه ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض» «١». أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم.

وقوله تعالى : وَاغْفِرْ لِأَبِي .. إلخ. قال القشيري : هذا عند العلماء : إنما قاله قبل يأسه من إيمانه ، وعن أهل الإشارة : ذكر فى وقت غلبة البسط ، وتجاوز ذلك عنه ، وليس إجابة العبد واجبة عليه فى كل شيء ، وأكثر ما فيه :

أنه لا يجيبه فى ذلك ، ثم لهم أسوة فى ذكر أمثال هذا الخطاب ، وهذا لا يهتدى إليه كلّ أحد. هـ.

قال المحشى : وينظر لما قاله العلماء ، وبه الفتوى ، قوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ «٢» ، وينظر للسان الإشارة شفاعته له يوم القيامة ، وتكلمه فيه بقوله : (و أىّ خزى أعظم من كون أبى فى النار ..) الحديث ، وكذا قوله : وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣» ، وجاء ذلك من استغراقه فى بحر الرحمة ، على سعة العلم ، ومثله استغفار نبينا صلى اللّه عليه وسلم لابن أبىّ ، وصلاته عليه ، وانظر الطيبي فى آية : وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً «٤». هـ.

وقوله تعالى : إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، أظهر ما قيل فى القلب السليم : أنه السالم من الشكوك والأوهام ، والخواطر الردية ، ومن الأمراض القلبية ، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل ، يخرجه من الأوصاف البشرية ، إلى الأوصاف الروحانية ، ويحققه بالحضرة القدسية ، وإلا بقي مريضا ، حتى يلقى اللّه بقلب سقيم. وفى الإحياء : السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض الدنيا ، والجود بالمال من عوارض الدنيا ، فشرط القلب أن يكون سليما بينهما ، أي : لا يكون ملتفتا إلى المال ، ولا يكون حريصا على إمساكه ، ولا حريصا على إنفاقه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق ، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك. وكان كمال القلب أن يصفو من الوصفين جميعا. وقال الداراني : القلب السليم هو الذي ليس فيه غير اللّه تعالى. هـ. وقال الجنيد رضي اللّه عنه : السليم فى اللغة : اللديغ ، فمعناه : كاللديغ من خوف اللّه تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هول ذلك اليوم ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٩٠ الى ١٠٤]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ

دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (٩٤)
وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٩٨) وَما أَضَلَّنا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩)
فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

---

(١) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب المقة «المحبة» من اللّه ح ٦٦٤٠) ومسلم فى (البر والصلة ، باب إذا أحب اللّه عبدا حبّبه إلى عباده ، ٤/ ٢٠٣٠ ، ح ٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٣٦ من سورة إبراهيم. [.....]

(٤) من الآية ٧ من سورة غافر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٤٦

قلت : (و أزلفت) : عطف على (ينفع) ، وصيغة الماضي فيها وفيما بعدها لتحقق الوقوع.

يقول الحق جل جلاله ، فى شأن اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون : وَأُزْلِفَتِ أي : قربت الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، أي : تزلف من موقف السعداء ، فينظرون إليها ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ : أظهرت ، حتى يكاد يأخذهم لهبها ، لِلْغاوِينَ : للكافرين ، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ بدفع العذاب عنكم ، أَوْ يَنْتَصِرُونَ بدفعه عن أنفسهم ، يوبّخون على إشراكهم ، فيقال لهم : أين آلهتكم التي عبدتموها ، هل ينفعونكم اليوم بنصرتهم لكم؟ أو : هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لها؟ كلا ، بل هم وآلهتهم وقود النار ، كما قال تعالى :

فَكُبْكِبُوا فِيها أي : ألقوا فى الجحيم على وجوههم ، مرة بعد أخرى ، إلى أن يستقروا فى قعرها. وفى القاموس : كبّه : قلبه وصرعه ، كأكبه وكبكبه. هـ. أي : صرعوا منكبين فى الجحيم على وجوههم ، هُمْ أي :

آلهتهم وَالْغاوُونَ أي : الذين كانوا يعبدونهم.

وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم مؤخّرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها ، فيزدادوا غما على غم ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أي : يكبكبون معهم أَجْمَعُونَ ، وهم شياطينه الذين كانوا يقوونهم

ويوسوسونهم ، ويسوّلون لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام ، وسائر فنون الكفر والمعاصي ، أو : متبعوه من عصاة الجن والإنس ليجتمعوا فى العذاب ، حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه.

قالُوا أي : العبدة وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ أي : قالوا معترفين بخطائهم فى انهماكهم فى الضلالة متحسرين ، والحال : أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين ، فيجوز أن ينطق اللّه الأصنام ، حتى يصح منها التخاصم والتقاول ، ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين.

قالوا : تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : إن الشأن كنا فى ضلال واضح ، لا خفاء فيه ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ نعدلكم بِرَبِّ الْعالَمِينَ فنعبدكم معه ، أي : تاللّه لقد كنا فى ضلال فاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام ، فى استحقاق العبادة ، برب العالمين ، الذي أنتم أدنى مخلوقاته ، وأذلهم وأعجزهم ، وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ أي :

رؤساؤهم ، الذين أضلوهم ، وإبليس وجنوده ، ومن سنّ الشرك. وليس المراد قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم ، بل قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم ، من غير أن يستقلوا به ، وهذا كقولهم : رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا «١». وعن السّدّى : هم الأولون الذين اقتدوا بهم. وأيّا ما كان ففيه التعريض للذين قالوا : بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ.

ثم قالوا : فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء – عليهم السلام – وغيرهم ممن أهّل للشفاعة. وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ كما لهم أصدقاء إذ لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون ، وأما الكفار فبينهم التعادي كما يأتى فى الآية. أو : ما لنا من شافعين ، ولا صديق من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشفع لهم عند اللّه ، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس ، فلم ينفعهم شيء من ذلك. وجمع الشفعاء ووحّد الصديق لكثرة الشفعاء. وأما الصديق ، وهو الصادق فى ودادك ، الذي يهمه ما أهمك ، ويسره ما أسرك ، فقليل ، وسئل حكيم عن الصديق ، فقال : (اسم لا معنى له) ، أي : لا وجود له ، والبركة لا تنقطع.

قال القشيري : فى الخبر : يجيء يوم القيامة عبد فيحاسب ، فتستوى حسناته وسيئاته ، ويحتاج إلى حسنة واحدة يرضى عنه خصومه ، فيقول اللّه سبحانه له : عبدى بقيت لك حسنة ، إن كانت أدخلناك الجنة ، انظر ، وتطلّب من الناس لعلّ أحدا يهبها لك. فيأتى الصفين ، فيطلب من أبيه ، ثم من أمه ، ثم من أصحابه ، فلا يجيبه أحد إلا بقوله :

أنا اليوم فقير إلى حسنة واحدة ، فيرجع إلى مكانه ، فيسأله الحقّ – سبحانه : ما جئت به؟ فيقول : يا

ربّ لم يعطنى أحد حسنة ، فيقول اللّه تعالى : عبدى .. ألم يكن لك صديق؟ فيتذكر العبد ، ويقول : فلان كان صديقا لى فيك ، فيأتيه ويدله الحق عليه ، فيكلّمه ، فيقول : بل لى عبادات كثيرة ، فإن قبلها اللّه منى فقد وهبتها لك ، فيسرّ ويجىء إلى موضعه ، فيخبر بذلك ربّه تعالى ، فيقول : قد قبلتها منه ، ولم أنقص من حقّه شيئا ، وقد غفرت لك وله – فهذا معناه. هـ. ونقل القرطبي عن الحسن قال : ما اجتمع ملأ على ذكر اللّه ، فيهم عبد من أهل الجنة ، إلا شفّعه اللّه فيهم ، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض ، وهم عند اللّه شافعون مشفعون. هـ.

ثم قالوا : فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً أي : رجعة إلى الدنيا فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وجواب لو التّمنية : محذوف ، أي : لفعلنا كيت وكيت إذ «لو» ، فى مثل هذا ، للتمنى ، أي : فليت لنا كرة فنكون من المؤمنين.

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من الأنباء العجيبة كقصة إبراهيم مع قومه ، وما ترتب على ذلك من الوعد والوعيد ، لَآيَةً عظيمة ، موجبة للزجر عن عبادة الأصنام ، لا سيما لأهل مكة ، الذين يدّعون أنهم على ملة

---

(١) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب.

إبراهيم عليه السّلام ، أو : إن فى ذكر نبأه ، وتلاوته عليهم ، على ما هو عليه ، من غير أن تسمعه من أحد ، لآية عظيمة دالة على أن مانتلوه عليهم وحي صادق ، نازل من جهته تعالى ، موجبة للإيمان به ، وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ أي : وما أكثر هؤلاء ، الذين تتلو عليهم هذه الأنباء ، مؤمنين ، بل هم مصرّون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. ولا يحسن رجوعه لقوم إبراهيم ، على أن كانَ أصلية لأنه لم يؤمن من قومه إلا لوط فقط.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أي : هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ، ولكنه يمهلهم بحلمه ورحمته ليؤمن بعض منهم أو من ذريتهم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : وأزلفت جنة المعارف للمتقين السّوى ، وبرزت جحيم القطيعة للغاوين ، المتبعين الهوى. وفى الحكم :

«لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك» وقيل لأهل الهوى : أين ما كنتم تعبدون من دون اللّه ، من الحاملين لكم على البقاء مع الحظوظ والشهوات ، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ فكبكبوا فى الحضيض الأسفل ، هم والغاوون لهم ، الذين منعوهم من الدخول فى حضرة

الأولياء ، وجنود إبليس أجمعون. قالوا – وهم فى غم الحجاب ونار القطيعة يختصمون – : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين فى المحبة والميل ، وما أضلنا إلا المجرمون ، الذين حكموا بقطع التربية على الدوام ، وسدوا الباب فى وجوه الرجال ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، يشفع لنا حتى نلتحق بالمقربين. هيهات لا يكون اللحوق بهم إلا بالدخول معهم ، فى مقام المجاهدة فى دار الدنيا ، ثم يتمنون الرجوع ليصدّقوا بهم ، وينخرطوا فى سلكهم ، فلا يجدون له سبيلا. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة نوح عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٠٥ الى ١٢٢]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤)

إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٤٩

قلت : اسم الجمع واسم الجنس يذكر ويؤنث ، كقوم ، ورهط ، وشجر.

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ، وهو نوح بن لامك. قيل : ولد فى زمن آدم عليه السّلام ، قاله النسفي ، وإنما قال : الْمُرْسَلِينَ ، والمراد : نوح فقط لأن من كذّب واحدا من الرسل فقد كذب الجميع ، لاتفاقهم فى الدعوة إلى الإيمان لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وقد يراد بالجمع : الواحد كقولك : فلان يركب الخيل ، ويلبس البرود ، وما له إلا فرس واحد وبرد واحد. إِذْ قالَ لَهُمْ : ظرف للتكذيب ، أي : كذبوه وقت قوله لهم أَخُوهُمْ نُوحٌ نسبا ، لا دينا ، وقيل : أخوة المجانسة ، كما فى آية : بِلِسانِ قَوْمِهِ «١» : أَلا تَتَّقُونَ خالق الأنام ، فتتركوا عبادة الأصنام ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، كان مشهورا بالأمانة عندهم ، كحال نبينا صلى اللّه عليه وسلم فى قريش ، ما كانوا

يسمونه إلا محمدا الأمين. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الإيمان.
وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي : على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح ، مِنْ أَجْرٍ أصلا إِنْ أَجْرِيَ فيما أتولاه إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ لا أطمع فى غيره ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزيهه عليه السّلام عن الطمع ، كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير للتأكيد ، والتنبيه على أن كلا منهما مستقل فى إيجاب التقوى والطاعة ، فكيف إذا اجتمعا؟ كأنه قال : إذا عرفتم رسالتى وأمانتى فاتقوا اللّه وأطيعون.
قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ والحالة أنه قد تبعك الْأَرْذَلُونَ أي : الأرذلون جاها ومالا ، والرذالة : الدناءة والخسة ، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم ، وقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل : كانوا من أهل الصناعة الدنيئة ، قيل :
كانوا حاكة وأساكفة – جمع إسكاف – وهو الخفّاف – أي : الخراز ، وقيل : النجار. والصناعة لا تزرى بالديانة ، فالغنى غنى القلوب ، والنسب نسب التقوى ، والعز عز العلم بالله لا غير ، ومرادهم بذلك : أنه لا مزية لك فى اتباعهم إذ

---

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٠
ليس لهم رزانة عقل ، ولا إصابة رأى ، وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى. وهذا من كمال سخافة عقولهم ، وقصر نظرهم على حطام الدنيا حتى اعتقدوا أن الأشرف من جمعها ، والأرذل من حرمها. وقد جهلوا بأنها لا تزن عند اللّه جناح بعوضة ، وأن النعيم هو نعيم الآخرة ، والأشرف من فاز به ، وسكن فى جوار اللّه ، والأرذل من حرم ذلك.
قال القشيري : ذكر ما لقى من قومه ، وقوله : وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ، وكذلك أتباع الرسل ، إنما هم الأضعفون ، لكنهم – فى حكم اللّه – هم المقدّمون الأكرمون ، قال صلى اللّه عليه وسلم : «نصرت بضعفائكم» «١» ، إلخ كلامه.
قالَ وَما عِلْمِي أي : وأىّ شىء علمى بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الصناعات ، إنما أطلب منهم الإيمان.
وقيل : إنهم طعنوا فى إيمانهم ، وقالوا : لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما اتبعوك طمعا فى العدة والمال ، أي : وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر ، دون التنقير على بواطنهم ، والشق عن قلوبهم ، إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي أي :

ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها إلا على ربى فإنه المطلع على السرائر ، لَوْ تَشْعُرُونَ بشيء من الأشياء ، أو : لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ، ولكنكم كالبهائم أو أضل.

وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ أي : ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم ، فأطرد المؤمنين طمعا فى إيمانكم ، وهو جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك ، حيث جعلوا اتباعهم له مانعا عنه ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ وما على إلا أن أنذركم إنذارا بيّنا بالبرهان القاطع ، وأنتم أعلم بشأنكم ، أي : وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين ، سواء كانوا أعزاء أو أراذل ، فكيف يمكننى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟. قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ عما تقول لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ من المقتولين بالحجارة. قالوه فى آخر أمره.

قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ تمادوا على تكذيبى ، وأصروا عليه ، بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وليس هذا من قبيل الإخبار لأن اللّه لا يخفى عليه شيء ، وإنما هو تضرع وابتهال ، بدليل قوله : فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً أي : احكم بينى وبينهم بما يستحقه كل واحد منا ، وهذه حكاية إجمالية ، قد فصلت فى سورة نوح وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من شرهم ، أو من شؤم عملهم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ح ٢٨٩٦) ، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص ، بلفظ : «هل تنصرون إلا بضعفائكم» ، وأخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٨) ، والترمذي فى (الجهاد ، باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين ، ٤/ ١٧٩ ، ح ١٧٠٢) ، وأبو داود فى (الجهاد ، باب فى الانتصار برذل الخيل والضعفة ٣/ ٧٣ ، ح ٢٥٩٤) ، من حديث أبى الدرداء ، بلفظ : «ابغوني فى الضعفاء ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».

قال المنذرى : ومعناه : أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصا لخلو قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا ، وجعلوا همهم واحدا ، فأجيب دعاؤهم ، وربحت أعمالهم.

فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ حسب دعائه فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ المملوء بهم وبما لا بد لهم منه. ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ أي : بعد إنجائهم الْباقِينَ من قومه ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الممتنع القاهر بإهانة من جحد وأصر. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : أخبر عن كل واحد من الأنبياء بقوله : وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ليعلم الكافة

أنه من عمل له فلا ينبغى أن يطلب الأجر من غيره ، ففى هذا تنبيه للعلماء – الذين هم ورثة الأنبياء – أن يتأدبوا بآدابهم ، وألّا يطلبوا من الناس شيئا فى بثّ علومهم ، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم ، ومن ارتفق من المستمعين فى بث فائدة يذكرها من الدين ، يعظ بها المسلمين ، فلا بارك اللّه للمسلمين فيما يسمعون منه ، ولا للعلماء أيضا بركة فيما منهم يأخذون ، فيبيعون دينهم بعرض يسير ، ثم لا برضكة لهم فيه ، إذ لا يتقربون به إلى اللّه ، ولا ينتفعون به ، ويحصلون على سخط من اللّه. هـ.

قلت : أما ما يأخذه العالم من الأحباس فلا يدخل فى هذا إذ ليس فيه تكلف من أحد ، وكذلك ما يأخذه الواعظ على وجه الزيارة والهدية ، من غير استشراف نفس ولا طمع ولا تكلف. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٢٣ الى ١٤٠]

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٢

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ ، وهى قبيلة ، ولذلك أنّث الفعل ، وفى الأصل : اسم رجل ، هو أبو القبيلة. إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نسبا ، هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، وقد مر تفسيره ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فى تكذيب الرسول الأمين ، وَأَطِيعُونِ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ، وتصدير القصص بتكذيب الرسل والأمر بالطاعة للدلالة على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق ، والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ، ويبعده من العقاب ، وأنّ الأنبياء – عليهم السلام – مجمعون على ذلك ، وإن اختلفوا فى فروع الشرائع ، المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار ، وأنهم منزهون عن المطامع الدنيئة ، والأغراض الدنيوية بالكلية.

ثم وبّخهم بقوله : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ : مكان مرتفع ، ومنه : ريع الأرض لارتفاعها ، وفيه لغتان : كسر الراء وفتحها. آيَةً علما للمارة ، كانوا يصعدونه ويسخرون بمن يمر بهم. وقيل : كانوا يسافرون ولا يهتدون إلا بالنجوم ، فبنوا على الطريق أعلاما ليهتدوا بها عبثا ، وقيل : برج حمام ، دليله : تَعْبَثُونَ أي : تلعبون ببنائها ، أو : بمن يمر بهم على الأول ، وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ ، مآخذ الماء ، أو قصورا مشيدة ، أو حصونا ، وهو جمع مصنع ، والمصنع : كل ما صنع وأتقن فى بنيانه ، لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ أي : راجين الخلود فى الدنيا ، عاملين عمل من يرجو ذلك ، أو كأنكم تخلدون.

وَإِذا بَطَشْتُمْ بسوط أو سيف ، أو أخذتم أحدا لعقوبة بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ مسلطين ، قاسية قلوبكم ، بلا رأفة ولا رقة ، ولا قصد تأديب ، ولا نظرا للعواقب. والجبار الذي يضرب أو يقتل على الغضب. فَاتَّقُوا اللَّهَ فى البطش ، وَأَطِيعُونِ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ من ألوان النعماء وأصناف الآلاء. ثم فصّلها بقوله : أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ فإن التفصيل بعد الإجمال أدخل فى القلب.

وقرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها.

وَجَنَّاتٍ بساتين وَعُيُونٍ : أنهار خلال الجنات ، إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إن عصيتمونى ، أو : إن لم تقوموا بشكرها فإن كفران النعم مستتبع للعذاب ، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها ، قال تعالى : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ «١».

---

(١) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ فإنّا لن نرعوى عما نحن عليه ، ولا نقبل كلامك ودعوتك ، وعظت أو سكت. ولم يقل : أم لم تعظ لرؤوس الآي. إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ بضم اللام «١» ، أي :

ما هذا الذي نحن عليه من ألّا بعث ولا حساب ، إلا عادة الأولين وطبيعتهم واعتقادهم ، أو : ما هذا الذي نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة ، لم يزل الناس عليها ، ولا شيء بعدها ، أو : ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش ، إلا عادة من قبلنا ، فنحن نقتدى بهم ، وما نعذّب على ذلك. وبسكون اللام ، أي : ما هذا الذي خوفتنا به إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ أي : اختلاقهم وكذبهم ، أو : ما خلقنا هذا إلا كخلقهم ، نحيا كما حيوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا حساب ، وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ على ما نحن عليه من الأعمال.

فَكَذَّبُوهُ أي : أصروا على تكذيبه ، فَأَهْلَكْناهُمْ بسبب ذلك بريح صرصر ، تقدم فى الأعراف كيفيته «٢» ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ أي : قوم هود مُؤْمِنِينَ ما أسلم معه ثلاثمائة ألف ... وأهلك باقيهم. قاله المحشى الفاسى. وقيل : وما أكثر قومك بمؤمنين بهذا ، على أن كانَ : صلة. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ العزيز بالانتقام من أعدائه ، الرحيم بالانتصار لأوليائه.

الإشارة : أنكر. هود عليه السّلام على قومه أمرين مذمومين ، وهما من صفة أهل البعد عن اللّه الأول : التطاول فى البنيان ، والزيادة على الحاجة ، وهى ما يكن من البرد ، ويقى من الحر ، من غير تمويه ولا تزويق ، والزيادة على الحاجة فى البنيان من علامة الرغبة فى الدنيا ، وهو من شأن الجهال رعاء الشاه ، كما فى الحديث ، وفى خبر آخر :

«إذا علا العبد البناء فوق ستة أذرع ناداه ملك : إلى أين يا أفسق الفاسقين؟» «٣».

والثاني : التجبر على عباد اللّه ، والعنف معهم ، من غير رحمة ولا رقة ، وهو من قساوة القلب ، والقلب القاسي بعيد من اللّه ، وفى الخبر عن عيسى عليه السّلام : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر اللّه ، فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من اللّه ، ولكن لا تشعرون). وفى الحديث عن نبينا صلى اللّه عليه وسلم : «لا تنظروا إلى عيوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا إلى عيوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء وسلوا اللّه العافية» «٤». وباللّه التوفيق ،

---

(١) قرأ بالضّمّ : نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، وقرأ «خلق» بفتح الخاء وسكون اللام ، ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو ، والكسائي.

راجع إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٣١٨).

(٢) راجع تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف.

(٣) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ٢٨٠٣) بلفظ : «إذا رفع الرجل بناء فوق سبعة أذرع ، نودى يا أفسق الفاسقين إلى أين»؟

وعزاه لابن أبى الدنيا موقوفا على عمارة بن عامر. وقال المنذرى : ورفعه بعضهم ، ولا يصح. وانظر فتح الباري (١١/ ٩٢).

(٤) هذا بقية الخبر السابق عن سيدنا عيسى عليه السّلام. وأخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٨٦) بلاغا. ولم أقف عليه حديثا عن سيدنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٤

ثم ذكر قصة صالح عليه السّلام ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٤١ الى ١٥٩]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠)

وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥)

وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نسبا ، صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ اللّه تعالى ، فتوحدونه ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ : مشهور فيكم بالأمانة ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ، أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ أي : أتطمعون أن تتركوا فيما هاهنا من النعمة والتّرفّه ، آمنين من عقاب اللّه وعذابه ، وأنتم على كفركم وشرككم ، كلا ، واللّه لنختبرنكم ببعث الرسول ، فإن كفرتم عاجلتكم بالعقوبة.

ثم فسّر ما هم فيه من النعمة بقوله : فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ هو داخل فيما قبله ، وخصه بالذكر شرفا له. أو : فى جنات بلا نخل ، طَلْعُها هَضِيمٌ ، والطلع : عنقود التمر فى أول نباته ، باقيا فى غلافه.

والهضيم : اللطيف اللين للطف الثمر ، أو : لأن النخل أنثى وطلع الأنثى ألطف ، أو : لنضجه ، كأنه : قيل : ونخل قد

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٥

أرطب ثمره. قال ابن عباس : إذا أينع فهو هضيم. وقال أيضا : هضيم : طيب ، وقال الزجاج : هو الذي رطبه بغير نوى ، أو : دان من الأرض ، قريب التناول.

وَتَنْحِتُونَ أي : تنقبون مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ حال من الواو ، أي : حاذقين ، أو : ناشطين ، أو :

أقوياء ، وقيل : أشرين بطرين. قيل : كانوا فى زمن الشتاء يسكنون الجبال ، وفى زمن الربيع والصيف ينزلون بمواشيهم إلى الريف ومكان الخصب. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الكافرين المجاوزين الحد فى الكفر والطغيان ، أي : لا تنقادوا لأمرهم ، ولا تتبعوا رأيهم ، وهم الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بالإسراف فى الكفر والمعاصي ، وَلا يُصْلِحُونَ بالإيمان والطاعة. والمعنى : أن فسادهم خالص ، لا يشوبه شيء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ الذين سحروا ، حتى غلب على عقلهم السحر ، ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعوى الرسالة ، قالَ هذِهِ ناقَةٌ ، قالها بعد ما أخرجها اللّه تعالى من الصخرة بدعائه عليه السّلام ، لَها شِرْبٌ نصيب من الماء ، فلا تزاحموها فيه ، وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ لا تزاحمكم فيه. روى أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء ، تخرج من هذه الصخرة ، فتلد سقبا – والسقب : ولد الناقة – فقعد صالح يتفكر ، فقال له جبريل عليه السّلام : صلّ ركعتين ، وسل ربّك الناقة ، ففعل ، فخرجت الناقة ، ونتجت سقبا مثلها فى العظم ، وصدرها ستون ذراعا – أي : طولها – وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه.

وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ بضرب ، أو عقر ، أو غير ذلك ، فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه ، وهو أبلغ من تعظيم العذاب ، فَعَقَرُوها عقرها «قدّار» ، وأسند العقر إلى جميعهم لأنهم راضون به. روى أن عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين. وكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها ، فيقولون : أترضين بعقر الناقة؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم ، فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ على عقرها خوفا من نزول العذاب بهم ، لا ندم توبة لأنهم طلبوا صالحا ليقتلوه لمّا أيقنوا بالعذاب ، وندموا حين لا ينفع الندم ، وذلك حين معاينة العذاب.

فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ أي : صيحة جبريل ، فتقطعت قلوبهم ، فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ : ميتين ، صغيرهم وكبيرهم ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. روى أنه أسلم منهم ألفان وثلاثمائة رجل وامرأة. وقيل : كانوا أربعة آلاف ، وقال كعب : كان قوم صالح اثنى عشر ألفا ، من سوى النساء والذرية. ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. قاله القرطبي. قيل : فى نفى الإيمان عن أكثرهم إيماء إلى أنه لو آمن أكثرهم أو :

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٦

شطرهم لما أخذوا بالعذاب ، وأن قريشا إنما عصموا من تعجيل العذاب ببركة من آمن منهم. وعلى أن (كان) زائدة يكون الضمير لقريش ، كما تقدم. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

الإشارة : قوله : أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ أنكر عليهم ركونهم إلى الدنيا وزخارفها الغرارة ، واطمئنانهم إليها ، وهو غرور وحمق إذ الدنيا كسحابة الصيف ، تظل ساعة ثم ترتحل ، فالدنيا عرض حائل ، وظل آفل ، فالكيّس من أعرض عنها ، وتوجه بكليته إلى مولاه ، صبر قليلا وربح كثيرا ، والأحمق من وقع فى شبكتها ، حتى اختطفته منيته ، وفى الحديث :

«الدّنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، لها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادى من لا علم عنده» «١».

ثم ذكر قصة لوط عليه السّلام فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٦٠ الى ١٧٥]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (١٦٦) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)

فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ... إلخ ، وهو ظاهر ، ثم قال : أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ ، أراد بالعالمين : الناس ، أي : أتطؤون الناس مع كثرة الإناث ، أو : أتطؤون أنتم من بين سائر العالمين الذكران ، وتختصون بهذه الفاحشة وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ من الإناث. أو : ما خلق لكم لأجل

---

(١) تقدم تخريجه عند إشارة الآية ٧ من سورة الكهف.

استمتاعكم من الفروج ، مِنْ أَزْواجِكُمْ ، فمن للبيان ، إن أريد ب «ما» : جنس الإناث ، وهو الظاهر ، وللتبعيض ، إن أريد بها العضو المباح منهن ، تعريضا بأنهم يفعلون ذلك بنسائهم أيضا ، وفيه دليل تحريم أدبار الزوجات والمملوكات ، ومن أجاز ذلك قد أخطأ خطأ عظيما. بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ أي : متعدون ، والعادي : المتعدى فى ظلمه ، المتجاوز فيه الحد ، أي : أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا

بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة ، التي لم يرتكبها أحد قبلكم ، ولو من الحيوانات البهيمية.
قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ من بلدنا ، أي : من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا ، وطردناه من بلدنا. ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال.
قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ من المبغضين غاية البغض ، كأنه يقلى الفؤاد والكبد من شدته. والقلى : أشدّ البغض ، وهو أبلغ من أن يقول : لعملكم قال ، فقولك : فلان من العلماء ، أبلغ من قولك : فلان عالم لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. وفى الآية دليل على قبح معصية اللواط ولذلك أفتى مالك بقتل فاعلها.
ثم قال : رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ من عقوبة عملهم ، فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ يعنى : بناته ، ومن آمن معه ، إِلَّا عَجُوزاً هى امرأته ، وكانت راضية بذلك ، والراضي بالمعصية فى حكم العاصي ، ولو لم يحضر. واستثناؤها من الأهل لأنها داخلة فيه – ولو لم تكن مؤمنة – لاشتراكها فى الأهلية بحق الزواج. بقيت فِي الْغابِرِينَ فى الباقين فى العذاب ، وهى صفة لها. والغابر فى اللغة : الباقي ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ، أي : مقدّرا غبورها إذ الغبور لم يكن صفتها وقت نجاتهم.
ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ أي : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً أي : مطرا غير معهود. وعن قتادة : أمطر اللّه على شذّاذ القوم ، أي : الخارجين عن البلد – حجارة من السماء فأهلكهم ، وقلب المدينة بمن فيها. وقيل : لم يرض بالقلب فقط حتى أتبعهم مطرا من حجارة ، فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ أي : قبح مطر المنذرين مطرهم ، فالمخصوص محذوف. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، بل لم يؤمن به إلا بناته وناس قليلون. أو : ما كان أكثر قريش بمؤمنين بهذا ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، الرَّحِيمُ حيث لم يعاجل بالعقوبة لمن استحقها.
الإشارة : من شناعة هذه المعصية حذّر الصوفية من مخالطة الشبان ، وكذلك النساء. وما أولع فقير بمخالطتهما فأفلح أبدا ، إن سلم من الفاحشة اتّهم بها ، ولا يحل لا مرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف مواقف التهم. والنظر إلى محاسن النساء والشبان فتنة ، وهى كالعقارب ، الصغيرة تلدغ ، والكبيرة تلدغ ، فالسلامة البعد عن ساحتهن ، إلا على وجه أباحته الشريعة ، كالتعليم أو التذكير ، مع غضّ البصر ، أو حجاب بينه وبينهن ، وبالله التوفيق.

(١٥٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٥٨
ثم ذكر قصة شعيب – عليه السّلام – فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٧٦ الى ١٩١]

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥)

وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ وهى : الغيضة التي تنبت الشجر ، والمراد بها : غيضة بقرب مدين ، يسكنها طائفة منهم ، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السّلام ، وكان أجنبيا منهم ، ولذلك قيل :

إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ولم يقل : أخوهم ، بخلاف مدين فإنه منهم ، ولذلك قال : أَخاهُمْ شُعَيْباً «١» ، وقيل :

الأيكة : الشجر الملتف ، وكان شجرهم المقل ، وهو الدوم. قال قتادة : بعث اللّه شعيبا إلى أمتين أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. فأهلك اللّه أصحاب الأيكة بالظلة ، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا. وقرئ :

«ليكة» «٢» بحذف الهمزة ، وإلقاء حركتها على اللام ، وإنما كتبت هنا وفى «ص» «٣» باللام اتباعا للفظ.

---

(١) كما جاء فى الآية ٨٥ من سورة الأعراف ، والآية ٨٤ من سورة هود ، والآية ٣٦ من سورة العنكبوت.

(٢) قرأ نافع ، وابن كثير وابن عامر ، وأبو جعفر (ليكة) بلام مفتوحة ، بلا ألف وصل قبلها ، ولا همزة بعدها ، وفتح تاء التأنيث. وقرأ الباقون بهمزة وصل وسكون اللام وبعدها همزة مفتوحة. انظر الإتحاف (٢/ ٣١٤).

(٣) فى قوله تعالى : وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ .. الآية ١٣ من سورة «ص».

إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ اللّه ، فتوحدوه ولا تطففوا ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أي : التبليغ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ، أَوْفُوا الْكَيْلَ أي : أتموه وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ أي : حقوق الناس بالتطفيف ، وَزِنُوا أشياءكم التي تبيعونها بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ السوي. والقسطاس – بضم القاف وكسرها : الميزان ، فإن كان من القسط – وهو العدل ، وجعلت العين مكررة – فوزنه : فعلاس ، وإلا فهو رباعى ، ووزنه : فعلال. وقيل : عجمى.

وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ أي : لا تنقصوا شيئا من حقوقهم ، أىّ حق كان ، يقال : بخسه حقه : إذا انتقصه. وقيل : نهاهم عن نقص الدراهم والدنانير بقطع أطرافها. فالكيل على ثلاثة أقسام : واف ، وزائد وناقص.

فأمر الحق تعالى بالوافي ، ونهى عن الناقص ، وسكت عن الزائد ، فتركه دليل على أنه إن فعله كان أحسن ، وإن تركه فلا عليه. وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ولا تبالغوا فيها بالإفساد ، وذلك نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه ، يقال : عثى كفرح ، وعثا يعثو ، كنصر.

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ ، وَخلق الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ أي : الخلق الماضين ، وهم من تقدمهم من الأمم ، قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، وَما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، أدخل الواو بين الجملتين هنا لدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب ، فتكذيبهم أقبح من ثمود ، حيث تركه فدل على معنى واحد ، وهو كونه مسحورا ، وقرره بكونه بشرا. ثم قالوا : وَإِنْ نَظُنُّكَ «إن» : مخففة ، أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن لنظنك لَمِنَ الْكاذِبِينَ فيما تدعيه من النبوة.

ثم استعجلوا العذاب بقولهم : فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أي : قطعا ، جمع كسفة ، وقرئ بالسكون. أي جزأ منه ، والمراد بالسماء : إما السحاب ، أو : السماء المظلة ، إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى دعواك الرسالة ، ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب ، وإلا لما أخطروه ببالهم فضلا عن أن يطلبوه.

قالَ شعيب عليه السّلام : رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي ، وبما تستحقونه من العذاب ، فينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة ، فَكَذَّبُوهُ أي : فتمادوا على تكذيبه ، وأصروا عليه فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ حسبما اقترحوه. وذلك بأن سلطعليهم الحر سبعة أيام بلياليها ، فأخذ بأنفاسهم ، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولا شرب ، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة ، وجدوا بها بردا ونسيما ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا «١». وقيل : رفع لهم جبل ، فاجتمعوا تحته ، فوقع عليهم ، وهو الظلة. وقيل : لما ساروا إلى

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٩/ ١١٠) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧). [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦٠

السحابة صيح بهم فهلكوا. إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ أي : فى الشدة والهول ، وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ قيل : آمن بشعيب من القسمين - مدين والأيكة - تسعمائة إنسان ، أو : وما أكثر قريش بمؤمنين بهذا ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

هذا آخر القصص السبع التي أوحيت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لصرفه - عليه الصلاة والسلام - عن الحرص على إسلام قومه ودفع تحسر فواته ، تحقيقا لمضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة من قوله : لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ .. «١» ، إلخ ، وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا ... «٢»

الآية ، فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر متجدد النزول ، قد أتاهم من جهته تعالى ، بموجب رحمته الواسعة.

وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ بعد ما سمعوها على التفصيل ، قصّة بعد قصة ، ليتدبروا فيها ، ويعتبروا بما فى كل واحدة من الدواعي إلى الإيمان ، والزجر عن الكفر والطغيان ، وبأن يتأملوا فى شأن الآيات الكريمة ، الناطقة بتلك القصص ، على ما هى عليه ، مع علمهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسمع شيئا من ذلك من أحد أصلا ، فلم يفعلوا شيئا من ذلك ، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. وباللّه التوفيق.

الإشارة : كما أمر اللّه تعالى بوفاء المكيال ، أمر بالوفاء فى الأعمال ، ووفاؤها : إتقانها وإخلاصها ، وتخليصها من شوائب النقص ، فى الظاهر والباطن. وكما أمر بالعدل فى الميزان الحسى بقوله : وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، أمر بالعدل فى الميزان المعنوي ، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي ، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به ، لا يخرجه حتى يزنه بميزان الشرع ، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان ، أو غيّره ، وإن كان فيه ضرر بادر إلى محوه من قلبه ، قبل أن يصيرهما أو عزما. فيعسر رده. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر شواهد حقيّة القرآن ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ١٩٢ الى ٢٠٣]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦)
أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٢٠١)
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣)

---

(١) الآية ٣ من هذه السورة.

(٢) الآيتان ٥ – ٦.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦١

قلت : «آية» : خبر «كان» ، و«أن يعلمه» : اسمها ، ومن قرأ «آية» بالرفع فآية اسمها ، وإنَّ ... إلخ : خبر. أو :

«كان» : تامة ، و«آية» : فاعل ، و«أن يعلمه» : بدل منه.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّهُ أي : القرآن المشتمل على القصص المتقدمة ، وكأنه تعالى عاد إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر ، ليتناسب المفتتح والمختتم ، أي : وإن القرآن الكريم لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ أي : منزل من جهته. ووصفه تعالى بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام ربوبيته للعالمين ورأفته للكل.

نَزَلَ بِهِ أي : أنزله الرُّوحُ الْأَمِينُ أي : جبريل عليه السّلام ، لأنه أمين على الوحى الذي فيه روح القلوب ، ومن قرأ بالتشديد : فالفاعل هو اللّه ، والروح : مفعول به ، أي : جعل اللّه تعالى الروح الأمين نازلا به. والباء للتعدية ، نزل به عَلى قَلْبِكَ ، أي : حفظك وفهمك إياه ، وأثبته فى قلبك إثبات ما لا ينسى ، كقوله : سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى «١».

لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بما فيه من العقوبات الهائلة والمواعظ الزاجرة ، بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ بلغة قريش وجرهم ، فصيح بليغ ، والباء : إما متعلق بمنذرين ، أي : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل – عليهم السلام – أو : بنزل ، أي : نزله بلسان عربى لتنذر به ، لأنه لو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه ، ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به. وهذا أحسن لعمومه أي : لتكون من جملة من أنذر قبلك ، كنوح وإبراهيم وموسى ، وغيرهم من الرسل ، عربيين أو عجمين ،

وأشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين : ما أنذره إبراهيم لانتمائهم إليه ، وادعائهم أنهم على ملته.
وَإِنَّهُ أي : القرآن لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ يعنى : أنه مذكور فى سائر الكتب السماوية. وقيل : ثبت فيها معناه ، فإن أحكامه التي لا تحتمل النسخ والتبديل ، بحسب تبدل الأعصار ، من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات

---

(١) من الآية ٦ من سورة الأعلى.

والصفات مسطورة فيها ، وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص. قال النسفي : وفيه دليل على أن القرآن إذا ترجم عنه بغير العربية بقي قرآنا ، ففيه دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة. هـ. وهو حنفى المذهب ، وأما مذهب مالك : فلا.
أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أي : أغفلوا ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين حقا ، أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ ، كعبد اللّه بن سلام ، وغيره ، لوجود ذكره فى التوراة. قال تعالى : وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ «١». والمعنى : أو لم يكفهم دليلا على كون القرآن من عند اللّه علم أحبار بنى إسرائيل به ، ومعرفتهم له ، كما يعرفون أبناءهم لموافقته لما عندهم فى كثير من القصص والأخبار ، حتى إن سورة يوسف مذكورة فى التوراة بمعنى واحد ، وترتيب واحد ، وما اختلف مع القرآن فيها إلا فى كلمة واحدة :
«وجاءوا على قميصه بدم كذب» عندهم فى التوراة : وجاءوا على قميصه بدم جدى. وكذا سورة طه : جلّها فى التوراة. وقد تقدم الحديث : «أوتيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى» «٢». وقد فسر بعض علماء هذه الأمة القرآن العظيم كله بالكتب المتقدمة ، ينقل فى كل آية ما يوافقها من الكتب السماوية.
ثم قال تعالى : وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ أي : ولو نزلناه كما هو بنظمه الرائق على بعض من لا يفهم العربية ، ولا يقدر على التكلم بها ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ قراءة صحيحة ، خارقد للعادة ، ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم ، وشدة شكيمتهم ، قال النسفي : والمعنى : إنّا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربىّ مبين ، ففهموه ، وعرفوا فصاحته وأنّه معجز ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على البشارة بإنزاله ، وصفته فى كتبهم ، وقد تضمّنت معانيه وقصصه ، وصح بذلك أنها من عند اللّه ، وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به ، وسمّوه شعرا

تارة ، وسحرا أخرى. ولو نزلناه على بعض الأعاجم ، الذي لا يحسن العربية ، فضلا أن يقدر على نظم مثله ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ هكذا معجزا ، لكفروا به ، ولتمحّلوا لجحودهم عذرا ، ولسموه : سحرا. هـ.

والأعجمين : جمع الأعجمى ، فإن أفعل ، إذا كان للتفضيل ، يجمع جمع سلامة إذا لم يكن معناه للتفضيل كأحمر. وأصل الأعجمين : الأعجميين ، فحذفت ياؤه ، وقيل : جمع أعجم ، فلا حذف.

كَذلِكَ سَلَكْناهُ أي : أدخلنا التكذيب والكفر ، وهو مدلول قوله : ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ، فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ : الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه. يعنى : مثل هذا السّلك الغريب سلكناه فى

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة القصص.

(٢) راجع صدر تفسير هذه السورة.

قلوبهم وقررناه فيها ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه ، من التكذيب والإصرار عليه ، وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد خيرها وشرها.

وقوله : لا يُؤْمِنُونَ : توضيح وتقرير لما قبله. ويجوز أن يكون حالا ، أي : سلكناه فيها غير مؤمنين به ، أو :

مثل ذلك السلك البديع سلكناه ، أي : أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، ففهموا معانيه ، وعرفوا فصاحته وبلاغته ، وأنه خارج عن القوة البشرية ، من حيث النّظم المعجز والأخبار الغيبية. وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتاب على اتفاقه لما فى أيديهم من الكتب السماوية. ومع ذلك لا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، ولا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان ، بل يستمرون على ما هم عليه ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ الملجئ إلى الإيمان ، حين لا ينفعهم الإيمان ، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فجأة فى الدنيا والآخرة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بإتيانه ، فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ مؤخّرون ساعة. قالوه تحسّرا على ما فات من الإيمان ، وتمنيا للإمهال لتلافى ما فرضوه.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : إذا تطهر القلب من الأكدار والأغيار ، وملئ بالمعارف والأسرار ، كان مهبطا لوحى الإلهام ووحي الإعلام ، ومحلا لتنزل الملائكة الكرام ، إذ كل ما أعطى للرسول كان لوارثه الحقيق منه شرب ونصيب ليكون من الواعظين بلسان عربى مبين ، يفصح عن جواهر الحقائق ، ويواقيت العلوم ، وما

ينطق به من العلوم يكون موافقا لما فى زبر الأولين ، وإن كان أميا لأن علوم الأذواق لا تختلف. أو لم يكن لهم آية على ولايته أن يعلمه علماء أهل فنه من المحققين.

وقال الورتجبي على هذه الآية : أخبر اللّه سبحانه أن قلب محمد صلى اللّه عليه وسلّم محل نزول كلامه الأزلى لأنه مصفى من جميع الحدثان ، بتجلى مشاهدة الرحمن ، فكان قلبه – عليه الصلاة والسلام – صدف لالئ خطاب الحق ، يسبح فى بحار الكرم ، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة ، وذلك سر عجيب وعلم غريب لأنه يجمع كلام الحق وما اتصل به ، وكلامه لم ينفصل عنه ، وكيف تفارق الصفات الذات ، لكن أبقى فى قلبه ظاهره وعلمه وسره ، فجبريل – عليه السّلام – فى البين : واسطة لجهة الحرمة ، وذكر ذلك بقوله : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ ... لأن القلب معدن الإلهام والوحى والكلام والرؤية والعرفان ، به يحفظ الكلام. وفائدة ذلك : الإعلام بسر وجود الإنسان ، وأنه ليس شىء يليق بالخطاب ونزول الأنباء إلا قلبه ، وكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق ، ولا يرى جمال الحق. قال أبو بكر بن طاهر : ما أنزله على جبريل جعله محلا للإنذار ، لا التحقيق ، والحقيقة هو ما تلقفه من الحق ، فلم يخبر عنه ، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه. وما أنزله جبريل جعله للخلق ، فقال : لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بما نزل به جبريل على قلبك المتحقق ،

(١٦٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦٤

فإنك متحقق بما كافحناك به ، وخاطبناك على مقام لو شاهدك فيه جبريل لاحترق. هـ. على تصحيف فى النسخة.

وبالله التوفيق.

ثم هددهم بنزول العذاب ، فقال :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢٠٤ الى ٢٠٩]

أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (٢٠٩)

يقول الحق جل جلاله توبيخا لمن اقترح نزول العذاب ، كقولهم : فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ «١» : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ مع كونهم لا يطيقونه إذا نزل بهم؟ وتقديم الجار للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ هو كون المستعجل به عذابه ، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

أَفَرَأَيْتَ أي : أخبرنى. ولما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاع استعمال «أرأيت» فى معنى أخبرنى. والخطاب لكل من يسمع ، أي : أخبرنى أيها السامع : إِنْ مَتَّعْناهُمْ إن متعنا هؤلاء الكفرة سِنِينَ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعاش ، ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ من العذاب ، ما أَغْنى عَنْهُمْ أي : أىّ شىء ، أو أىّ إغناء أغنى عنهم ما كانُوا يُمَتَّعُونَ أي : كونهم متمتعين ذلك التمتع المديد ، أىّ شىء أغنى فى دفع العذاب ، و(ما) : مصدرية ، أو : ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ، حذف عائدها ، وأيا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي. وقيل : (ما) : نافية ، أي : لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب. والأول أرجح.

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ من القرى المهلكة ، إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ قد أنذروا أهلها لتقوم الحجة عليهم ، ذِكْرى أي : تذكرة ، وهو مصدر منذرون لأن أنذر وذكر متقاربان ، كأنه قيل : لها مذكرون تذكرة. أو مفعول له ، أي : ينذرونهم لأجل التذكرة والموعظة ، أو خبر ، أي : هذه ذكرى ، أو يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له ، والمعنى : وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة ، بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصون مثل عصيانهم ، وَما كُنَّا ظالِمِينَ فنهلك قوما غير ظالمين ، أو قبل

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

إنذارهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم إذ لا يجب عليه تعالى شيء – كما تقرر من قاعدة أهل السنة – لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، وتحقيقا لكمال عدله. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقول الحق جل جلاله ، فى جانب أهل البطالة والغفلة : أفرأيت إن متعناهم سنين بالأموال والنساء والبنين ، فاشتغلوا بجمع الأموال والدثور ، وبناء الغرف وتشييد القصور ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من الموت ، والرحيل من الأوطان ، ومفارقة الأحباب والعشائر والإخوان ، أىّ شىء أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون به ، من لذيذ المآكل والمشارب ، ومفاخر الملابس والمراكب ، هيهات هيهات ، قد انقطعت اللذات ، وفنيت الشهوات ، وما بقي إلا الحسرات ، فتأمل أيها العبد فيما مضى من عمرك ، فما بقي فى يدك منه إلا ما كان فى طاعة مولاك ، من ذكر ، أو تلاوة ، أو صلاة ، أو صيام ، أو علم نافع ، أو تعليم ، أو فكرة ، أو شهود ، وما سوى ذلك بطالة وخسران ، فالوقت الذي تصرفه فى طاعة

مولاك ذخائره موجودة ، وكنوز مذخورة ، والوقت الذي تصرفه فى هوى نفسك ضائع ، تجد حسرته يوم القيامة ، ففى الحديث : «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مضت لهم ، لم يذكروا اللّه تعالى فيها» «١» قال يحيى بن معاذ : أشد الناس عذابا يوم القيامة من اغتر بحياته والتذّ بمراداته ، وسكن إلى مألوفاته ، واللّه تعالى يقول : أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ... الآية. وعن ميمون بن مهران : أنه لقى الحسن فى الطواف ، وكان يتمنى لقاءه ، فقال له : عظنى ، فلم يزده على تلاوة هذه الآية ، فقال : لقد وعظت فأبلغت. وعن عمر ابن عبد العزيز رضي اللّه عنه : أنه كان يقرؤها عند جلوسه ليحكم بين الناس. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم تمم قوله : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، بقوله :

[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢١٠ الى ٢١٣]

وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (٢١٠) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)

يقول الحق جل جلاله : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ بالقرآن ، الشَّياطِينُ ، ردا لما يزعمه الكفرة من أنه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق فيه ، ببيان أنه نزل به الروح الأمين. وَما يَنْبَغِي لَهُمْ أي : وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ، وَما يَسْتَطِيعُونَ إنزاله أصلا ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ أي : عن استراقة السمع من الملائكة لَمَعْزُولُونَ لممنوعون بالشهب ، أو : لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى قبول الاستعداد لفيضان أنوار الحق ، والانتعاش بأنوار العلوم الربانية والمعارفالقدسية لأن نفوس الشياطين خبيثة

---

(١) أخرجه البيهقي فى الشعب (٥١٣) عن معاذ بن جبل ، وعزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٧٧٠١) للطبرانى والبيهقي عن معاذ ، وحسّنه.

ظلمانية شريرة ، ليست مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه ، من فنون الشرور ، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم ، المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية ، التي لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة الكرام – عليهم السلام؟.

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ كما هو شأن الأنفس الخبيثة الشيطانية ، فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ، تهديد لغيره على سبيل التعريض ، وتحريك له على زيادة الإخلاص ، وتنبيه لسائر المكلفين على أن الإشراك بلغ من

القبح والسوء ، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه ، فكيف بمن عداه. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : وحي الإلهام الذي يتنزل على القلوب الصافية من الأغيار ، كوحى الأحكام ، ما تتنزل به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون لأنه ممنوعون من قلوب العارفين لما احتفت به من الأنوار ، وما صانها من الأسرار ، أعنى أنوار التوحيد وأسرار التفريد. وقال فى لطائف المنن : إذا كان الحق تعالى حرس السماء من الشياطين بالشهب ، فقلوب أوليائه أولى بأن يحرسها من الأغيار. هـ. بالمعنى.
فلا تدع مع اللّه إلها آخر ، وهو ما سوى اللّه ، فتكون من المعذبين بوساوس الشياطين والخواطر والشكوك لأن القلب إذا مال إلى غير اللّه سلط اللّه عليه الشيطان ، فيكون ذلك القلب جرابا للشيطان ، يحشو فيه ما يشاء. والعياذ باللّه.
ثم أمر نبيه بالإنذار والتذكير ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢١٤ الى ٢٢٠]
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)
يقول الحق جل جلاله : وَأَنْذِرْ يا محمد عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، إنما خصهم بالذكر لئلا يتكلوا على النسب ، فيدعوا ما يجب عليهم ، لأن من الواجبات ما لا يشفع فيها ، بقوله فى تارك الزكاة وقد استغاث به : «لا أملك لك من اللّه شيئا» ، وفى الغالّ كذلك. وقيل : إنما خصهم لنفى التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته ، وليعلموا أنه لا يغنى عنهم من اللّه شيئا إذ النجاة فى اتباعه ، لا فى قربه منهم.
ولما نزلت صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم الصّفا ، ونادى الأقرب فالأقرب ، وقال : «يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، يا عباس - عم النبي صلى اللّه عليه وسلم - يا صفيّة - عمّة النبي صلى اللّه عليه وسلم لا أملك لكم من اللّه شيئا» «١». وقال ابن عباس

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (تفسير سورة الشعراء ، باب : وأنذر عشريتك الأقربين ح ٤٧٧١) ، ومسلم فى (الإيمان ، باب قوله تعالى :
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ، ١/ ١٩٢ ، ح ٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

رضي اللّه عنه : صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم الصّفا ، ونادى : «يا صباحاه» : فاجتمع الناس ،

فقال صلى اللّه عليه وسلم : «يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، إن أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى؟ قالوا : نعم. قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. فقال أبو لهب : تبّا لك سائر اليوم ، ما جمعتنا إلا لهذا»؟ فنزلت : تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ «١».

ثم قال : وَاخْفِضْ جَناحَكَ أي : وألن جانبك وتواضع ، وأصله : أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض الجناح مثلا فى التواضع ولين الجانب.

ويكون ذلك التواضع لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من قرابتك وغيرهم. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ أي : أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ، ومن أعمالهم من الشرك وغيره.

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ أي : على الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ، فإنه يكفيك شر من يعاديك. الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ

للتهجد ، وَيرى تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ فى المصلين.

أتبع كونه رحيما برسوله ما هو من أسباب الرحمة ، وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل ، من قيامه للتهجد ، وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجّدين ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون. وقيل : معناه : ويراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ، وتقلبك فى الساجدين : تصرفه فيما بينهم ، بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل :

أنه سأل أبا حنيفة : هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن؟ فقال : لا يحضرنى ، فتلا له هذه الآية.

وقيل : تقلبه فى أصلاب الرجال. وروى عنه صلى اللّه عليه وسلم فى الآية أنه قال : «من نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبيا» «٢».

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقول ، الْعَلِيمُ بما تنويه وتعمله. هوّن عليه مشاقّ العبادة ، حيث أخبره برؤيته له ، إذ لا مشقّة على من يعلم أنه يعمل بمرأى من مولاه ، وهو كقوله فى الحديث القدسي : «بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلى». واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ينبغى لمن أهّل للوعظ والتذكير أن يبدأ بالأقرب فالأقرب ، ولو علم أنه لا ينتفع به إلا النزر القليل.

فمن تبعه على مذهبه فليلن له جانبه وليتواضع له ، ومن أعرض عنه واشتغل بهواه فليتبرأ من فعله ، ولا ينساه من نصحه ، ولذلك قال تعالى : فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ، ولم يقل : «منكم» ، وهذا مذهب الجمهور ،

---

(١) أخرجه البخاري فى الموضع السابق ذكره (ح ٤٧٧٠) و(تفسير سورة «تبت يدا أبى لهب وتب»)

، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١/ ١٩٣ - ١٩٤ ح ٣٥٥).
(٢) انظر تفسير الطبري (١٩٠/ ١٢٣ - ١٢٤) وتفسير البغوي (٦/ ١٣٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦٨
وأن الأخ إذا زلّ إنما يبغض عمله فقط. وعن بعض الصحابة - وقد قيل له فى أخيه ، فقال : إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخى ، وذكر مثل ذلك عن أبى الدرداء. وأن الأخ فى اللّه لا يبغض لزلته ، ولا يترك لشيء من الأشياء ، وإنما يبغض عمله ، ووافقه على ذلك سلمان ، وتابعهما عمر ، وخالف فى ذلك أبو ذر ، فقال : إذا وقعت المخالفة ، وانقلب عما كان عليه ، فأبغضه من حيث أحببته.
قال صاحب القوت : وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم ، وهذا من عزائمه وشدائده. هـ. وهذا فى المؤمن بدليل قول أبى الدرداء : الأخ فى اللّه لا يبغض لزلة. وأما الكافر فصريح آياته : إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ «١» ، ونحوها. وحديث ابن عمر وتبرئه من نفاة القدر - كما فى مسلم - موجب للبراءة ، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع. وذكر فى الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره بظلم ، أو غصب ، أو غيبة ، أو نميمة ، أو شهادة زور لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق. هـ من الحاشية.
قوله تعالى : وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ، قيل : التوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ، ويقدر على نفعه وضره ، وهو اللّه وحده ، والمتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية. وقال الجنيد رضي اللّه عنه : التوكل أن تقبل بالكلية على ربك ، وتعرض بالكلية عمن دونه فإنّ حاجتك إنما هى إليه فى الدارين. هـ.
قال القشيري : وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ من أصحابك ، ويقال : تقلبك فى أصلاب آبائك من المسلمين ، الذين عرفوا اللّه ، فسجدوا له ، دون من لم يعرفه. هـ. وفى القوت : قيل : وتقلبك فى أصلاب الأنبياء - عليهم السلام ، يقلبك فى صلب نبى بعد نبى ، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل ، وروينا معنى ذلك عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، والحاصل : أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين فى الجملة ، ولا يقتضى كل فرد من الأفراد. هـ.
ثم كمل قوله : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ، فقال :
[سورة الشعراء (٢٦) : الآيات ٢٢١ الى ٢٢٧]
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

---

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٦٩

قلت : «أىّ منقلب» : مفعول مطلق لينقلبون ، والأصل : ينقلبون أىّ انقلاب ، وليست «أيا» : مفعول «يعلم» لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله. وجملة : «ينقلبون» : معلّق عنها العامل ، فهى فى محل نصب على قاعدة التعليق ، فإنه فى اللفظ دون المحل.

يقول الحق جل جلاله : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ أي : أخبركم أيها المشركون عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ ، ودخل حرف الجار على «من» الاستفهامية لأنها ليست للاستفهام بالأصالة. ثم أخبرهم ، فقال : تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ : كثير الإفك ، وهو الكذب ، أَثِيمٍ كثير الإثم ، وهم الكهنة والمتنبئة ، كشق وسطيح ومسيلمة.

وحيث كانت حالة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منزهة أن يحوم حولها شىء من ذلك ، اتضح استحالة تنزلهم عليه صلى اللّه عليه وسلم.

يُلْقُونَ السَّمْعَ وهم الشياطين ، كانوا ، قبل أن يحجبوا بالرجم ، يلقون أسماعهم إلى الملأ الأعلى ، فيختطفون بعض ما يتكلمون به ، مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم. وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ فيما يوحون به إليهم لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا. وفى الحديث : «إنهم يخلطون مع ما سمعوا مائة كذبة» «١» ، فلذلك يخطئون ويصيبون ، وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع ، أي : المسموع من الملائكة. وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين ، ثم يبلغون ما يسمعون منهم إلى الناس ، وَأَكْثَرُهُمْ أي : الأفّاكون كاذِبُونَ :

مفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم. والأفّاك : الذي يكثر الإفك ، ولا يدلّ على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك ، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكيه عن الجنّة.

ولما ذكر الكهنة ذكر الشعراء وحالهم لينبه على بعد كلامهم من كلام القرآن ، فينتفى كونه كهانة وشعرا ، كما قيل فيه ، فقال : وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ : مبتدأ وخبر ، أي : لا يتبعهم على باطلهم إلا الغاوون ، فإنهم يصغون إلى باطلهم وكذبهم ، وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب ، ومدح من لا يستحق المدح ، وهجاء من لا يستحق الهجو ، ولا يستحسن ذلك منهم إلا الْغاوُونَ ، أي : السفهاء ، أو

الضالون عن طريق الرشد ، الحائرون فيما يفعلون ويذرون ، لا يستمرون على وتيرة واحدة فيما يقولون ويفعلون ، بخلاف غيرهم من أهل الرشد ، المهتدون إلى طريق الحق ، الثابتين عليه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الطب ، باب الكهانة ، ح ٥٧٦٢) وفى (التوحيد ، باب قراءة الفاجر والمنافق ، ح ٧٥٦١) ، ومسلم فى (السلام ، باب تحريم الكهانة ، ٤/ ١٧٥٠ ، ح ٢٢٢٨) ، عن السيدة عائشة ، ولفظه : «... تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنىّ ، فيقرها فى أذن وليّه ، فيخلطون معها مائة كذبة».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٠

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ أي : الشعراء فِي كُلِّ وادٍ من الكلام يَهِيمُونَ ، أو : فى كل فن من الإفك يتحدثون ، أو : فى كل لغو وباطل يخوضون. والهائم : الذاهب على وجهه لا مقصد له ، وهو تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول ، وهو استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص به رؤية راء دون الآخر ، أي : ألم تر أن الشعراء فى كل واد من أودية القيل والقال ، وفى كل شعب من الوهم والخيال وفى كل مسلك من مسالك الغى والضلال ، يهيمون.

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ من الأفاعيل ، غير مبالين بما يستتبعه من اللوم ، فكيف يتوهم أن ينتظم فى سلكهم من تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبة الاتصاف بشىء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة ، والأخلاق الحميدة ، مستقرا على المنهاج القويم ، مستمرا على الصراط المستقيم ، ناطقا بكل أمر رشيد ، داعيا إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيدا بمعجزة قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون من الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاخرة ، مستقل بنظم رائق ، أعجز كل منطيق ماهر ، وبكت كل مفلق ساحر.

هذا وقد قيل فى تنزيهه صلى اللّه عليه وسلم عن أن يكون من الشعراء : أن أتباع الشعراء الغاوون ، وأتباع محمد صلى اللّه عليه وسلم ليسوا كذلك ، ولا ريب فى أن تعليل عدم كونه صلى اللّه عليه وسلم منهم بكون أتباعه صلى اللّه عليه وسلم غير غاوين مما لا يليق بشأنه العلى. هـ.

قاله أبو السعود.

ثم استثنى الشعراء المؤمنين ، فقال : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كعبد اللّه بن رواحة ، وحسّان ، وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك. وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً أي : كان ذكر اللّه وتلاوة القرآن أغلب عليهم من

الشعر ، وإذا قالوا الشعر قالوا فى توحيد اللّه والثناء عليه ، والحكمة والموعظة ، والزهد والأدب ، ومدح الرسول صلى اللّه عليه وسلم والأولياء.

وأحق الخلق بالهجاء من كذّب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهجاه. وعن كعب بن مالك : أن رسول صلى اللّه عليه وسلم قال : «اهجهم ، فو الذي نفسى بيده لهو أشدّ عليهم من رشق النّبل» «١» ، وكان يقول لحسّان : «قل ، وروح القدس معك» «٢».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فالمسند (٣/ ٤٥٦ ، ٤٦٠) ، والبيهقي فى السنن (١٠/ ٢٣٩) ، وعبد الرزاق فى المصنف (كتاب الجامع ، باب الشعر والرجز ١١/ ٢٦٣) ، وصححه ابن حبّان (موارد الظمآن/ ٤٩٤) ولفظه : أنه قال للنبى صلى اللّه عليه وسلم : إن اللّه قد أنزل فى الشعر ما أنزل ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» ، وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضل حسان بن ثابت ، ٤/ ١٩٣٥ ، ح ٢٤٩٠) ، من حديث السيدة عائشة : «اهجوا قريشا فإنه أشد عليهم من رشق النبال».

(٢) أخرجه البخاري فى (المغازي ، مرجع النبي محمد من الأحزاب ، ح ١٢٣ ٤ ، ٤١٢٤). ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان ابن ثابت رضي اللّه عنه ، ٤/ ١٩٣٣ ، ح ٢٤٨٦). من حديث البراء بن عازب. ولفظه : «اهجهم ، أو هاجهم ، وجبريل معك». [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧١

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا أي : ردوا على المشركين ، الذين هجوا النبي صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين. وروى أنه لما نزلت الآية : جاء حسان ، وكعب بن مالك ، وعبد اللّه بن رواحة ، يبكون ، فقالوا : يا رسول اللّه : أنزل اللّه تعالى هذه الآية ، وهو يعلم أنا شعراء؟ فقال : «اقرءوا ما بعدها : إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. هم أنتم وانتصروا ، هم أنتم»».

ومرّ عمر رضي اللّه عنه وحسان رضي اللّه عنه ينشد الشعر فى المسجد ، فلحظ إليه ، فقال : كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبى هريرة ، فقال : أنشدك باللّه ، أسمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : «أجب عنى ، اللهم أيّده بروح القدس» قال :

اللهم نعم «١».

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ أىّ مرجع يرجعون إليه ، وهو تهديد شديد ، ووعيد أكيد لما فى سَيَعْلَمُ من تهويل متعلّقه ، وفى الَّذِينَ ظَلَمُوا من الإطلاق والتعميم. وفى أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ من

الإيهام والتهويل. وتلاها أبو بكر لعمر رضي اللّه عنه حين عهد إليه ، وكان السلف يتواعظون بها.
والمعنى : سيعلم أهل الظلم ما تكون عاقبتهم ، حين يقدمون عليّ ، وأىّ منقلب ينقلبون ، حين يفدون إليّ. اللهم ثبت أقدامنا على المنهاج القويم ، حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.
الإشارة : هل أنبئكم على قلب من تنزّلت الشياطين ، وسكنت فيه ، تنزل على قلب كل أفاك أثيم ، خارب من النور ، محشو بالوسواس والخواطر ، يلقون السمع إلى هرج الدنيا وأخبارها ، وهو سبب فتنتها فإن القلب إذا غاب عن أخبار الدنيا وأهلها ، سكن فيه النور وتأنّس باللّه ، وإذا سكن إلى أخبار الدنيا وأهلها سكنت فيه الظلمة ، وتأنس بالخلق ، وغاب عن الحق. ولذلك قيل : ينبغى للمؤمن أن يكون كالفكرون إذا كان وحده انبسط ، وإذا رأى أحدا أدخل رأسه معه. وأكثر ما يسمع من هرج الدنيا كذب ، وإليه الإشارة بقوله : وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ ، ومن جملة ما يفسد القلب : تولهه بالشعر ، وفى الحديث : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا» «٢». أو كما قال صلى اللّه عليه وسلم ، إلا من كان شعره فى توحيد اللّه ، أو فى الطريق ، كالزهد فى الدنيا ، والترهيب من الركون إليها ، والزجر عن الاغترار بزخارفها الغرارة ، والافتنان بملاذها الفانية ، وغير ذلك ، أو فى مدح النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والمشايخ الموصلين إليه تعالى ، بشرط أن يكون الغالب عليه ذكر اللّه.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الصلاة ، باب الشعر فى المسجد ح ٤٥٣) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضائل حسان ٤/ ١٩٣٢ - ١٩٣٣ ح ٢٤٨٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر اللّه ، والعلم ، والقرآن ح ٦١٥٥) ، ومسلم فى (كتاب الشعر ، ٤/ ١٧٦٩ ، ح ٢٢٥٧) ، من حديث أبى هريرة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٢
وقوله تعالى : وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا ، أي : جاروا على نفوسهم بعد ما جارت عليهم ، وقهروها بعد ما قهرتهم. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ قال ابن عطاء : سيعلم المعرض عنا ما فاته منا. هـ.
وفى الحكم : «ماذا فقد من وجدك ، وما الذي وجد من فقدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا ، كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان ، أم كيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟» «١» وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلى اللّه على

سيدنا محمد وآله.

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (المناجاة/ ٤٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٣

سورة النّمل

مكية. وهى ثلاث وتسعون آية. وقيل : أقل. ومناسبتها لما قبلها : قوله : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ «١» إلى ما قرره من نفى تنزل الشياطين به ، مع ما افتتح به السورة ، من الإشارة إليه بقوله : تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ. ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه ، على عادته ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (١) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥)

يقول الحق جل جلاله : طس أي : يا طاهر يا سيد. قال ابن عباس : «هو اسم من أسماء اللّه تعالى» «٢» ، أقسم به أن هذه السورة آياتها القرآن وكتاب مبين. قلت : ولعلها مختصرة من اسمه «اللطيف والسميع». وقيل : إشارة إلى طهارة سر حبيبه. تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ ، الإشارة إلى نفس السورة ، وما فى معنى الإشارة من معنى البعد ، مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإيذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ، أي : تلك السورة الكريمة التي نتلوها عليك هى آيات القرآن ، المعروف بعلو الشأن. وَآياتُ كِتابٍ عظيم الشأن مُبِينٍ مظهر بما فى تضاعيفه من الحكم ، والأحكام ، وأحوال الآخرة ، أو : مبين : مفرق بين الرشد والغى ، والحلال والحرام ، أو : ظاهر الإعجاز ، على أنه من :

أبان ، بمعنى بان ، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى ، نحو : هذا فعل السخي والجواد.

ونكّر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل : إنما نكّر الكتاب وعرّفه فى الحجر «٣» ، وعرّف القرآن ونكره فى الحجر لأن القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزّل على محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب ، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم ، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف. قاله النسفي.

(١) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٦/ ١٤٣).

(٣) في قوله تعالى : الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ الآية الأولى.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٤

وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ ، وإبانته أنه خطّ فيه ما هو كائن ، لا يساعده إضافة الآيات إليه.

والوصف بالهداية والبشارة في قوله : هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ أي : حال كون تلك الآيات هادية ومبشرة للمؤمنين ، فهما منصوبان على الحال ، من الآيات ، على أنهما مصدران بمعنى الفاعل للمبالغة ، كأنهما نفس الهداية والبشارة ، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة ، أو : خبر ، أي : هي هدى وبشرى للمؤمنين خاصة إذ لا هداية لغيرهم بها.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ يديمون على إقامة فرائضها وسننها ، ويحافظون على خشوعها وإتقانها ، وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ أي : يؤدون زكاة أموالهم ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ حق الإيقان. إما من جملة الموصول ، وإما استئناف ، كأنه قيل : هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان ، لا من عداهم لأن من تحمل مشاق العبادات ، إنما يكون لخوف العقاب ، ورجاء الثواب ، أولا ، ثم عبودية آخرا ، لمن كمل إخلاصه.

ثم ذكر ضدهم ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أي : لا يصدّقون بها ، وبما فيها من الثواب والعقاب ، زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ الخبيثة ، حيث جعلناها مشتهية للطبع ، محبوبة للنفس ، حتى رأوها حسنة ، كقوله : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً «١» ، فَهُمْ يَعْمَهُونَ يترددون في ضلالتهم. كما يكون حال الضال عن الطريق.

أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ أشدّ الناس خسرانا لأنهم لو آمنوا لكانوا من أكرم الناس ، شهداء على جميع الأمم يوم القيامة ، فخسروا ذلك مع خسران ثواب اللّه والنظر إليه. عائذا باللّه من جميع ذلك.

الإشارة : طس : طهر سرك أيها الإنسان ، لتكون من أهل العيان ، طهر سرك من الأغيار لتشاهد سر الأسرار ، وحينئذ تذوق أسرار القرآن والكتاب المبين ، وتصير هداية وبشارة للمؤمنين. فإنّ من قرأ القرآن وعمل به فقد أدرج النبوة بين كتفيه ، كما في الخبر «٢». ثم ذكر من امتلأ قلبه بالأكدار فقال

: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. إلخ ، قال القشيري : أغشيناهم فهم لا يبصرون ، وعمّينا عليهم المسالك ، فهم عن الطريقة المثلى يصدون. أولئك الذين فى ضلالتهم يعمهون ، وفى حيرتهم يترددون. أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ هو أن يجد الألم ولا يجد شهود المبتلى «٣» ، ولو وجدوه تحمل عنهم ثقله ، بخلاف المؤمنين. هـ.

---

(١) من الآية ٨ من سورة فاطر.

(٢) جاء ذلك فيما أخرجه الحاكم ، وصححه ، ووافقه الذهبي (١/ ٥٥٢) عن عبد اللّه بن عمرو – رضى اللّه عنهما – أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه ..» الحديث.

(٣) فى القشيري : يجد الآلام ولا يجد التسلّى.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٥

ثم ذكر الحق تعالى كيفية نزول القرآن ، الذي تقدم ذكره ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : آية ٦]

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

قلت : (تلقّى) : مبنى للمفعول. والفاعل هو اللّه لدلالة ما تقدم عليه ، من قوله : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ.

و(لقى) : يتعدى إلى واحد ، وبالتضعيف إلى اثنين. وكأنه كان غائبا فلقيه ، فالمفعول الأول صار نائبا. و«القرآن» :

مفعول ثان ، أي : وإنك ليلقيك اللّه القرآن.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّكَ يا محمد لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ أي : لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ أي : من عند أىّ حكيم وأىّ عليم ، فالتنكير للتفخيم. وفى تفخيمه تفخيم لشأن القرآن.

وتنصيص على علو طبقته – عليه الصلاة والسلام – فى معرفته ، والإحاطة بما فيه من العلوم والحكم والأسرار ، فإن من تلقى العلوم والحكم من الحكيم العليم يكون علما فى إتقان العلوم والحكم.

والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل ، والإشعار بأن ما فى القرآن من العلوم ، منها ما هو حكمة ، كالعقائد والشرائع ، ومنها ما ليس كذلك ، كالقصص والأخبار الغيبية. قاله أبو السعود.

قال ابن عطية : فى الآية رد على كفار قريش فى قولهم : القرآن من تلقاء محمد. وقال القرطبي : الآية تمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص ، وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه ، ومن آثار ذلك : قصة موسى إذ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ ... إلخ. هـ.

الإشارة : قال أبو بكر بن طاهر : وإنك لتلقّى القرآن من الحق حقيقية ، وإن كنت تأخذه فى الظاهر عن واسطة جبريل عليه السّلام. قال تعالى : الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ «١» هـ. قلت : العارفون باللّه لا يسمعون القرآن إلا من لدن حكيم عليم ، بلا واسطة ، الواسطة محذوفة فى نظرهم ، فهم يسمعون من اللّه إلى اللّه ، ويقرأون باللّه على اللّه ، كما قال القائل : أنا باللّه أنطق ، ومن اللّه أسمع. ومما يحقق لك حذف الواسطة : قوله تعالى : فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ

«٢» وسمعت شيخى البوزيدى رضي اللّه عنه ، يقول : لا يكون الإنسان من الراسخين فى العلم حتى يقرأ كله وهو مجموع فيه ، أي : يقرأ باللّه ويسمعه من اللّه. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآيتان : ١ - ٢ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ٢٨ من سورة القيامة.

ثم شرع فى قصص الأنبياء ، تسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٧ الى ١١]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٨) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١)

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ زوجته ومن معه ، عند مسيره من مدين إلى مصر : إِنِّي آنَسْتُ أي : أبصرت ناراً ، سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ عن حال الطريق التي ضل عنها. والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة ، وتأكيد الوعد. أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ «١» قَبَسٍ أي : شعلة نار مقبوسة ، أي : مأخوذة. ومن نوّن فبدل ، أو صفة ، وعلى القراءتين فالمراد : تعيين المقصود الذي هو القبس ، الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لأن من النار ما ليس بقبس ، كالجمرة. وكلتا العدتين منه عليه السّلام بطريق الظن ، كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه ، من صيغتى الترجي والترديد «٢» لأن الراجي إذا قوى

رجاؤه يقول : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه التخلف. وأتى بأو لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معا لم يعدم واحدة منهما ، إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ولم يدر أنه ظافر بحاجته الكبرى ، وهى عزّ الدنيا والآخرة.

واختلاف الألفاظ فى هاتين السورتين ، والقصة واحدة ، دليل على نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج. قاله النسفي.

لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ تستدفئون بالنار من البرد إذا أصابكم.

فَلَمَّا جاءَها أي : النار التي أبصرها نُودِيَ من جانب الطور أَنْ بُورِكَ ، على أنّ «أن» مفسرة لما فى النداء من معنى القول. أو : بأن بورك ، على أنها مصدرية ، وقيل : مخففة ، ولا ضرر فى فقدان الفصل ب «لا» ،

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف (بشهاب) بالتدوين ، على القطع عن الإضافة ، و«قبس» بدل منه ، أو : صفة له ، بمعنى مقتبس ، أو مقبوس. وقرأ الباقون بغير تنوين ، لبيان النوع. أي من قبس ، كخاتم فضة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٢٣).

(٢) فى قوله تعالى : .. لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً الآية ١٠ من سورة طه.

أو قد ، أو السين ، أو سوف لأن الدعاء يخالف غيره فى كثير من الأحكام ، أي : أنه ، أي : الأمر والشأن بُورِكَ أي : قدّس ، أو : جعل فيه البركة والخير ، مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها أي : من فى مكان النار ، وهم الملائكة ، وَمَنْ حَوْلَها أي : موسى عليه السّلام ، بإنزال الوحى عليه ، الذي فيه خير الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس والحسن : (بورك من فى النار أي : قدّس من فى النار ، وهو اللّه تعالى) «١» أي : نوره وسره ، الذي قامت به الأشياء ، من باب قيام المعاني بالأوانى ، أو : من قيام أسرار الذات بالأشياء ، بمعنى أنه نادى موسى منها وسمع كلامه من جهتها ، ثم نزّه – سبحانه – ذاته المقدسة عن الحلول والاتحاد ، فقال : وَسُبْحانَ اللَّهِ أي :

تنزيها له عن الحلول فى شيء ، وهو رَبِّ الْعالَمِينَ.

ثم فسر نداءه ، فقال : يا مُوسى إِنَّهُ أي : الأمر والشأن أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أو : إنه ، أي : مكلمك ، اللّه العزيز الحكيم ، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يديه من المعجزات. وَأَلْقِ عَصاكَ لتعلم

معجزتها ، فتأنس بها ، وهو عطف على (بورك) أي : نودى أن بورك وأن ألق عصاك. والمعنى : قيل له : بورك من فى النار ، وقيل له : ألق عصاك ، فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ تتحرك يمينا وشمالا ، كَأَنَّها جَانٌّ حية صغيرة وَلَّى موسى مُدْبِراً أي : أدبر عنها ، وجعلها تلى ظهره ، خوفا من وثوب الحية عليه ، وَلَمْ يُعَقِّبْ لم يرجع على عقبيه ، من : عقّب المقاتل : إذا كرّ بعد الفر. والخوف من الشيء المكروه أمر طبيعى ، لا يتخلف ، وليس فى طوق البشر.

قال له تعالى : يا مُوسى لا تَخَفْ من غيرى ، ثقة بي ، أو : لا تخف مطلقا إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ أي : لا يخاف المرسلون عند خطابى إياهم ، فإنهم مستغرقون فى شهود الحق ، لا يخطر ببالهم خوف ولا غيره. وأما فى غير أحوال الوحى فهم أشد الناس خوفا منه سبحانه ، أو : لا يخافون من غيرى ، لأنهم لدىّ فى حفظى ورعايتى. إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أي : لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لا يظلمون قط ، فهو استثناء منقطع ، استدرك به ما عسى يختلج فى العقل ، من نفى الخوف عن كلهم ، مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء – عليهم السلام – كما فرط من آدم ، وموسى ، وداود ، وسليمان – عليهم السلام – فحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى – عليه السّلام – من وكزه القبطىّ.

وسماها ظلما ، كقوله عليه السّلام فى سورة القصص : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ «٢».

---

(١) أخرجه الطبري فى تفسيره (١٩/ ١٣٣). [.....]

(٢) من الآية ١٦ من سورة القصص.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٨

قال فى الحاشية الفاسية : والظاهر فى الاستثناء كونه متصلا ، وأطلق الظلم باعتبار منصب النبوة ، وإشفاقهم مما لا يشفق منه غيرهم ، كما اتفق لموسى فى مدافعة القبطي عن الإسرائيلى ، مع أن إغاثة المظلوم مشروعة عموما ، ولكن لمّا لم يؤذن له خصوصا عد ذلك ظلما وذنبا. وأما ما سرى من القتل فلم يقصده ، وإنما اتفق من غير قصد. هـ.

قوله : ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ أي : أتبع زلته حسنة محلها ، كالتوبة وشبهها ، فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ أقبل توبته ، وأغفر حوبته ، وأرحمه ، فأحقق أمنيّة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : تقدم بعض إشارة الآية فى سورة طه «١». وقوله تعالى : أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ... تقدم قول ابن عباس وغيره : أن المراد بمن فى النار : نور الحق تعالى. قال بعض العلماء : كانت النار نوره تعالى

، وإنما ذكره بلفظ النار لأن موسى حسبه نارا ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر. هـ. ومنه حديث : «حجابه النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كلّ شيء أدركه بصره» «٢» ، أي : حجابه النور الذي تجلى به فى مظاهر خلقه ، فالأوانى حجب للمعانى ، والمعاني هى أنوار الملكوت ، الساترة لأسرار الجبروت ، السارية فى الأشياء.

وقال سعيد بن جبير : (هى النار بعينها) «٣» ، وهى إحدى حجب اللّه تعالى. ثم استدل بالحديث : «حجابه النار» ومعنى كلامه : أن اللّه تعالى احتجت فى مظاهر تجلياته ، وهى كثيرة ، ومن جملتها النار ، فهى إحدى الحجب التي احتجب الحق تعالى بها ، وإليه أشار ابن وفا بقوله :

هو النور المحيط بكل كون ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء فى الذات ، العارفون باللّه ، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه ، وإلا وقع الإنكار على أولياء اللّه بالجهل ، والعياذ باللّه.

---

(١) راجع المجلد الثالث ، ص/ ٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) بعض حديث رواه أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه وأخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب فى قوله صلى اللّه عليه وسلم : «إن اللّه لا ينام» ، ١/ ١٦١ ، ح ١٧٩) ، وأحمد فى المسند (٤/ ٤١٠) بلفظ «حجابه النار ، وجاء فى رواية عند مسلم ، فى الموضع السابق ، وأحمد فى المسند (٤/ ٤٠٥) وابن ماجه فى (المقدمة ، باب فى ما أنكرت الجهمية ١/ ٧٠ - ٧١ ح ١٩٥ - ١٩٦) بلفظ «حجابه النور» (انظر شرح الحديث فى مسلم بشرح النووي ٣/ ١٤ - ١٦)

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١٤٥).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٧٩

ثم ذكر معجزة اليد ، فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١٢ الى ١٤]

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَأَدْخِلْ يَدَكَ يا موسى فِي جَيْبِكَ فى جيب قميصك. والجيب : الفتح فى الثوب لرأس الإنسان. قال الثعلبي : إنما أمره بذلك لأنه كان عليه مدرعة صوف ، لا كم لها. تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ من غير آفة ، كبرص ونحوه ، فِي تِسْعِ آياتٍ أي : هاتان الآيتان فى جملة تسع

آيات ، وهى الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ، والجدب فى بواديهم ، والنقصان فى مزارعهم.

ومن عدّ اليد والعصا من التسع عدّ الأخيرين واحدا ، ولم يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون. وقوله : إِلى فِرْعَوْنَ متعلق بمحذوف ، أي : مرسلا ، أو : ذاهبا إلى فرعون وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ خارجين عن أمر اللّه ، كافرين به.

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا معجزاتنا ، وظهرت على يد موسى ، حال كونها مُبْصِرَةً بيّنة واضحة ، وهى اسم فاعل ، أطلق على المفعول ، إشعارا بأنها لفرط ظهورها كأنها تبصر نفسها مبالغة فى وضوحها ، وإلا فهى مبصرة لمن ينظر ويتفكر فيها. أو : ذات تبصر لأنها تهدى من يتبصر بها. فلما جاءتهم قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ واضح سحريته.

وَجَحَدُوا بِها أي : كذّبوا بها وَقد اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ أي : علمتها علما يقينا ، فالاستيقان : أبلغ من الإيقان. يعنى : أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم. ظُلْماً : حال من ضمير (جحدوا) أي : ظالمين فى ذلك ، ولا ظلم أفحش ممن تيقن أنها آيات من عند اللّه ، وسماها سحرا بيّنا ، وَعُلُوًّا تكبرا وترفعا عن الإيمان بموسى عليه السّلام ، وهو أيضا حال ، أو : علة ، فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وهو الإغراق فى الدنيا ، والإحراق فى الآخرة. نسأل اللّه العافية.

الإشارة : وأدخل يد فكرتك فى جيب قلبك ، تخرج بيضاء شعشعانية ، يستولى شعاعها على وجود بشريتك ، فتنخنس البشرية تحت أنوار المعاني ، ثم يستولى على الوجود بأسره ، فيصير كله نورا ملكوتيا جبروتيا ، متصلا

بالنور الأعظم ، والبحر الطام ، بعد قطع مقامات التوبة ، والتقوى ، والاستقامة ، والإخلاص ، والصدق ، والطمأنينة ، والمراقبة والمحبة ، والمشاهدة ، فيكون حينئذ آية مبصرة واضحة ، من آيات اللّه ، يدلّ على اللّه ، ويدعوا إليه على بصيرة منه. فمن جحدها انخرط فى سلك من قال تعالى فى حقه : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا ... الآية.

ثم ذكر قصة داود وسليمان – عليهما السلام – فقال :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١٥ الى ١٦]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

(١٦)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً أي : أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام ، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما ، كصنعة الدروع ، ومنطق الطير. أو : علما لدنيا. وَقالا أي : كل واحد منهما ، شكرا لما أوتيه من العلم : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا بما آتانا من العلم عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. قال النسفي : وهنا محذوف ، ليصلح عطف الواو عليه ، ولو لا تقدير المحذوف لكان الوجه : الفاء ، كقولك : أعطيته فشكر ، وتقديره : آتيناهما علما ، فعملا به ، وعرفنا حق النعمة فيه ، وقالا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ. والكثير المفضّل عليه : من لم يؤت علما ، أو : من لم يؤت مثل علمهما.

وفيه : أنهما فضلا على كثير ، وفضل عليهما كثير.

وفى الآية دليل على شرف العلم ، وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباده ، وما سماهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم فى الشرف والمنزلة لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله. وفيها : أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا اللّه تعالى على ما أوتوه ، وأن يعتقد العالم أنه إذا فضّل على كثير فقد فضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر رضي اللّه عنه : (كلّ الناس أفقه من عمر). هـ.

والعلماء على قسمين : علماء باللّه وعلماء بأحكام اللّه. فالعلماء باللّه هم العارفون به ، أهل الشهود والعيان. وهم أهل علم الباطن ، أعنى : علم القلوب ، والعلماء بأحكام اللّه هم علماء الشرائع والنوازل. وحيث انتهت درجة العلماء بأحكام اللّه ابتدئت درجة العلماء باللّه. فنهاية علماء الظاهر بداية علماء الباطن لأن علم أهل الظاهر جله ظنى ،

(١٨٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨١

وعلم أهل الباطن عيانى ، ذوقى ، وليس الخبر كالعيان ، مع ما فاقوهم به من المجاهدة ، والمكابدة ، ومقاساة مخالفة النفوس ، وقطع المقامات ، حتى ماتوا موتات ، ثم حييت أرواحهم ، فشاهدوا من الأنوار والأسرار ما تعجز عنه العقول ، وتكلّ عنه النقول.

ثم قال تعالى : وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ ، ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه ، وكانوا تسعة عشر. ووراثته للنبوة : انتقالها إليه بعد أبيه ، وإلا فالنبوة لا تورث. وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ تشهيرا لنعمة اللّه ، واعترافا بمكانها ، ودعاء للناس إلى تصديقه بذكر المعجزة التي هى علم منطق

الطير.

والمنطق : كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلّف ، والمفيد وغير المفيد. وكان سليمان عليه السّلام يفهم عنها كما يفهم بعضها بعضا. يحكى أنه مرّ على بلبل على شجرة ، يحرك رأسه ، ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول؟ قالوا : اللّه ونبيه أعلم ، قال يقول : إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاخته «١» ، فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاووس ، فقال : يقول : كما تدين تدان ، وصاح هدهد ، فقال : يقول : من لا يرحم لا يرحم ، وصاح صرّد «٢» – وهو طائر ضخم الرأس – فقال : يقول : استغفروا اللّه يا مذنبين ، وصاح طيطوى «٣» ، فقال : يقول : كل حى ميت ، وكل جديد بال. وصاح خطّاف «٤» ، فقال : يقول : قدّموا خيرا تجدوه.

وصاح قمرىّ «٥» ، فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى. وصاحت رخمة «٦» ، فقال : إنها تقول سبحان ربى الأعلى ملء أرضه وسمائه.

وفى رواية : هدرت حمامة ، فقال : إنها تقول : سبحان ربى الأعلى – مثل الرخمة – وقال : الغراب يدعو على العشّار. والحدأة تقول : كل شىء هالك إلا وجهه. والقطاة «٧» تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه ، والديك يقول : اذكروا اللّه يا غافلين ، والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت ، آخرك الموت. والعقاب «٨» يقول :

---

(١) الفاختة : نوع من الحمام المطوّق ، إذا مشى توسع فى مشيه ، وباعد بين جناحيه وإبطيه ، وتمايل. انظر اللسان (٥/ ٣٣٦٠ ، مادة/ فخت).

(٢) الصّرد : طائر أبقع ، نصفه أبيض ، ونصفه أسود ، ضخم الرأس والمنقار ، له مخلب يصطاد به العصافير. انظر النهاية (٣/ ٢١ مادة صرد).

(٣) الطيطوى : ضرب القطا ، وقيل : هو طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه.

(٤) الخطاف : العصفور ، وهو الذي تدعوه العامة : عصفور الجنة. وجمعه : خطاطيف. انظر اللسان (٢/ ١٢٠١).

(٥) القمرىّ : نوع من الحمام ، مطوّق ، حسن الصوت.

(٦) الرّخمة : طائر غزير الريش ، أبيض اللون ، مبقّع بسواد ، له منقار طويل. موصوف بالغدر ، والجمع : رخم ورخم. انظر اللسان (٣/ ١٦١٧ ، مادة رخم).

(٧) القطاة : نوع من اليمام ، يؤثر الحياة فى الصحراء.

(٨) العقاب : طائر من الجوارح ، تسميها العرب بالكاسر ، وقيل : العقاب : سيد الطيور ، والنسر عريفها ، ويكلى الذكر : أبا الهيثم. والأنثى : أم الحوار ، وهى حادة البصر.

فى البعد من الناس أنس. والضفدع تقول : سبحان ربى القدوس. والبازي «١» يقول : سبحان ربى وبحمده ، المذكور فى كل مكان. والدراج «٢» يقول : الرحمن على العرش استوى. والقنب «٣» يقول : إلهى العن مبغض آل محمد ، عليه الصلاة والسلام «٤».

وقيل : إن سليمان كان يفهم صوت الحيوانات كلها ، وإنما خصّ الطير لأنه معظم جنده.

ثم قال : وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أي : ما نحتاج إليه. والمراد به كثرة ما أوتى ، كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شىء ، كناية عن كثرة علمه. إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ والإحسان من اللّه تعالى الْمُبِينُ أي :

الواضح ، الذي لا يخفى على أحد ، أو : إن هذا الفضل الذي أوتيته هو الفضل المبين. على أنه عليه السّلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر» أي : أقول هذا القول شكرا ، لا فخرا ، والنون فى (علمنا) و(أوتينا) نون الواحد المطاع ، وكان حينئذ ملكا ، فكلم أهل طاعته على الحالة التي كان عليها ، وليس فيه تكبر ولا فخر لعصمة الأنبياء من ذلك. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أشرف العلوم وأعظمها وأعزها العلم باللّه ، على سبيل الذوق والكشف والوجدان ، ولا يكون إلا من طريق التربية على يد شيخ كامل لأنه إذا حصل هذا العلم أغنى عن العلوم كلها ، وصغرت فى جانبه ، حتى إن صاحب العلم باللّه يعد الاشتغال بطلب علم الرسوم بطالة وانحطاطا ، ومثله كمن عنده قناطير من الفضة ، ثم وجد جبلا من الإكسير ، فهل يلتفت صاحب الإكسير إلى الفضة أو الفلوس؟ لأن من كانت أوقاته كلها مشاهدة ونظرا لوجه الملك ، كيف يلتفت إلى شىء سواه. ولذلك قال الجنيد رضي اللّه عنه : لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم ، الذي نتكلم فيه مع أصحابنا ، لسعيت إليه. هـ. وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن العارف : كنت أعرف أربعة عشر علما ، فلما أدركت علم الحقيقة ، سرطت ذلك كله ، ولم يبق إلا التفسير والحديث ، نتكلم فيه مع أصحابنا. أو قريبا من هذا الكلام. وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن المجذوب رضي اللّه عنه :

أقارئين علم التوحيد هنا البحور إلىّ تنبى
هذا مقام أهل التجريد الواقفين مع ربى

وهذا أمر بيّن عند أهل هذا الفن ، وقال الورتجبي : العلم علمان : علم البيان وعلم العيان. علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية ، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية. ثم قال : فالعلم البياني معروف بين العموم ، والعلم

---

(١) البازي : ضرب من الصقور ، وهو أشد الجوارح تكبرا ، وأضيقها خلقا ، ويؤخذ للصيد.

(٢) الدرّاج : طائر جميل المنظر ملون الريش. [.....]
(٣) القنبر : صرب من الطبر. انظر اللسان (٥/ ٣٥١٠ ، مادة : قبر).
(٤) ذكر نحوه البغوي فى تفسيره (٦/ ١٤٨) عن كعب. وقال محققه ، فى الحاشية : وهذه التفصيلات فى كلام الطير متلقاة من أهل الكتاب ، كرواية كعب هذه ، ولا يتوقف فهم الآية عليها ، وليس فيها نص صحيح ، مرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم.

(١٨٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٣
العيانى مشهور بين الخصوص ، لم يطلع عليه إلا نبى أو وليّ ، لأنه صدر من الحق لأهل شهوده ، من المحبين العارفين ، والموحدين والصديقين ، والأنبياء والمرسلين. انظر بقية كلامه.
وقال أيضا فى قوله : عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ : أفهم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعا هى خطابات من اللّه عز وجل للأنبياء والمرسلين ، والعارفين والصديقين ، يفهمونها من حيث أحوالهم ومقاماتهم.
فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها قطعيا. ويمكن أن يقع ذلك بوحي ، ولكن أكثر فهوم الأنبياء «١» أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم ، بما يقع فى قلوبهم من إلهام اللّه ، لا بأنهم يعرفون لغاتهم بعينها. هـ. قلت : وكذلك الأولياء يفهمون عنها ما يليق بمقاماتهم ، من ألفاظ ، أو أنس ، أو إعلام ، أو غير ذلك. واللّه تعالى أعلم.
ولما أراد سليمان الغزو ، جمع جنوده ، كما قال تعالى :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١٧ الى ١٩]
وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)
قلت : قالَتْ نَمْلَةٌ : التاء للوحدة ، لا للتأنيث. قال الرضى : تكون التاء للفرق بين المذكور والمؤنث ، وتكون لآحاد الجنس ، كنحلة ونحل ، وثمرة وثمر ، وبطة وبط ، ونملة ونمل ، فيجوز أن تكون النملة مذكرا ، والتاء للوحدة ، وأنث الفعل باعتبار تأنيث اللفظ. هـ. مختصرا. و(لا يحطمنكم) : يحتمل أن يكون جوابا للأمر ، أو : نهيا بدلا من الأمر لتقارب المعنى لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده. والضد ينشأ عنه الحطم ، فلا : ناهية ، ومثله الحديث :

«فليمسك بنصالها ، لا يعقر مسلما» «٢». هـ.

---

(١) عبارة الورتجبي ، كما فى عرائس البيان : (و يمكن أن يقع ذلك لولى ، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها ...).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري فى (الفتن ، باب قول النبي صلى اللّه عليه وسلم «من حمل علينا السلاح فليس منا» ح ٧٠٧٤) ومسلم فى (البر والصلة ، باب أمر من مرّ بسلاح ، فى مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها ٤/ ٢٠١٨ - ٢٠١٩ ، ح ٢٦١٤ - ٢٦١٥) من حديث سيدنا جابر رضي اللّه عنه.

(١٨٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٤

يقول الحق جل جلاله : وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ أي : جمع له جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ بمباشرة مخاطبيه ، فإنهم رؤساء مملكته ، وعظماء دولته ، من الثقلين وغيرهم. وتقديم الجن على الإنس للإيذان بكمال قوه ملكه وعزة سلطانه لأن الجن طائفة عاتية ، وقبيلة طاغية ، ماردة ، بعيدة من الحشر والتسخير ، فَهُمْ يُوزَعُونَ أي : يحبس أوائلهم على أواخرهم ، أي : يوقف سلاف العسكر «١» حتى يلحقهم الثواني ، فيكونوا مجتمعين ، لا يختلف منهم أحد ، وذلك لكثرة العظمة والقهرية.

قال قتادة : فكان لكل صنف منهم وزعة «٢». أو : لترتيب الصفوف ، كما هو المعتاد فى العساكر.

والوزع :

المنع ، ومنه قول الحسن البصري ، حين ولى القضاء : (لا بد للحاكم من وزعة) أي : شرط يمنعون الناس من الظلم.

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر ، دون سوق أواخرهم ، مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لأن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع ، وهذا إن لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو. قال محمد بن كعب : كان عسكر سليمان مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة منكوحة ، وسبعمائة سرية. وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وإبريسم ، فرسخا فى فرسخ ، وكان يوضع منبره فى وسطه ، وهو من ذهب ، فيقعد عليه ، وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة ، فتقعد الأنبياء - عليهم السلام - على كراسى الذهب ، والعلماء على كراسى الفضة ، وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها ، حتى لا

تقع عليه الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط ، فتسير به مسيرة شهر ، من الصباح إلى الرواح.
وروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ، ويأمر الرخاء تسيّره ، فأوحى اللّه تعالى إليه ، وهو يسير بين السماء والأرض : إنى زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح فى سمعك. قال وهب : حدثنى أبى : أن سليمان مرّ بحرّاث ، فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فالتفت ونزل إلى الحرّاث ، فقال : إنى سمعت قولك ، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ، لتسبيحة واحدة يقبلها اللّه منك خير لك مما أوتى آل داود. هـ.
حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ أي : فساروا حتى بلغوا وادي النمل ، وهو واد بالشام ، كثير النمل ، قاله مقاتل. أو : بالطائف ، قاله كعب. وقيل : هو واد يسكنه الجن ، والنمل مراكبهم «٣». وعدى الفعل ب «على» لأن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء. ولعلهم أرادوا أن ينزلوا بأعلى الوادي إذ حينئذ يخافهم من فى

---

(١) سلاف العسكر : متقدموهم.
(٢) ذكره البغوي فى التفسير (٦/ ١٤٩).
(٣) انظر التعليق التالي.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٥
الأرض ، لا عند سيرهم فى الهواء. وجواب (إذ) قوله : قالَتْ نَمْلَةٌ ، وكأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرّت منهم ، فصاحت صيحة ، فنبهت بها ما بحضرتها من النمل.
قال كعب : مرّ سليمان عليه السّلام بوادي السدير ، من أودية الطائف ، فأتى على واد النمل ، فقالت نملة ، وهى تمشى ، وكانت عرجاء تتكاوس ، مثل الذئب فى العظم. قال الضحاك : كان اسم تلك النملة طاحية ، وقيل : منذرة ، وقيل :
جرمى. وقال نوف الحميرى : كان نمل وادي سليمان أمثال الذباب «١». وعن قتادة : أنه دخل الكوفة ، فالتف عليه الناس ، فقال : سلونى عما شئتم ، فسأله أبو حنيفة ، وهو شاب ، عن نملة سليمان ، أكان ذكرا أو أنثى؟ فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : بم عرفت؟ فقال : قوله تعالى : قالَتْ نَمْلَةٌ ولو كان ذكرا لقال : قال نملة. هـ.
قلت : وهو غير صحيح لما تقدم عن الرضى «٢».
قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لم يقل : ادخلن لأنه لمّا جعلها قائلة ، والنمل مقولا لهم ،

كما يكون من العقلاء ، أجرى خطابهن مجرى ذوى العقل ، لا يَحْطِمَنَّكُمْ لا يكسرنّكم. والحطم : الكسر ، وهو فى الظاهر نهى لسليمان عن الحطم ، وفى الحقيقة نهى لهم عن البروز والوقوف على طريقة ، نحو : لا أرينك هاهنا ، أي : لا تتعرضوا فيكسرنكم سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ ، وقيل : أراد : لا يحطمنكم جنود سليمان ، فجاء بما هو أبلغ. وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ لا يعلمون بمكانكم ، أي : لو شعروا ما فعلوا. قالت ذلك على وجه العذر ، واصفة سليمان وجنوده بالعدل ، فحمل الريح قولها إلى سليمان على ثلاثة أميال.

روى أن سليمان قال لها : لم حذرت النمل ، أخفت ظلمى؟ أما علمت أنى نبى عدل ، فلم قلت : لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ؟ فقالت : أما سمعت قولى : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، مع أنى لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب ، خشيت أن يتمنينّ ما أعطيت ، ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح ، فقال لها سليمان : عظينى ، فقالت : هل علمت لم سمى أبوك داود؟ قال : لا ، قالت : لأنه داوى حرجه. هل تدرى لم سميت سليمان؟ قال : لا ، قالت : لأنك سليم ، ما ركنت إلى ما أوتيت ، لسلامة صدرك ، وأنى لك أن تلحق أباك. ثم قالت : أتدري لم سخر اللّه لك الريح؟

قال : لا ، قالت : أخبرك اللّه أن الدنيا كلها ريح. قال ابن عباس : ومن هنا «نهى النبي صلى اللّه عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد ، والصّرد ، والنحلة ، والنملة «٣»».

---

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٥٩) : من قال من المفسرين : إن هذا الوادي كان بأرض الشام ، أو بغيره ، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين ، كالذباب ، أو غير ذلك من الأقاويل ، فلا حاصل لها. ثم قال : والغرض : أن سليمان عليه السّلام فهم قولها ، وتبسم ضاحكا من ذلك ، وهذا أمر عظيم جدا.

(٢) راجع الصفحة قبل السابقة.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٣٢) وأبو داود فى (الأدب ، باب فى قتل الذر ، ٥/ ٤١٨ ح ٥٢٦٧) وابن ماجه فى (الصيد ، باب ما ينهى عن قتله ٢/ ١٠٧٤ ح ٣٢٢٤) والدارمي فى (الأضاحى ، باب النهى عن قتل الضفادع والنحلة ٢/ ١٢١ ، ح ١٩٩٩) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٦

فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً ، معجبا مِنْ قَوْلِها ومن حذرها ، واهتدائها لمصالحها ، ونصحها للنمل ، وفرحا بظهور

عدله. والتبسم : ابتداء الضحك ، وأكثر ضحك الأنبياء التبسّم ، أي : فتبسم ابتداء ، ضاحكا انتهاء.
وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ، الإيزاع فى الأصل : الكف ، أي : كفّنى عن كل شيء إلا عن شكر نعمتك ، ويطلق على الإلهام ، أي : ألهمنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ من النبوة والملك والعلم ، وَعَلى والِدَيَّ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد ، وَألهمنى أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ فى بقية عمرى ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ أي : وأدخلنى الجنة برحمتك ، لا بصالح عملى إذ لا يدخل الجنة إلا برحمتك ، كما فى الحديث.
فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ أي : فى جملة أنبيائك المرسلين ، الذين صلحوا لحضرتك. أو : مع عبادك الصالحين.
روى أن النملة أحست بصوت الجنود ، ولم تعلم أنهم فى الهواء ، فأمر سليمان عليه السّلام الريح ، فوقفت لئلا يذعرن ، حتى دخلن مساكنهن ، ثم دعا بالدعوة. قاله النسفي.
الإشارة : من أقبل بكليته على مولاه ، وأطاعه فى كل شيء ، سخرت له الأكوان ، وأطاعته فى كل شيء.
ومن أعرض عن مولاه أعرض عنه كلّ شيء ، وصعب عليه كلّ شيء. «أنت مع الأكون ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك». فإذا سخرت له الأشياء ، وزهد فيها ، وأعرض عنها ، واختار مقام العبودية ، ارتفع قدره ، ولم ينقص منه شيئا ، كحال نبينا – عليه الصلاة والسلام – . ومن سخرت له الأشياء ، ونظر إليها ، انتقص قدره ، وإن كان كريما على اللّه ، ولذلك ورد فى الخبر أن سليمان عليه السّلام : هو آخر من يدخل الجنة من الأنبياء. ذكره فى القوت.
وذكر فيه أيضا : أن سليمان عليه السّلام لبس ذات يوم ثيابا رفيعة ، ثم ركب على سريره ، فحملته الريح ، وسارت به ، فنظر إلى عطفيه نظرة ، فأنزلته إلى الأرض ، فقال لها : لم أنزلتنى ولم آمرك؟ فقالت له : نطيعك إذا أطعت اللّه ، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وتاب ، فحملته. وهذا مما يعتب على المقربين لكبر مقامهم ، فكل نعيم فى الدنيا ينقض فى الآخرة. واللّه تعالى أعلم.
ثم قال تعالى :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٢٠ الى ٢٦]
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٧

يقول الحق جل جلاله : وَتَفَقَّدَ سليمان الطَّيْرَ أي : تعرف أحوال الطير تعرف الملك لمملكته ، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته ، والاهتمام بكل جزء منها ، أو : تفقده لمعرفته بالماء ، أو : لغير ذلك على ما يأتى. فلما تفقده لم ير الهدهد فيما بينها. والتفقد : طلب ما غاب عنك. فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أساتر ستره؟ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ ، و«أم» : بمعنى «بل» ، كأنه قال : مالى لا أراه؟ ثم بدا له أنه غائب ، فأضرب عنه ، وقال : بل هو من الغائبين.

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً ، قيل : كان عذابه للطير : نتفه ريشه وتشميسه ، أو : يجعله مع أضداده فى قفص ، أو : بالتفريق بينه وبين إلفه. وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، ومفارقة الأحباب. أو : نتفه ، وطرحه بين يدى النحل تلدغه ، أو : النمل تأكله. وحلّ له تعذيب الهدهد لينزجر غيره ، ولما سخرت له الحيوانات – ولا يتم التسخير إلا بالتأديب – حلّ له التأديب.

أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ليعتبر به أبناء جنسه ، أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة تبين عذره ، والحلف فى الحقيقة على أحد الأمرين ، على تقدير عدم الثالث. قال بعضهم : وسبب طلبته للهدهد ، لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها. وقيل : كانت الطير تظله ، فأصابته لمعة من الشمس ، فنظر ، فرأى موضع الهدهد خاليا ، فتفقده ، وقيل :

احتاج إلى الماء ، وكان علم ذلك إلى الهدهد ، فتفقده ، فلم يجده ، فتوعده.

والسبب فيه : أن سليمان عليه السّلام لمّا فرغ من بناء بيت المقدس ، عزم على الخروج إلى أرض الحرم ، للحج ، فتجهز للمسير ، وخرج بجنوده – كما تقدم – فبلغ الحرم ، وأقام به ، وكان ينحر كل يوم بمكة خمسة آلاف ناقة ، ويذبح خمسة آلاف ثور ، وعشرين ألف شاة ، قربانا. وقال : إن هذا مكان يخرج منه نبى عزيز ، صفته كذا وكذا ، يعطى النصر على جميع من ناوأه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد فى الحق عنده سواء ، لا تأخذه فى اللّه

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٨

لومة لائم ، دينه دين الحنيفية ، فطوبى لمن أدركه وآمن به ، وبيننا وبين خروجه زهاء ألف عام. ثم قضى نسكه ، وخرج نحو اليمن صباحا ، يؤم سهيلا ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضا حسناء ، تزهو خضرتها ، فأحب النزول بها ليصلى ، ويتغذى ، فطلبوا الماء فلم يجدوه ، وكان

الهدهد دليله على الماء ، كان يرى الماء من تحت الأرض ، كما نرى الماء فى الزجاجة ، فينقر الأرض فتجىء الشياطين يستخرجونه. وبحث فيه القشيري بأن الهدهد متعدد فى عسكره ، إذا فقدوا واحدا بقي آخر ، قال : اللهم إلا أن يكون ذلك الواحد مخصوصا بمعرفة ذلك ، واللّه أعلم. هـ.

قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا الحديث : قال له نافع بن الأزرق : كيف ينظر الماء تحت الأرض ، ولا يبصر الفخ حتى يقع فيه؟ قال ابن عباس : ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر. هـ.

قلت : ونافع هذا هو رأس الخوارج والمعتزلة.

فلما نزل سليمان ، قال الهدهد : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فارتفع نحو السماء ، ونظر طول الدنيا وعرضها ، ونظر يمينا وشمالا ، فرأى بستانا لبلقيس فيه هدهد. وكان اسم هدهد سليمان «يعفور» واسم هدهد اليمن «عنفير».

فقال هدهد اليمن لهدهد سليمان : من أين أقبلت وأين تريد؟ قال : أقبلت من الشام ، مع صاحبى سليمان بن داود ، قال :

ومن سليمان؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح ، فمن أين أنت؟ قال من هذه البلد ، ملكها امرأة ، يقال لها «بلقيس» تحت يديها اثنا عشر ألف قائد ، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فانطلق معه ، ونظر إلى بلقيس وملكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر. وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة ، فلم يجده ، وكان على غير ماء.

قال ابن عباس : فدعا عريف الطير – وهو النسر – فسأله؟ ، فقال : ما أدرى أين هو ، فغضب سليمان وقال :

(لأعذبنه ...) إلخ ، ثم دعا بالعقاب ، سيد الطير ، فقال : علىّ بالهدهد الساعة ، فرفع العقاب نفسه نحو السماء ، حتى التزق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن ، فانقضّ نحوه ، فقال له الهدهد : بحق الحق الذي قوّاك إلا ما رحمتنى ، فقال : ويلك ، إن نبى اللّه حلف أن يعذبك ويذبحك. ثم تلقته النسور والطير فى العسكر ، وقالوا له : لقد توعدك نبىّ اللّه. قال : أو ما استثنى؟ قالت : بلى ، قال : أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ. ثم دخل على سليمان ، فرفع رأسه ، وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض ، تواضعا للّه ولسليمان ، فقال سليمان : أين كنت؟ لأعذبنّك ... فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه ، فمده إليه ، فقال له الهدهد : يا نبى اللّه اذكر وقوفك بين يدى اللّه تعالى ، بمنزلة وقوفى بين يديك ، فارتعد سليمان وعفا عنه «١». وقال عكرمة : إنما صرف سليمان عن ذبح الهدهد لبره بوالديه ، كان يلتقط الطعام ثم يزقه لهما.

---

(١) هذه الأخبار ذكرها البغوي فى تفسيره (٦/ ١٥٤) وغيره من المفسرين. وهى من الأخبار التي لا سند لها.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٨٩

قال تعالى : فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ أي : تفقد مكث سليمان حين تفقد الهدهد ، وأرسل من ورائه غير زمان بعيد ، وهو من الظهر إلى العصر – كما تقدم – أو : فمكث الهدهد فى غيبته غير بعيد ، خوفا من سليمان ، فالضمير إما لسليمان ، أو : للهدهد ، وهو الظاهر ، ويرجحه قراءة : (فتمكث). وفى «مكث» لغتان : الضم والفتح.

ولما قدم من غيبته ، أحضر بين يديه ، على الهيئة المتقدمة ، ثم سأله عن غيبته ، فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ أي : أدركت علما لم تحط به أنت ، ألهم اللّه الهدهد فكافح «١» سليمان بهذا الكلام ، مع ما أوتى من فضل النبوة والعلوم الجمة ، ابتلاء له عليه السّلام فى علمه ، وتنبيها على أن فى أدنى خلقه وأضعفهم من أحاطه اللّه علما بما لم يحط به لتتصاغر إليه نفسه ، ويصغر فى عينه علمه ، فى جانب علم اللّه ، رحمة به ولطفا فى ترك الإعجاب ، الذي هو فتنة العلماء.

ثم قال : وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ – بالصرف – اسما للحىّ ، أو : للأب الأكبر ، وبعدمه اسما للقبيلة. بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، والنبأ : الخبر الذي له شأن. وقوله : مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ من محاسن الكلام ، ويسمى البديع. وقد حسن وبرع لفظا ومعنى ، حيث فسر إبهامه بأبدع تفسير ، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة. وعبّر عما جاء به بالنبإ ، الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير ، ووصفه بما وصفه به. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ هو استئناف لبيان ما جاء به من النبأ ، وتفسير له إثر الإجمال. وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان. وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ، ورث الملك من أربعين أبا. وقيل : كان أبوها – اسمه الهدهاد – ملكا عظيم الشأن ، ملك أرض اليمن كلها ، وأبى أن يتزوج منهم ، فزوجوه امرأة من الجن ، يقال لها «ريحانة» فولدت له بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها.

قال أبو هريرة : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم «كان أحد أبوى بلقيس جنيا» «٢» فمات أبوها ، فاختلف قومه فرقتين ، وملّكوا أمرهم رجلا قائما بسيرته ، حتى فجر بحرم رعيته ، فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها ، فتزوجته ، فسقته الخمر ، فسكر ، فجزت رأسه ، ونصبته على باب دارها فملكوها «٣».

وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تحتاج إليه الملوك ، من العدة والآلة ، وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ : كبير ، قيل : كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا ، وقيل : كان ثمانين ذراعا فى ثمانين ، وطوله فى الهواء : ثمانون. وكان من ذهب وفضة ، مرصعا بأنواع الجواهر ، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ، ودرّ ، وزبرجد ، وعليه سبعة أبيات ، فى كل بيت

(١) كافحه مكافحة وكفاحا : واجهه. انظر اللسان (مادة كفح ٥/ ٣٨٩٧)

(٢) أخرجه الطبري فى التفسير (١٩/ ١٦٩) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ١٩٨) لأبى الشيخ فى العظمة ، وابن عساكر ، وقال ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٠/ ٢١) : هذا حيث غريب ، وفى سنده ضعف.

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ١٥٦). [.....]

باب مغلق. واستصغر الهدهد حالها إلى حال سليمان ، فلذلك عظّم عرشها. وقد أخفى اللّه تعالى ذلك على سليمان لحكمة ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ، ليتحقق ضعف العبودية فى جانب علم الربوبية.

وكانت بلقيس مجوسية ، فلذلك قال : وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : يعبدونها متجاوزين عبادة اللّه. وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ التي هى عبادة الشمس ، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي ، فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ عن سبيل الرشد والصواب ، وهو التوحيد فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ إليه.

ولا يبعد من الهدهد التهدّى إلى معرفة اللّه ، ووجوب السجود له ، وحرمة السجود للشمس ، إلهاما من اللّه له ، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة ، التي لا يكاد العقلاء ، الراجحة العقول ، يهتدون إليها.

وهذا من أسرار الربوبية ، التي سرت فى الأشياء ، فوحّدت اللّه تعالى ، ولهجت بحمده.

أَلَّا يَسْجُدُوا بالتشديد ، أي : فصدّهم عن السبيل لئلا ، فحذف الجار ، أي : لأجل ألا يسجدوا للّه. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة ، أي : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وقرئ : هلا يسجدون. ومن قرأ بالتخفيف «١». فالتقدير عنده : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، فألا للتنبيه ، والمنادى محذوف ، فمن شدّد لم يقف على يَهْتَدُونَ ، ومن خفف وقف ثم استأنف : ألا يا هؤلاء اسجدوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ الشيء المخبوء المستور فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، قال قتادة : خبء السموات : المطر ، وخبء الأرض : النبات. واللفظ أعم من ذلك ، وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ «٢» عطف على «يخرج» إشارة إلى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الإنسانى من الخفايا ، كما يخرج ما فى العالم الكبير من الخبايا.

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الذي هو أول الأجرام وأعظمهما. ووصف الهدهد عرش اللّه بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وفى الخبر : «إن السموات والأرض فى جانب العرش كحلقة فى فلاة» ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من

الملوك. هذا آخر كلام الهدهد. ثم دلهم على الماء فحفروا وشربوا ، وملأوا الركايا ، واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : هدهد كل إنسان نفسه ، فإذا تفقدها فوجدها غائبة عن اللّه ، فى أودية الغفلة ، هدهد بالعذاب الشديد ، وبذبحها بأنواع المخالفة ، حتى تأتيه بحجة واضحة ، تعذر بها ، فإن لم تأت بحجة عذّبها وذبحها ، بإدخالها فى كل ما تكره ويثقل عليها ، فتمكث غير بعيد ، فتأتيه بالعلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، التي لم يحط بها علما قبل ذلك ، وتجيئه بالخبر اليقين ، فى العلم باللّه ، من عين اليقين ، أو حق اليقين ، فتخبره عن أحوال عامة أهل الحجاب ،

---

(١) قرأ أبو جعفر ، والكسائي : (ألا يسجدوا) بالتخفيف. وقرأ الباقون (ألّا) بالتشديد.
(٢) قرأ حفص ، والكسائي : (ما تخفون وما تعلنون) بالتاء على الخطاب ، وقرأ الآخرون بالياء. انظر الإتحاف (٢/ ٣٢٦).

فتقول : إنى وجدت امرأة تملكهم ، وهى نفسهم الأمارة ، وأوتيت من كل شيء تشتهيه وتهواه ، من غير وازع ولا قامع ، ولها عرش عظيم ، وهو سرير الغفلة والانهماك فى حب الدنيا والشهوات. أو : لها تسلط كبير على من ملكته ، وجدتها وقومها يسجدون للسّوى ، ويخضعون للهوى من دون اللّه ، وزيّن لهم الشيطان ذلك ، فصدهم عن طريق الوصول ، فهم لا يهتدون إلى الوصول إلى الحضرة أبدا ما داموا كذلك لأن حضرة ملك الملوك محرمة على من هو لنفسه مملوك. ألا يسجدوا بقلوبهم للّه وحده ، فإنه مطلع على خبايا القلوب والأسرار ، وعلى ما يسرون من الإخلاص ، وما يعلنون من الأعمال ، التي توجب الاختصاص. وباللّه التوفيق.
ولما سمع سليمان كلام الهدهد أرسله بكتابه إلى بلقيس ، كما قال تعالى :
[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٢٧ الى ٣٤]
قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (٢٨) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)
قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (٣٣) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله : قالَ سليمان للهدهد : سَنَنْظُرُ أي : نتأمل فيما أخبرت ، فنعلم أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ ، وهو أبلغ من : أكذبت لأنه إذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا ، لا محالة ، وإذا كان كاذبا اتّهم فيما أخبر به ، فلا يوثق به ، ثم كتب : من عبد اللّه ، سليمان بن داود ، إلى بلقيس ملكة سبأ بسم اللّه الرحمن الرحيم ، السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فلا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين. قال منصور : كان سليمان أبلغ الناس فى كتابه ، وأقلهم كلاما فيه. ثم قرأ : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ... إلخ ، والأنبياء كلهم كذلك ، كانت تكتب جملا ، لا يطيلون ولا يكثرون. وقال ابن جريج : لم يزد سليمان على ما قال اللّه تعالى : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ ... إلخ. ثم طيّبه بالمسك ، وختمه بخاتمه «١» ، وقال للهدهد : اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ

---

(١) ذكره البغوي فى التفسير (٦/ ١٥٨).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ١٩٢

أي : إلى بلقيس وقومها لأنه ذكرهم معها فى قوله : وَجَدْتُها وَقَوْمَها ، وبنى الخطاب على لفظ الجمع لذلك.

ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ أي : تنح عنهم إلى مكان قريب ، بحيث تراهم ولا يرونك ، ليكون ما يقولون بمسمع منك ، فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ أي : ما الذي يردّونه من الجواب ، أو : ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ، ودخل عليها من كوّة ، فطرح الكتاب على نحرها ، وهى راقدة ، وتوارى فى الكوة. وقيل : نقرها ، فانتبهت فزعة ، أو : أتاها والجنود حولها ، فوقف ساعة يرفرف فوق رؤوسهم ، ثم طرح الكتاب فى حجرها ، وكانت قارئة ، فلما رأت الخاتم قالَتْ لأشراف قومها وهى خائفة : يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ ، وصفته بالكرم لكرم مضمونه إذ هو حق ، أو : لأنه من ملك كريم ، أو : لكونه مختوما. قال – عليه الصلاة والسلام – : «كرم الكتاب ختمه» «١» أو : لكونه مصدرا بالتسمية ، أو : لغرابة شأنه ، ووصوله إليها على وجه خرق العادة.

ومضمونه والمكتوب فيه : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، وهذا تبيين لما ألقى إليها ، كأنها لما قالت : أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ قيل لها : ممن هو وما هو؟ فقالت : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ، «إن» : مفسرة ، أي : لا تترفعوا علىّ ولا تتكبروا ، كما يفعل جبابرة الملوك ، وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ : مؤمنين ، أو : منقادين ، وليس فيه الأمر بالإسلام. وقيل : إقامة الحجة على

رسالته لأن إلقاء الكتاب على تلك الصفة معجزة باهرة.

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ، كررت حكاية قولها إيذانا بغاية اعتنائها بما فى حيزه : أَفْتُونِي فِي أَمْرِي أي : أجيبونى فى أمرى ، الذي حزبنى وذكرته لكم ، وعبّرت عن الجواب بالفتوى ، الذي هو الجواب عن الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للأمر ، ورفعا لمحلهم ، بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة. ثم قالت :

ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً من الأمور المتعلقة بالمملكة حَتَّى تَشْهَدُونِ بكسر النون ، ولا يصح الفتح لأنه يحذف للناصب. وأصله : تشهدوننى ، فحذفت الأولى للناصب وبقي نون الوقاية ، أي : تحضروني ، وتشهدوا أنه على صواب ، أي : لا أقطع أمرا إلا بمحضركم. وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، كل واحد على عشرة آلاف.

قالُوا فى جوابها : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ أي : نجدة وشجاعة ، فأرادوا بالقوة : قوة الأجساد والآلات ، وبالبأس : النجدة والبلاء فى الحرب. وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ أي : هو موكل إليك فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ ،

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط (ح ٣٨٧٢) والشهاب القضاعي فى مسنده (ح ٣٩) عن ابن عباس رضي اللّه عنه. وفى سنده السدى الصغير ، متروك. انظر مجمع الزوائد (٨/ ٩٩).

فنحن مطيعون إليك ، فمرينا بأمرك ، نمتثل أمرك ، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب ، لا من أبناء الرأى والمشورة ، وأنت ذات الرأى والتدبير ، فانظرى ماذا تأمرين نتبع رأيك.

فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ، فزيفت رأيهم ، حيث قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً على منهاج المقاتلة والحرب ، أو عنوة وقهرا أَفْسَدُوها بتخريب عمارتها ، وإتلاف ما فيها من الأموال ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً بالقتل والأسر والإجلاء ، وغير ذلك من فنون الإهانة ليستقيم لهم ملكهم وحدهم. ثم قالت : وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ أي : وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير ، لأنها كانت فى بيت المملكة قديما ، أبا عن أب ، فجربت الأمور ، أو : يكون من قول اللّه تعالى ، تصديقا لقولها ، أي : قال اللّه تعالى : وكذلك شأن الملوك إذا غلبوا وقهروا أفسدوا. وأنشدوا فى هذا المعنى :

إنّ الملوك بلاء حيثما حلّوا فلا يكن بك فى أكنافهم ظلّ

ماذا يؤمّل من قوم إذا غضبوا جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا
وإن صدقتهم خالوك تخدعهم واستثقلوك كما يستثقل الكلّ
فاستغن باللّه عن أبوابهم أبدا إنّ الوقوف على أبوابهم ذلّ

ففى صحبة الملوك خطر كبير ، وتعب عظيم ، فمن قوى نوره ، حتى يغلب على ظلمتهم ، بحيث يتصرف فيهم ، ولا يتصرفون فيه ، فلا بأس بمعرفتهم ، إن كان فيه نفع للناس بالشفاعة والنصيحة ، وقد أقيم فى هذا المقام الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، وشيخ شيخنا مولاى العربي الدرقاوى – رضى اللّه عنهما – وكان تلميذاهما الشيخ أبو العباس المرسى ، وشيخنا سيدى محمد البوزيدى الحسنى – رضى اللّه عنهما – يفران من صحبتهم ، أشد الفرار ، وهو أسلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال صاحب الخصوصية لنفسه : سننظر أصدقت فى الخصوصية أم أنت من الكاذبين ، اذهب بما معك من العلم ، وذكّر به عباد اللّه ، وألقه إليهم ، ثم تولّ عنهم ، وانظر ماذا يرجعون ، فإن تأثروا بوعظك ، وانتقش فيهم قولك ، فأنت صادقة فى ثبوت الخصوصية لديك لأن أهل العلم باللّه إذا تكلموا وقع كلامهم فى قلوب العباد ، فحييت به قلوبهم وأرواحهم. ومن لا خصوصية له صدت كلامه الآذان. قالت حين أراد التذكير : يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ فى قلبى كتاب كريم ، وعلم عظيم ، فلا تعلو علىّ وأتونى مسلمين ، منقادين لما آمركم به ، وقالت – لمّا تطهرت من الأكدار ، وتحررت من الأغيار ، وأحدقت بها جنود الأنوار : يا أيها الملأ – تعنى جنود الأنوار – أفتونى فى

أمرى الذي أريد أن أفعله ، ما كنت قاطعة أمرا من الأمور ، التي تتجلى فى القلب ، حتى تشهدون ، وتشهدوا أنه رشد وحق ، قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليك ، حيث تطهرت ، فانظرى ماذا تأمرين لأن النفس إذا تزكت وتخلصت وجب تصديقها فيما تهتم به ، قالت : إن الملوك – أي : الواردات الإلهية التي تأتى من حضرة القهار ، إذا دخلوا قرية ، أي : قلب نفس ، أفسدوا ظاهرها بالتخريب والتعذيب ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، أي : أبدلوا عزها ذلا ، وجاهها خمولا ، وغناها من الدنيا فقرا ، وكذلك يفعلون.

وفى الحكم العطائية : «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك ، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون». فكل وارد نزل بالإنسان ولم يغير عليه عوائده فهو كاذب ، قال فى الحكم : «لا تزكين واردا لم تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الأمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وباللّه التوفيق.

ثم أشارت عليهم بإرسال الهدية لسليمان ، كما قال تعالى :

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٧]

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله فى حكاية بلقيس – وكانت سيسة ، قد سيست وساست ، فقالت لقومها : وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ سليمان وقومه ، بِهَدِيَّةٍ أصانعه بذلك عن ملكى ، وأختبره ، أملك هو أم نبى؟ فَناظِرَةٌ فمنتظرة بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ بأى شىء يرجعون ، بقبولها أم بردها لأنها عرفت عادة الملوك ، وحسن موقع الهدايا عندهم ، فإن كان ملكا قبلها وانصرف. وإن كان نبيا ردها ، ولم يقبل منا إلا أن نتبعه على دينه ، فبعثت خمسمائة غلام ، عليهم ثياب الجواري وحليهن ، راكبين خيلا ، مغشاة بالديباج ، محلّاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجوهر ، وخمسمائة جارية على رماك «١» فى زى الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت ، وحقا فيه دره عذراء ، وخرزة جزعية مثقوبة ، معوجّة الثقب ، وأرسلت رسلا ، وأمّرت عليهم المنذر ابن عمرو ، وكتبت كتابا فيه نسخة الهدية. وقالت فيه : إذ كنت نبيا فميّز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما فى

---

(١) الرماك : جمع رمكة ، وهى أنثى البغال. راجع اللسان (رمك ٣/ ١٧٣٣).

الحقّ ، واثقب الدرّة ثقبا مستويا ، واسلك فى الخرزة خيطا. ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك ، فلا يهولنك منظره ، وإن رأيته لينا لطيفا فهو نبىّ «١».

فأقبل الهدهد ، فأخبر سليمان الخبر كله ، فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة ، وفرشوها فى الميدان بين يديه ، طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطا ، شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر ، فربطوها عن يمين الميدان ويساره ، على اللبنات. وأمر بأولاد الجن – وهم خلق كثير – فأقيموا عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره ، والكراسي من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ ، والإنس صفوفا فراسخ ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك ، فلما دنا القوم ، ونظروا ، بهتوا ، ورأوا الدواب تروث على اللبن ، فتقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا بما

معهم من الهدايا.

ولما وقفوا بين يديه ، نظر إليهم سليمان بوجه طلق ، فأعطوه كتاب الملكة ، فنظر فيه ، فقال : أين الحق؟ فأتى به ، فحرّكه ، وأخبره جبريل عليه السّلام بما فيه. فقال لهم : إن فيه كذا وكذا. ثم أمر بالأرضة فأخذت شعرة ، ونفذت فى الدرّة ، فجعل رزقها فى الشجر. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ، ونفذت فى ثقب الجزعة ، فجعل رزقها فى الفواكه. ودعا بالماء ، وأمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم ، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ، ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه فميزهم بذلك. ثم ردّ الهدية.

ذلك قوله تعالى : فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ أي : جاء رسولها المنذر بن عمرو إليه قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ، توبيخ وإنكار لإمدادهم إياه بالمال ، مع علو شأنه وسعة سلطانه. والتنكير للتحقير ، والخطاب للرسول ومن معه ، أو للرسول والمرسل تغليب للحاضر. فَما آتانِيَ اللَّهُ من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ أي : من المال الذي من جملته ما جئتم به ، فلا حاجة لى إلى هديتكم ، ولا وقع لها عندى ، ولعله عليه السّلام إنما قال لهم هذه المقالة .. إلخ بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحقّ وغيرها ، لا أنه عليه السّلام خاطبهم بها أول ما جاءوه.

ثم قال لهم : بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ. الهدية : اسم للمهدى ، كما أن العطية اسم للمعطى ، فتضاف إلى المهدى والمهدى له. والمعنى : أن ما عندى خير مما عندكم ، وذلك أن اللّه تعالى آتاني الدين والمعرفة به ، التي هى الغنى الأكبر ، والحظ الأوفر ، وأتانى من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلى بأن يمد بمال من قبلكم؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فلذلك تفرحون بما تزدادون ويهدى إليكم لأنّ ذلك مبلغ همتكم ، وحالى خلاف ذلكم ، فلا أرضى منكم بشيء ، ولا أفرح إلا بالإيمان منكم ، وترك ما أنتم عليه من المجوسية.

والإضراب راجع إلى معنى ما تقدم ، كأنه قيل : أنا لا أفرح بما تمدوننى به بل أنتم.

---

(١) قال العلامة ابن كثير ، بعد ذكره لهذه الروايات : واللّه أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٦٣).